الحركة الفكرية ضد الإسلام

أهدافها ومقاومتها

تأليف

الدكتور بركات عبد الفتاح دويدار

مدرس العقيده والفلسفة

كلية أصول الدين : أسيوط

دار التراث العربى للطبع والنشر

ت : ٩٣٦١٤٥

الحركة الفكرية ضد الإسلام

أهدافها ومقاومتها

تأليف
الدكتور بركات عبد الفتاح دويدار
مدرس العقيدة والفلسفة
كلية أصول الدين : أسيوط

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيدنا محمد خاتم الأنبياء والمرسلين .

وبعد :

فإن الله أرسل محمدا صلى الله عليه وسلم ليخرج الناس من الظلمات إلى النور .

وأنزل عليه القرآن الكريم ليصير به الإنسان كما قال سبحانه .

« أو من كان ميتا فأحييناه وجعلنا له نورا يمشى به فى الناس كمن مثله فى الظلمات ليس بخارج منها » .

ولم يكن طريق المسلم فى هذه الحياة سهلا ، بل بين له القرآن الكريم أنه مادام يود المحافظة على دينه فإن عليه أن يكون على يقين بأن الحرب بينه وبين أعداء الدين لن تهدأ .

جاء ذلك فى أكثر من آية .

قال تعالى « ولن ترضى عنك اليهود ولا النصارى حتى تتبع ملتهم » .

وقال عز من قائل : « ولئن أتيت الذين أوتوا الكتاب بكل آية ما تبعوا قبلتك وما أنت بتابع قبلتهم وما بعضهم بتابع قبلة بعض » .

وان العدو لن يسكت عند مجرد عدم الإيمان بل سيسلك كل الطرق لرد المسلمين عن دينهم .

إنه سيستعمل السيف .

قال الله تعالى « ولا يزالون يقاتلونكم حتى يردوكم عن دينكم إن استطاعوا » .

كما سيستعملوا الكلمة قال سبحانه .

« ولتسمعن من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم ومن الذين أشركوا أذى كثيراً ، وإن تصبروا وتتقوا فإن ذلك من عزم الأمور » .

الحرب إذا لن تهدأ ـ كما أخبر القرآن الكريم وكما أثبت الواقع ـ وما دام الأمر كذلك فقد أصبح على المسلمين أن يداوموا الدراسة ، دراسة ما يريده الأعداء حتى يستطيعوا الرد .

وهذا الكتاب الذى أقدمه اليوم « **الحركة الفكرية ضد الاسلام : أهدافها ومقاومتها** » سيجد فيه القارىء أن الحركة الفكريه ضد الإسلام ليست جديدة ، بل بدأت مع بدء الاسلام وأنها برغم تغــير شكلها ـ تعتبر فى الحقيقة متصلة الحلقات .

* * *

إن العدو الحديث ـ كسلفه ـ خائف من الاسلام وهو لا يكتم خوفه بل طالما صرح به :

« إن الحركات الفكرية فى الاسلام تستعد فى خفاء ، وصمت ، وتندلع فجأة ، دون أن يسبقها نذير يمكن أن يرى » .

ثم يحذر هذا القائل قومه «يجب أن نجعل هذه الحقائق نصب أعيننا إذا أردنا أن ندرك أى أساس واه تقوم عليه المنشآت الأوربية فى بلاد الاسلام .

فبعد أعوام من السكينة ربما تندلع بغتة نار الدعوة إلى الجهاد أبعد ما نكون توقعا » .

وخوف العدو من الاسلام لا يختص بموقع دون موقع إن الاسلام قد استطاع أن يغزو أوربا نفسها واعتنقه الكثير . ثم يجد النجاح فى الشرق حتى دخل الصين . فإذا « اعتنقت الصين التى تضم ثلث البشر على الأقل دين الاسلام ، تغيرت علاقات العالم القديم السياسية تغيرا عظيما . وأمكن دين محمد الذى يمتد إذ ذاك من جبل طارق إلى المحيط الهادي أن يهدد النصرانية من جديد .

وكلما سار العدو شوطا ضد الاسلام كلما زاد خوفه . لقد جرب السيف ولم يأت بنتيجة فلم يترك المسلمون دينهم .

ففى أثناء الحروب الصليبية كانت الدماء ـ دماء المسلمين تسيل كالأنهار فى طرق المدينة المغطاه بالجثث .

ولم يكن بين تلك الجماعة الكبرى واحد يرضى بالنصرانية دينا ،

وانتقل إلى حرب المسلمين فى لغتهم وعقيدتهم وعبادتهم وقانونهم وزيادة اسلامهم . محاولا زحزحتهم عن عقيدتهم بالتدريج ما دام لم يستطع ذلك دفعة واحدة .

وهو فى أثناء ذلك كله ، يعقد المؤتمرات ، ويدرس ويناقش ، وينتفع من أخطائه السابقة

والعجيب فى الأمر أن عناية الله ـ رغم تقصيرنا ـ كانت معنا .

فكثيرا ما اختلف الأعداء على أنفسهم وردوا تهما وجهوها إلى الاسلام حتى أنك لو تخيلت صورة كفار مكة وهم يأتمرون بالاسلام ويتناقضون فى أحكامهم ثم تخيلت صورة للاعداء فى الحديث .

أقول لو تخيلت الصورتين وعقدت مقارنة بينهما لوجدتهما متشابهتين ففى وسط الهجوم على الاسلام فى مكة تجدهم لا يستطيعون كتمان ما يكنونه للإسلام من احترام .

وفى وسط الهجوم على الاسلام فى الحديث نرى رينان الذى كان من أكبر أعداء الاسلام تأتى عليه لحظة يقول فيها : « إننى لم أدخل مسجدا من غير ان أهتز خاشعا ، أى من غير أن أشعر بشىء من الحسرة على أننى لست مسلما » .

هذه هى داخلية العدو .

كما قال تعالى « يعرفونه كما يعرفون أبناءهم وإن فريقا منهم ليكتمون الحق وهم يعلمون » .

من هنا يجب أن يكون أمامنا ـ ونحن نكافح عن الدين ـ أن النصر آت إن شاء الله . تحقيقا لقوله تعالى :

« يريدون أن يطفئوا نور الله بأفواههم ويأبى الله إلا أن يتم نوره ولو كره الكافرون ، هو الذى أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون » .

والله أسأل أن يجعل هذا العمل خالصا لوجهه الكريم وأن يرزقنا جميعا النجاح والتوفيق والسداد إنه سميع مجيب ؟

بركات عبد الفتاح دويدار

الفصل الأول

الاسلام والفكر المعادى

تمهيد :

كان العصر الذى بعث فيه الرسول صلى الله عليه وسلم عصرا يموج بأنواع الثقافات المختلفة التى قامت عليها حضارات أمم لازال التاريخ يقف أمامها دارسا ومتفهما .

فكان هناك فلسفة اليونان التى لازالت تشغل العالم حتى الآن تأييدا أوهجوما أخذا أو رفضا، بحيث يمكن القول أن دارسى الثقافة الإنسانية لابد لهم من محاولة الوقوف على ما كان لليونان من فكر، سواء كانت النتيجة تأييدا أم معارضة، وجاءت الحضارة الرومانية بما فيها من ثقافة ، ومالها من قانون لازال يدرس فى كليات الحقوق حتى الآن .

وبجانب هذا كانت فى الطرف الآخر من العالم حضارة الهند والصين والفرس هذه الحضارات ذات الديانات المتعددة .

والجزيرة العربية نفسها كان فيها ـ فوق ديانات الشرك ـ اليهودية والنصرانية ولليهود والنصارى أثر فى جميع أنحاء بلاد العرب ، وكتبهم فى أيدى الكثير هنا وهناك .

فى وسط هذا الجو استطاع الرسول صلى الله عليه وسلم أن يخرج للعالم أعظم أمة قادت البشرية ، وجيلا له خصائصه التى بها يتميز عن جميع من حوله من بنى الإنسان .

وكان الأساس الذى تقوم عليه عقيدة هذا الجيل ربط الإنسان بخالقه، وعلى أساس هذه العقيدة يرى الإنسان نفسه أمام الله مسئولا مسئولية كاملة عن كل تصرفاته ،لافرق فى ذلك بين حاكم ومحكوم،فالحاكم والمحكوم يعتبر نفسه عبد الله وليس المؤمن متروكا لعقيدته دون تعهد آخر بل، مع العقيدة تلك العبادات التى يقوم بها المسلم لا كما يريد بل كما يريد ربه ،وبالعقيدة والعبادة تصبح نفسه جديرة بأن تدخل معترك الحياة مطمئنة إلى النجاح فى أمورها .

فاذا مادخل المسلم معترك الحياة وجد الإسلام يأخذ بيده من وقت أن يستيقظ من نومه حتى يأوى إلى فراشه .

إن الإسلام يرسم له خطوط حياته مع نفسه ،ومع أسرته ، ومع مجتمعه الذى يعيش، بل ورزقه كيف يكسبه ، ويجعل كل خطوة يخطوها عبادة مادامت متفقة مع الإسلام .

يقود خطوات المسلم نحو كل هذا القرآن الكريم وأحاديث الرسول صلى الله عليه وسلم . والقرآن الذى تربى عليه ذلك الجيل لازال بين أيدينا لم يتغير منه حرف

وأحاديث الرسول صلى الله عليه وسلم وسيرته وسيرة خلفائه وصلت إلينا خالية من الشوائب. ونسأل لماذا استطاع عليه السلام أن يخرج جيلا خلقه القرآن ولماذا نفشل نحن فى تخريج جيل آخر يقترب من الأول .

وإذا أصبنا نجاحا فهو نجاح جزئى، السبب هو أن الرسول صلى الله عليه وسلم لم يتبع فى تربية أمته إلا الطريق الواضح طريق الله ، ليس هناك ترقيع فى شريعته يأخذ مرة من هنا ومرة من هناك، بل الأمر فى غاية الوضوح ، هذا الأمر من الله خذ به ، هذا الأمر مخالف لما جاء من عند الله لاتأخذ به،ولو ظننت أن فيه فوائد .

لقد كانوا ينظرون إلى مافى كتابهم فيعملون به لايبتعدون عنه قيد أنملة ، سئل الرسول صلى الله عليه وسلم عن الخمر تتخذ دواء ،فقال هى الداء .

ويروى البخارى فى قوله تعالى : (أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم) .

أنها نزلت فى عبدالله بن حذافة بن قيس بن عدى إذ بعثه النبي صلى الله عليه وسلم فى سرية فإن عبد الله بن حذافة خرج على جيش فغضب،فأوقد نارا وقال اقتحموها فامتنع بعضهم، وهم بعض أن يفعل .

وكان كل من الفريقين يحاول أن يفعل ما يرضي الله سبحانه ، فالذين هموا

بالطاعة وقفوا عند امتثال الأمر بالطاعة، والذين امتنعوا عارضه[1] عندهم الفرار من النار، فنزل فى ذلك ما يرشدهم إلى ما يفعلونه عند التنازع وهو الرد إلى الله وإلى رسوله، أى أن تنازعتم فى جواز الشىء وعدم جوازه فارجعو إلى الكتاب والسنة(٢).

هنا نجد الأمة تستقى من نبع واحد هو الإسلام، أما هذه الثقافات التى يعج بها العالم والأخذ عن الأمم الأخرى فلا حاجة إليها، فالإسلام ليس فى حاجة إلى ما يكمله، أخرج الطبرى وغيره عن طريق عمرو بن دينار عن يحى بن جعده قال: جاء ناس من المسلمين بكتب وقد كتبوا فيها بعض ما سمعوه من اليهود، فقال النبى صلى الله عليه وسلم: كفى بقوم ضلالة أن يرغبوا عما جاء به نبيهم إليهم إلى ما جاء به غيره إلى غيرهم فنزل (أو لم يكفهم إنا أنزلنا عليك الكتاب يتلى عليهم).

ويقول ابن عباس: كيف تسألون أهل الكتاب عن شىء وكتابكم الذى أنزل على رسوله صلى الله عليه وسلم حدث تقرؤنه محضا لم يشب، وقد حدثكم أن أهل الكتاب بدلوا كتاب الله تعالى وغيروه وكتبوا بأيديهم الكتاب وقد قالوا هو من عند الله ليشتروا به ثمنا قليلا(٣).

وغضب الرسول صلى الله عليه وسلم عندما وجد صحيفة من التوراة بيد عمر وقال والله لو كان موسى حيا بين أظهركم ما حل له إلا أن يتبعنى(٤).

كل هذا يرينا حرص الرسول صلى الله عليه وسلم على أن يكون جيلا قرآنيا خالصا غير موزع الفكر أو العقيدة، أنه بكليته يتجه إلى الله.

فإذا ما قرأ كتاب الله كانت قراءاته وحفظه ليعرف حكم الله فى أمر من أموره وأمور الأمة التى ينتسب إليها.

---

(١) أى عارض الأمر بالطاعه الأمر بالفرار من النار.

(٢) فتح البارى بشرح البخارى ص ٢٢٣ ج ٩ بتصرف بسيط

(٣) ابن حزم الفصل ص ٢١٦ — ٢١٧ ج ١

(٤) رواه الحافظ أبو يعلى عن حماد عن الشعبى عن جابر.

لقد استمعوا إلى كتاب الله للعمل به ولم يستمعوا إلى غيره لأنهم ـ بعده ـ لم تعد لهم حاجة إلى هذا الغير ؛ إن المسلم رأى أن وجوده من ربه فلابد أن تكون شريعته من ربه ، وكان الإسلام واضحا غاية الوضوح فى دلالة المسلم على خيرى الدين والدنيا .

ان مايتعلق بالعقيدة والعبادة والأخلاق والقانون الذى يحكمه ليس للمسلم أن يتجه فى ذلك كله إلا إلى ماجاء به الإسلام .

أما ما يتعلق بالأمور التى يحتاجها فى معاشه ، كيف يزرع الأرض ، كيف يمهد الطريق ، كيف يتقدم فى هذه الصناعة او تلك ، كل ذلك ليس للدين فيه دخل ، مادام يحافظ على الطابع الدينى العام مثل عدم الغش وعدم الخداع . الخ .

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (أنتم أعلم بأمور دنياكم) .

علاقة المسلم بغير المسلمين

فى الفصول القادمة سنحاول أن نعرف طبيعة المعركة التى تدور بين الإسلام وغيره من الأديان وخاصة اليهودية والنصرانية ، أما فى هذا الفصل فسنحاول أن نتبين الطريق الذى رسمه الإسلام للمسلم فى علاقته ، بغيره كيف تكون نظرته لمخالفيه فى الدين .

وابتداء نرى الإسلام يفرق بين نوعين من العلاقة :

أولا : علاقة موالاة ومحبة وصداقة ، وهذه يقصرها الإسلام على المسلم فقط .

ثانيا : علاقة تبادل المصالح ، وهذه لايمنع الإسلام من وجودها مع غير المسلم مادامت لايترتب عليها أضرار بالدين .

وموقفنا الآن مع النوع الأول .

ونريد أن نستوضح رأى الإسلام فى أربع نقط .

(ا) هل هناك فرصة للقاء دائم بين المسلم من ناحية وأهل الكتاب ـ اليهود والنصارى ـ من ناحية أخرى .

(ب) ماهي أساليب الأعداء ـ وخاصة اليهود والنصارى ـ التي جريت بالفعل وأخبرنا بها القرآن الكريم .

(جـ)ماهي توجيهات الإسلام ونصائحه للمسلم حتى يسلم من كيد هؤلاء الأعداء .

(د) ماهو رد الدين على الحجج التي يحتج بها من يوالي الكفار .

(ا)أما بالنسبة للنقطة الأولى وهي :

هل هناك فرصة للقاء دائم بين المسلم من ناحية وأهل الكتاب ـ اليهود والنصارى ـ من ناحية أخرى ، فنرى رأى القرآن فى هذه النقطة واضحا كل الوضوح .

إن العدو لن يهدأ فى يوم من الأيام،وليست هناك فرصة للقاء دائم بين المسلم وبين هؤلاء الأعداء وأن ، الحرب بين المسلم وبين اليهود والنصارى لايمكن أن تنتهى

أن الإسلام تتسع رقعته وتنتشر دعوته وبشارة الله ـ ليظهره على لدين كله ولو كره المشركون لابد أن تتحقق .

هذا من جهة الواقع،ومن جهة أخبار الصادق فاذا مانظرنا إلى الأمر من وجهة نظر أهل الكتاب نجد أن مايرضيهم أمر واحد هو ترك المسلم لدينه واتباع ملتهم لأن لهم مطلبا محددا هو القضاء على الإسلام،يقول تعالى : (ولن ترضى عنك اليهود ولا النصارى حتى تتبع ملتهم)(١).

هل يمكن للرسول أن يترك دعوته؟ لايمكن.هل هم يتركون دعوتهم إذا تبينوا أن الإسلام حق ؟ لايمكن ... النزاع إذ مستمر يقول تعالى : (ولئن أتيت الذين أوتوا الكتاب بكل آية ماتبعوا قبلتك وأما أنت بتابع قبلتهم ومابعضهم بتابع قبلة بعض)(٢).

أن أهل الكتاب لن يتبعوا قبلتك ؛لأن ابتعادهم عن الحق إنما هو عن مكابرة وعناد ، مع علمهم بأنهم ليسوا على شيء قال تعالى : الذين آتيناهم الكتاب

---

(١) التوبة :   (٢) البقرة :

يعرفونه كما يعرفون أبناءهم وإن فريقا منهم ليكتمون الحق وهم يعلمون)(١)
وما أنت بتابع قبلتهم؛ لأن الذى على حق لن يتركه .

وهكذا نجد أن القرآن الكريم يؤكد أن فرصة الإلتقاء النهائى معدومة .

ومعرفة الحق والتنكر له كما كان فى الماضى نراه فى العصور الحديثة .

فمن أظهر المتعصبين ضد الإسلام (رينان) وكم جادل وكتب ضد الإسلام ومن يقرأ ما كتب يعتقد أنه يكتب عن إيمان بما يقول، ولكن مفكرا فرنسيا ينقل لنا مشاعر رينان الحقيقية نحو الإسلام فيقول ـ بعد أن يروى شيئا كثيرا من تعصب رينان نحو الإسلام : ثم يظهر الكاتب الفاضل مسيو رينان أسفا أحيانا على سوء رأيه فى العرب، ويصل إلى النتيجة غير المنتظرة الآتية التى تم كذلك على ما بين ذاتية الإنسان القديمة التى هى وليدة الماضى) وذاتيته العصرية (التى هى وليدة المشاهدة الشخصية من التنازع ويأسف على أنه ليس من أتباع النبى فيقول : (إننى لم أدخل مسجدا من غير أن اهتز خاشعا ،أى من غير أن أشعر بشىء من الحسرة على إننى لست مسلما(٢) أليس هذا مصداقا لقوله تعالى : (يعرفون كما يعرفون أبناءهم وإن فريقا منهم ليتكتمون الحق وهم يعلمون) .

(ب)وأما بالنسبة للنقطة الثانية وهى :

ما هى أساليب الأعداء ــ وخاصة اليهود والنصارى ـ التى جريت بالفعل وأخبرنا بها القرآن الكريم ؟ .

تقدم لنا أن الطلب المحدد لأعداء الإسلام هو القضاء عليه ،وهم ــ كما أخبرنا القرآن الكريم ــ لم يسكتوا عند مجرد الأمانى ،بل عملوا بالفعل ضد الإسلام محاولين القضاء عليه . وسلكوا طرقا منها

محاولة تشكيك المسلمين .

منتهزين الفرصة التى ظنوها سانحة لهم وهى ما كان ينال المسلمين من هزيمة فى بعض

---

(١) البقرة : ١٤٦ (٢)ص١٩ ٥ حضارة العرب تأليف جلوستان لوبون.

الأحوال ، فنرى العدو يتحرك بعد غزوة أحد وما كان فيها من هزيمة للمسلمين جعلت أبا سفيان قائد جيش الشرك المنتصر ، يفكر فى الذهاب إلى المدينة لاستئصال شأفة الاسلام لولا حكمة الرسول صلى الله عليه وسلم فى تضميد جراح المسلمين وخروجه بهم مرة أخرى عقب الهزيمة حتى لا يطمع فيهم عدو . بعد هذه الغزوة نجد فنحاص بن عازورا وزيد بن قيس ونفرا من اليهود يجتمعون بحذيفة بن اليمان وعمار بن ياسر ويقولون لهما :

ألم تروا ما أصابكم ولو كنتم على الحق ماهزمتم ، فارجعوا إلى ديننا فهو خير لكم وأفضل ونحن أهدى منكم سبيلا فقال عمار : كيف نقض العهد فيكم ؟ قالوا شديد ، قال : فإنى قد عاهدت ألا أكفر بمحمد ماعشت ، فقالت اليهود : أماهذا فقد صبأ .

وأما حذيفة فلم يكن موقفه بأقل من موقف صاحبه تمسكا بدينه لأنه قال لهم فى وضوح أنه قد رضى بالقرآن إماما .وبالكعبة قبلة وبالمؤمنين إخوانا ،فعلموا أنه لا يمكن ارتداده عن دينه كذلك ، ورجع حذيفة وعمار إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وأخبراه بذلك فسر بموقفهما ،وقال: اصبتما خيرا وافلحتما ،ونزل فى ذلك قوله تعالى : (ود كثير من أهل الكتاب لو يردونكم من بعد إيمانكم كفارا حسدا من عند أنفسهم من بعد ماتبين لهم الحق)(١).

٢ — طريقة فرق تسد

جريت هذه الطريقة من قديم ، واستغل فيها بعض ما كان بين العرب قبل الاسلام من قتال ،ومعروف أن الأمة العربية قبل الاسلام كانت تعيش فى قتال دائم يقتل بعضهم بعضا ، ويغير بعضهم على بعض ، يدفعهم إلى ذلك حمية الجاهلية والنزاع على الماشية والمراعى والمياه او لمجرد إظهار البطولة والفروسية ويغذى ذلك كله الشعراء بامتداحهم للفارس ، بذلك اصبح حب القتال داء لا يمكن

---

(١) البقرة ١٠٩

استئصاله، وما من معركة تمر إلا وتترك ثأرا يفرض نفسه، يلاحق العربى فى كل مكان.

وبعد كل حرب وعند مايشعر الفريقان المتحاربان بشبح الفناء يخيم على الجميع عند ذلك يستمعون إلى قول من يتدخل للإصلاح، وتبعا للتقاليد العربية يتم الصلح من اخذ شروط ودفع دية.. الخ.

لكن إذا كان القتال قد انتهى هل يمكن نسيان النزاع نفسه وماحصل فيه نصر لهذا الفريق وهزيمة لذلك.

إن الأخبار يتناقلها القوم الذين لايجدون مايشغلون به فراغهم، وأبيات الشعر التى قيلت فى بسالة الأبطال وجبن الجبناء لايمكن أن تفارق العربى فى حله وترحاله.

من هذه المواقع التى كان لها شأنها بين العرب قبيل الاسلام (يوم بعاث).

كان بين الأوس والخزرج بالمدينة وكاد يهلك الطرفين رغم أنهما تربطهما القرابة الشديدة (إبناء عمومة) وكانت اليهود تغذى هذه العداوة، وجاء الاسلام وقضى على حمية الجاهلية، وانضوى الناس تحت لوائه، وجلس الأوسى مع الخزرجى ناسيا كل ما كان فى الجاهلية.

ومر شاش بن قيس اليهودى - وكان عظيم الكفر، شديد الطعن على المسلمين شديد الحسد لهم - على نفر من الأنصار من الأوس والخزرج فى مجلس لهم يتحدثون. ورأى اجتماعهم والألفة التى أصبحت بينهم بعد أن كانوا أعداء، وامتلأ بالغيظ. وعرف أنه لا يمكن أن ينتصر عليهم بحرب ما داموا مؤتلفين لابد إذا من عمل لفض اجتماعهم.

فأرسل إليهم شابا من اليهود، وأمره أن يجلس إليهم، ويذكرهم يوم بعاث وينشدهم بعض ماقيل فيه من الأشعار وأدى الشاب اليهودى مهمته بأمانة وعند ذلك ثارت فى القوم العصبية القديمة، ونادوا: السلاح. السلاح، وكادت المعركة تنشب بين الفريقين وعلم النبى صلى الله عليه وسلم بالأمر فخرج مسرعا ومعه ناس

من المهاجرين والأنصار حتى وصل إليهم، وناداهم قائلا : أبدعوى الجاهلية وأنا بين أظهركم بعد إذ أكرمكم الله بالاسلام،وقطع به عنكم أمر الجاهلية وألف بينكم ، فعرف القوم أنها كانت خدعة شيطانية،وأنهم كانوا ضحية لها حين دبرها لهم عدوهم فالقوا السلاح ،وبكوا وتعانقوا ، وانصرف الجميع مع رسول الله صلى الله عليه وسلم،ونزل فى ذلك قوله تعالى :

(يا أيها الذين آمنوا إن تطيعوا فريقا من الذين أوتوا الكتاب يردوكم بعد إيمانكم كافرين ، وكيف تكفرون وأنتم تتلى عليكم آيات الله وفيكم رسوله ومن يعتصم بالله فقد هدى إلى صراط مستقيم)(١) .

٣ — التظاهر بالاسلام :

٣ — فكرت مجموعة من أهل الكتاب فى حيلة غريبة كان لها أثر كبير فى تفريق المسلمين فى كل العصور وتتلخص هذه الطريقة فى أن هذه المجموعة . تظهر الإسلام ، وتدعى أنها تؤمن بكل ما جاء من عند الله ، وما نزل على محمد صلى الله عليه وسلم ويراهم المسلمون ، الذين آمنوا أيضاً بعد كفر ، ويعتقدون أخوتهم فى الدين .

وبعد أن يطمئن الجميع إلى هذه الطائفة وإسلامهم ،تبدأ هذه الطائفة فى المرحلة الثانية ،وهى رجوعهم عن الإسلام، وإعلان الكفر مرة أخرى ، ويعللون الكفر بعد الإيمان بأنهم نظروا فى دين محمد فوجدوه كذبا وباطلا .

وهم فى الحقيقة مصدقون بينهم وبين أنفسهم بأن ماجاء به محمد إنما هو من عند الله مثل الذى جاء به موسى،ولكنهم لا يعلنون ذلك(أى ماجاء به محمد مثل ما جاء به موسى) إلا لأشياعهم .

والثمرة التى يجنونها من هذا العمل هو أن دخولهم فى الإسلام سيجعل المسلمين يطمئنون إليهم،فاذا ما خرجوا إليه معلنين أنهم ما وجدوا فى الإسلام شيئاً فانهم بذلك سيشككون كثيراً من المسلمين فى دينهم وبالطبع هم لم يطمعوا فى تشكيك

---

(١) آل عمران آية : ١٠٠ ، ١٠١

أبى بكر أو عمر أو عثمان أو على ، ولكنهم يطمعون فى هؤلاء الذين لم يصلوا إلى هذه الدرجة من الإيمان وتجوز عليهم الحيلة .

قال تعالى فى ذلك :

(وقالت طائفة من أهل الكتاب آمنوا بالذى أنزل على الذين آمنوا وجه النهار واكفروا آخره لعلهم يرجعون . ولا تؤمنوا إلا لمن تبع دينكم . قل إن الهدى هدى الله أن يؤتى أحد مثل ما أوتيتم أو يحاجوكم عند ربكم ، قل إن الفضل بيد الله يؤتيه من يشاء والله واسع عليم(١) .

٤ — إتخاذ مراكز فى داخل المسلمين ، ظاهرها طاعة وباطنها كيد للاسلام

ومن أمثلة ذلك مسجد الضرار ، ومن قصة هذا المسجد أن أبا عامر الراهب — وهو الذى سماه الرسول صلى الله عليه وسلم الفاسق . قال لرسول الله صلى الله عليه وسلم يوم أحد : لا أجد قوماً يقاتلونك إلا قاتلتك معهم ، فلم يزل يقاتله إلى يوم حنين، وكان أبو عامر على دين هرقل ممن تنصر معهم من العرب، فلما انهزمت هوازن خرج هارباً إلى الشام، ولم يسكت عند هذا الحد بل حاول استعمال طرق أخرى فأرسل إلى المنافقين أن استعدوا بما استطعتم من قوة وسلاح وعرفهم بأنه سيذهب إلى قيصر ويستنصره على محمد، ويطلب منه إمداده بجنود ليستطيع إخراج محمد وأصحابه من المدينة فبنوا مسجداً بجنب مسجد قباء ، وقالوا للنبي صلى الله عليه وسلم :

بنينا مسجداً لذى العلة والحاجة ، والليلة المطيرة الشاتية ، ونحن نحب أن تصلى لنا فيه وتدعوا لنا بالبركة .

فقال النبي صلى الله عليه وسلم :

« انى على جناح سفر وحال شغل ، وإذا قدمنا — إن شاء الله — صلينا فيه، فلما قفل من غزوة تبوك سألوه اتيان المسجد فنزل قول الله تعالى :

---

(١) آل عمران أيه ٧٢ : ٧٣ .

(والذين اتخذوا مسجداً ضراراً وكفراً وتفريقاً بين المؤمنين وإرصاداً لمن حارب الله ورسوله من قبل وليحلفن إن أردنا الآ الحسنى والله يشهد انهم لكاذبون ، لا تقم فيه أبداً لمسجد أسس على التقوى من أول يوم أحق أن تقوم فيه ، فيه رجال يحبون أن يتطهروا والله يحب المطهرين ، أفمن أسس بنيانه على تقوى من الله ورضوان خير أم من أسس بنيانه على شفا جرف هار فانهار به فى نار جهنم والله لا يهدى القوم الظالمين لا يزال بنيانهم الذى بنوا ريبة فى قلوبهم إلا أن تقطع قلوبهم والله عليم حكيم)

فلما نزلت دعا رسول الله صلى الله عليه وسلم بمالك بن الدخشم، ومعبد بن عدى وعامر ابن السكن، ووحشى قاتل حمزة فقال لهم : انطلقوا إلى هذا المسجد الظالم أهله فاهدموه وأحرقوه ففعلوا .

وأمر أن تتخذ مكانه كناسة تلقى فيها الجيف والقمامة ، ومات أبو عامر بالشام بقنسرين ومعنى قوله تعالى : وإرصاداً لمن حارب الله ورسوله ، اى واعداداً لاجل من حارب الله ورسوله ، وهو الراهب أعدوه له ليصلى فيه ويظهر على رسول الله صلى الله عليه وسلم .

فقد كان أبو عامر الراهب يكتب إلى إخوانه الذين نافقوا يعدهم ويمنيهم وما يعدهم الشيطان إلا غروراً ، فكانت مكاتباته ورسله تفد إليهم كل حين ، فبنوا هذا المسجد فى الصورة الظاهرة وباطنه دار حرب ، ومقر لمن يفد من عند أبى عامر الراهب، ومجمع لمن هو على طريقتهم من المنافقين .

وكان الرسول صلى الله عليه وسلم شديداً مع هؤلاء الذين يتخذون أوكاراً يتجمعون فيها فكما حرق مسجد الضرار بعد غزوة تبوك نجده قبل الغزوة يبلغه أن (ناسا) من المنافقين يجتمعون فى بيت سويلم اليهودى ، وكان بيته عند جاسوم يثبطون الناس عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فى غزوة تبوك ، فبعث إليهم طلحة بن عبيد الله فى نفر من اصحابه ، وأمره ان يحرق عليهم بيت سويلم ففعل طلحة .

٥ — النفاق:

يلقون المؤمنين بوجوه المصادقين ،ويوهمونهم بأنهم معهم ، فاذا مارجعوا إلى الخبيثين من قومهم كشفوا لهم عن كل ما فى صدورهم .

وهؤلاء المنافقون لهم دور ضخم فى التاريخ الإسلامى من وقت ان نزل رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة حتى الآن، وهم شر عدو أصيب به الإسلام وقد عالج القرآن الكريم مسألة النفاق فى عدة مواضع حتى لا تكاد تخلو منها سورة مدنية.وروى أن عبد الله بن أبى وأصحابه خرجوا ذات يوم فاستقبلهم نفر من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم .

فقال عبد الله أنظروا كيف أرد هؤلاء السفهاء عنكم ، فأخذ بيد أبى بكر فقال مرحبا بالصديق سيد بنى تيم،وشيخ الإسلام ،وثانى رسول الله فى الغار الباذل نفسه وماله لرسول الله،ثم أخذ بيد عمر،فقال مرحبا بسيد بنى عدى الفاروق القوى فى دين الله الباذل نفسه وماله لرسول الله .

ثم أخذ بيد على ، فقال مرحبا بابن عم رسول الله وختنه ، سيد بنى هاشم ماخلا رسول الله،ثم افترقوا ، فقال لأصحابه :

كيف رأيتمونى،فعلت : فاثنوا عليه خيرا.

وفى ذلك نزل قوله تعالى :

(وإذا لقوا الذين آمنوا قالوا آمنا وإذا خلوا إلى شياطينهم قالوا إنا معكم إنما نحن مستهزئون) .

٦ — المقاطعة الاقتصادية :

ما تقدم كان محاربة للاسلام بنوع من الخبث والمداراة ، ولكن الأمر كان لايقف عند هذا الحد ، بل كان هناك أنواع من الحروب العلنية، ونحن لن نتعرض لتلك الحروب التى كانت بين المسلمين وأعدائهم من اليهود والنصارى ، بل سنقصر الكلام على تلك الحروب التى يطلق عليها بلغة العصر الحاضر الحرب الباردة .

من هذه الأنواع الحرب الاقتصادية، ومحاولة تجويع المسلمين، حتى إذ ماعضهم الجوع تركوا الإسلام وتفرقوا عن رسول الله، ويقول سبحانه وتعالى فى ذلك :

(هم الذين يقولون لاتنفقوا على من عند رسول الله حتى ينفضوا ولله خزائن السموات والأرض ولكن المنافقين لايفقهون) .

٧ – الكذب وشهادة الزور :

نزل الرسول صلى الله عليه وسلم المدينة وفيها — مع الأوس والخزرج — اليهود وآخى عليه السلام بين المهاجرين والأنصار ، وعقد المعاهدات مع اليهود ، وبدأ نصر الله ، وبدأ اليهود يوقنون أن محاولة تفريق الأنصار ، أو محاولة إثارة الضغائن بين المهاجرين والأنصار ، أو محاولة تشكيك المسلمين فى دينهم بدءوا يوقنون أن هذه المحاولات وأمثالها إنما هى محاولات فاشلة .

وبدءوا يفكرون فى الاتجاه إلى الأعداء التقليديين لرسول الله صلى الله عليه وسلم والمسلمين وهم أهل مكة .

وخرج حيي بن أخطب وكعب بن الأشرف إلى مكة مع جماعة من اليهود وكان الغرض الذى يرمون إليه من هذه الرحلة هو محالفة قريش على محاربة رسول الله صلى الله عليه وسلم، وأرادت قريش أن تطمئن لنفسها حتى لاتقع فى فخ نصب لها فقالوا للوفد اليهودى: أنتم اهل كتاب ، وأنتم أقرب إلى محمد منكم إلينا فلا نأمن مكركم فاسجدوا لآلهتنا حتى نطمئن إليكم، ففعلوا وبدأ أبو سفيان فى الاستفهام عن أمر آخر ، إن الحرب بينه وبين محمد بن عبد الله حرب دينية ، أبو سفيان يدافع عن آلهته من الأصنام وينقمون من محمد أنه عاب آلهتهم وسفه أحلامهم، وفى سبيل إرجاع محمد عن دعوته عرضوا عليه المال حتى يكون أكثرهم مالا ، وعرضوا عليه الملك — وتمليك العربى — لغيره عليه ليس بالأمر السهل على النفس العربية ، ولكن هذا كله هان أمام عقيدتهم حتى لاتعاب آلهتهم .

إذا الحرب من ناحية قريش دينية ، ومن ناحية الرسول صلى الله عليه وسلم دينية أنه الحق يدعو إليه ، ليس الملك ولا الجاه ولا الدنيا بأكملها (والله ياعم لو وضعوا الشمس فى يمينى والقمر فى يسارى على أن أترك هذا الأمر ماتركته حتى يظهره الله أو أهلك دونه) .

من هنا أراد أبو سفيان أن يعرف رأى هؤلاء اليهود فى عقيدتهم فبعد أن سجدوا لأصنامهم سأل أبو سفيان هذا السؤال .

أنحن أهدى سبيلا أم محمد ؟ ورد وفد اليهود قائلين : ومادينكم ؟ قال أهل مكة : نحن ولاة البيت ونسقى الحاج ونقرى الضيف ونفك العانى ، وذكروا أفعالهم التى كانوا يقومون بها فى الجاهلية، باعتبارهم حماة البيت الحرام ، ورد اليهود على سؤال أهل مكة قائلين أنتم أهدى سبيلا .

وأنزل الله سبحانه فى ذلك :

(ألم تر إلى الذين أوتوا نصيبا من الكتاب يؤمنوا بالجبت والطاغوت ويقولون للذين كفروا هؤلاء اهدى من الذين آمنوا سبيلا) .

وإيمانهم بالجبت والطاغوت لأنهم سجدوا للأصنام ،وأطاعوا إبليس فيما فعلوا .

فنجد الكيد للاسلام هنا يحملهم على ارتكاب الصعب انهم يسجدون للأصنام تطمينا للمشركين أنهم ليسوا على الباطل ، ثم يشهدون أن عبادة الأصنام خير من عبادة الله سبحانه .

كل ذلك ليصلوا إلى كسب حزب جديد ضد محمد صلى الله عليه وسلم ، والقرآن الكريم يخبرنا أن بجرد موالاتهم للمشركين ما كان يصح منهم لو كانوا حقا متمسكين بدينهم الذى يدينون به .

يقول تعالى :

(ترى كثيرا منهم يتولون الذين كفروا لبئس ما قدمت لهم أنفسهم أن سخط

الله عليهم وفى العذاب هم خالدون .

ولو كانوا يؤمنون بالله والنبى وماأنزل إليه مااتخذوهم أولياء ولكن كثيرا منهم فاسقون).

فمجرد موالاة المشركين دليل على أن إيمانهم بدينهم ليس بإيمان فلو كانوا يؤمنون بالله وموسى — كما يدعون — ما اتخذوا المشركين أولياء .

ان أصحاب الأديان السماوية رسالتهم هى أن يحاربوا الشرك وهذا ما أوصى به القرآن الكريم عندما يقول فى سورة الروم : (ألم غلبت الروم فى أدنى الأرض وهم من بعد غلبهم سيغلبون ، فى بضع سنين لله الأمر من قبل ومن بعد ويومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله ، ينصر من يشاء وهو العزيز الرحيم)[1].

ففرح المؤمنين هنا بنصر الله لتغليبه من له كتاب على من لا كتاب له ، وهذه هى سنه الاسلام فى التفريق بين من له كتاب ومن ليس له كتاب فى الزواج وأكل الطعام . . . الخ .

يحل زواج الكتابيه وطعام أهل الكتاب ولا يحل ذلك من المشركين .

٨ — السخرية بأركان الاسلام ، وأسماع المؤمنين أنواع الأذى .

كما أن من سنة الحياة أن يواجه الانسان من أنواع الابتلاء فى النفس والمال والأهل ، كذلك لا بد أن يعلم المسلم أنه لن يسلم من سماع الأذى ، والأذى الكثير من مخالفيه فى الدين — أهل كتاب ومشركين — وعليه أن يوطن نفسه على هذا وإلا فاذا كان يبغيها حياة اسلامية دون أن يتعرض لأنواع الأذى . إذا أراد ذلك فهو واهم .

سماعه الأذى كان ولابد، وعليه أن يصبر ويتقى وأن يعلم أن الصبر من الأمور التى أوجبها الله عليه فى مثل هذه الأحوال .

---

(١) آيات ١ — ٥ .

يقول تعالى : (لتبلون فى أموالكم وأنفسكم ولتسمعن من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم ، ومن الذين اشركوا أذى كثيرا ، وإن تصبروا وتتقوا فان ذلك من عزم الأمور)(١).

وأنواع الأذى التى كان يسمعها المسلمون قدقص علينا القرآن بعضها . . منها السخرية بأركان الاسلام .

قال تعالى : (وإذا ناديتم إلى الصلاة اتخذوها هزوا ولعبا ذلك بأنهم قوم لا يعقلون)(٢) . ومنها استعمال الكلمات التى تحتمل وجهين كما فى قوله تعالى : (من الذين هادوا يحرفون الكلم عن مواضعه ويقولون سمعنا وعصينا واسمع غير مسمع وراعنا ليا بألسنتهم وطعنا فى الدين)(٣) فكانوا سخرية بالدين وهزءا برسول الله صلى الله علية وسلم يكلمونه بكلام محتمل . ينون به الشتيمة والاهانة ، ويظهرون به التوقير والاحترام (ليا بألسنتهم) .

فتلابها وتحريفا أى يفتلون بألسنتهم الحق إلى الباطل حيث يضعون راعنا(٤) موضع أنظرنا وغير مسمع بوضع لا اسمعت مكروها(٥) أنهم - أهل الكتاب - مصممون على هذه العداوة من أول الأمر .

عن صفية بنت حيى : لما قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم قباء — قرية بنى عوف — عدا إليه أبى وعمى أبو ياسر بن أخطب مغلسين ، فوالله ماجاءنا إلا مع مغيب الشمس فجاءنا فاترين كالانين ساقطين يمشيان الهوينا فبششت إليهما كما كنت اصنع ، فوالله مانظر إلى واحد منهما فسمعت عمى أبا ياسر يقول لابى أهو هو ؟ قال نعم والله : قال تعرفه بنعته وصفته قال : نعم والله قال : فماذا فى نفسك منه ؟ قال : عداوته والله مابقيت .

---

(١) آل عمران آية ١٨٦ . (٢) المائدة آية ٥٨

(٣) النساء بعض آية ٤٦ .

(٤) الآية يحتمل شبه كلمة عبرانية وسريانية كانوا يتسابون بها وهى راعينا .

(٥) ابن كثير البداية والنهاية ص ٢١٢ ج ٣

أمام هذه العداوة اللامحدودة لابد من الصبر .

(ج) وأما بالنسبة للنقطة الثالثة وهي:

ماهى توجيهات الإسلام ونصائحه للمسلم حتى يسلم من كيد هؤلاء الأعداء ؟
المسلم فى هذه الحياة الدنيا صاحب رسالة لابد أن يؤديها كاملة هو ليس طالب دنيا ولا طالب ملك ، لذلك نجد تربية الإسلام للمسلم تسير دائما فى طريق ليست فيه ليونة ، تربية للنفس بفطامها عن الشهوات ، ونهى لها عن الهوى ثم العبادات نفسها تراها كلها تقريبا تسير فى هذا المنهج ، صلاة تبدأ من أول النهار إلى آخره مقسمة على أوقاته ، حيث نوم الصباح لذيذ ينادى مؤذن الفجر ، وحيث المشاغل والجرى وراء الدنيا أو حب الراحة وقت القيلولة ينادى مؤذن الظهر والعصر ، وحيث الذهاب إلى السمر ومافيه من ميل للشهوات ينادى مؤذن المغرب والعشاء ، وحيث الليل بسكونه ودفء الفراش تكون سنة قيام الليل .

وهكذا الزكاة : المال شقيق الروح ولكن فى هذا المال حق للسائل والمحروم ، والصوم ومافيه من تربية النفس ومنعها عن الطعام والشراب برغم أنهما أمامها والحج ومافيه من بذل المال ، وترك الأهل والولد إلى رحلة فرضها الله تعالى .

بهذا المنهج يربى الاسلام المسلم على الصبر ، وتحمل المشاق وطاعة الأوامر .

وإذا ماوصلنا إلى موضوعنا هذا نجد أن القرآن الكريم قد أوضح أن : هؤلاء الأعداء لايمكن أن ترضيهم ، ولن يسكتوا عن تدبير أنواع الأضرار بالمسلمين حكم الإسلام هو :

ممنوع على المسلم — والأمر كذلك — أن يوالى اليهود والنصارى ، ويرى الاسلام أن الرابطة الحقيقية التى يجب أن يرتبط بها المسلم هى رابطة الدين ، تلتئم الجماعة حيث يوجد الاسلام فيهم وتفترق حيث يفترقون فى الدين .

ولا اعتبار بعد ذلك لأى نوع من العلائق سواء كانت علائق نسب أو جوار

أو اقتصاد أو غيرها . هذا حكم لايتركه الإسلام لاجتهاد المجتهدين ، وإنما يحدده تحديدا واضحا لاشبهة فيه. يقول تعالى :

(يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا اليهود والنصارى أولياء بعضهم أولياء بعض ومن يتولهم منكم فانه منهم إن الله لايهدى القوم الظالمين .

فترى الذين فى قلوبهم مرض يسارعون فيهم يقولون نخشى أن تصيبنا دائرة فعسى الله أن يأتى بالفتح أو أمر من عنده فيصبحوا على ما أسروا فى أنفسهم نادمين[١]).

ومعنى الآية — كما جاء فى تفسير الكشاف للزمخشرى — لاتتخذوهم أولياء تنصرونهم وتستنصرونهم وتواخونهم وتصافونهم وتعاشرونهم معاشرة المؤمنين .
ثم علل النهى بقوله (بعضهم أولياء بعض) أى إنما يوالى بعضهم بعضا لاتحاد ملتهم واجتماعهم فى الكفر فما لمن دينه خلاف دينهم ولموالاتهم؟ (ومن يتولهم منكم فإنه منهم) من جملتهم وحكمه حكمهم، وهذا تغليظ من الله وتشديد فى وجوب مجانبة المخالف فى الدين، واعتزاله كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

(لاترادى ناراهما).

ومنه قول عمر رضى الله عنه لأبى موسى فى كاتبه النصرانى : لاتكرموهم إذ أهانهم الله ، ولا تأمنوهم إذ خونهم الله .ولاتدنوهم إذ أقصاهم الله .

وروى أنه قال له أبو موسى : (لاقوام لأهل البصرة إلا به) فقال له (مات النصرانى والسلام) يعنى هب أنه قد مات، فما كنت تكون صانعا حينئذ فاصنعه الساعة ، واستغن عنه بغيره .

(إن الله لا يهدى القوم الظالمين) .

يعنى الذين ظلموا أنفسهم بموالاة الكفر يمنعهم ألله الطاقة ويخذلهم مقتا لهم .

---

(١) المائدة آيتى ٥١ ، ٥٢

(يسارعون فيهم) .

ينكمشون(١) فى موالاتهم ،ويرغبون فيها ، ويعتذرون بأنهم لا يأمنون أن تصيبهم دائرة من دوائرالزمان،أى صرف من صروفهودولة من دولة ، فيحتاجون إليهم وإلى معونتهم .

وعن عبادة بن الصامت رضى الله عنه أنه قال لرسول الله صلى الله عليه وسلم: « ان لى موالى من يهود كثير عددهم ، وإنى ابرأ إلى الله ورسوله من ولايتهم واوالى الله ورسوله .

فقال عبدالله بن أبى إنى رجل أخاف الدوائر ، لا ابرأ من ولاية موالى يهود بنى قينقاع » هكذا يحدد القرآن الكريم الموقف الذى يجب أن يتخذه المسلم حيال اليهودى والنصرانى، وخير مايوضح رأى القرآن الكريم هو موقف عمر رضى الله عنه من النصرانى الذى اتخذه أبو موسى كاتبا له وعلل ذلك بأن أهل البصرة لاغنى لهم عنه .

فكان جواب عمر واضحا : هبه مات هل تتعطل الدنيا ، إن اختلاف الدين يجعل القريب بعيدا ، ويضرب الله لنا المثل فى قصة نوح حين يقول : (ونادى نوح ربه فقال رب أن ابنى من أهلى وأن وعدك الحق وأنت أحكم الحاكمين ، قال يانوح أنه ليس من أهلك أنه عمل غير صالح فلا تسألن ماليس لك به علم أنى أعظك أن تكون من الجاهلين ، قال رب إنى أعوذ بك أن أسألك ماليس لى به علم وإلا تغفر لى وترحمنى أكن من الخاسرين)(٢).

فالله سبحانه نفى أن يكون ولد نوح من أهله وعلل ذلك بقوله (انه عمل غير صالح) فقرابة الدين فوق قرابة النسب ، وإن من لم يكن على دينك بعيد عنك وإن كان قريبك فى النسب ، وإن المتفق معك فى الدين هو أخوك ولو كان حبشيا وأنت قرشى :

---

(١) فى القاموس كمشه أعجله وتكمش أسرع كانكمش .
(٢) هود آيات : ٤٥ ، ٤٧ .

القرابة الحقيقية إذا هى قرابة الدين .

أليس اختلاف الدين من موانع الميراث فى الإسلام؟ وإذا كان اختلاف الدين له كل هذا الأثر فيجب على المسلم أن يحتاط للأمر ، فلا يتخذ المخالفين فى الدين خصيصين وأصفياء يفضى إليهم بشعوره ويثق فيهم، لأن هؤلاء المخالفين لا يقصرون فى إيصال الفساد إليه ، وهم يتمنون أن يضروه فى دينه ودنياه ، أشد الضرر وأبلغه.

وأنت إذا تتبعت هؤلاء المخالفين الذين يبدون شيئا من الموده للمسلمين تجد أنهم مهما كان ضبطهم لأنفسهم وتحاملهم عليها لا بد أن ينفلت من ألسنتهم ما يعلم به بغضهم للمسلمين :

ومهما يكن عند امرىء من خليقه وإن خالها تخفى على الناس تعلم

أن الآيات القرآنية هنا — كما هى فى مواضع أخرى — تأتى بالحكم مسببا يقول تعالى :

(يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا بطانة من دونكم لا يألونكم خبالا ودوا ما عنتم قد بدت البغضاء من أفواههم وما تخفى صدورهم أكبر قد بينا لكم الآيات إن كنتم تعقلون ها أنتم أولاء تحبونهم ولا يحبونكم وتؤمنون بالكتاب كله وإذا لقوكم قالوا آمنا وإذا خلوا عضوا عليكم الأنامل من الغيظ قل موتوا بغيظكم ان الله عليم بذات الصدور ، إن تمسسكم حسنة تسؤهم وإن تصبكم سيئة يفرحوا بها وإن تصبروا وتتقوا لا يضركم كيدهم شيئا إن الله بما يعملون محيط(١).

هذه هى النصائح — بل الأوامر — التى يقدمها الإسلام للمسلم فى أخطر مسألة تتوقف عليها حياته المستقبلة .

إن أى خطأ فيها قد يودى بحياته ليس كفرد ولكن كأمة لها رسالة تعيش من أجلها .

---

(١) آل عمران ، ١١٨ — ١٢٠

والنزاع نزاع عقائدى : إما إسلام كما يحب المسلمون، وإما لا إسلام كما يريد غير المسلمين ، فاذا ما أخذنا ناحية مثل سخرتهم بالإسلام ، نرى أن من يرضى بموالاة من يسخر بدينه يجب عليه أن يتعلم كيف يحافظ على الكرامة ، كما يجب أن يعلم أن عباد الأوثان غضبوا عندما رأوا النبي صلى الله عليه وسلم يعيب آلهتهم ويسفه أحلامهم ، ورأوا أنهم ماداموا قد ارتضوها آلهة لابد أن يدافعوا عنها ولو كلفهم ذلك بذل الروح وكان الواحد منهم لا يرضى بالسخرية مما يعبد إلا بعد أن يترك عبادته ويعلن إسلامه .. إن عقيدتى هى أثمن شيء أحرص عليه ، انها الطريق الذى اخترته لنفسى ليوصلنى إلى سعادتى الدينية والدنيوية ، عليها أحيا ، وفى سبيلها أبذل الغالى والرخيص، فإذا لم أكن كذلك لا داعى لأن أصف نفسى بأنى صاحب عقيدة .

إنى عندما أوالى من يسخر من عقيدتى أكون قد هنت على نفسى والرسول صلى الله عليه وسلم يقول :

« من أعطى الذلة من نفسه طائعا غير مكره فقد برىء من ذمة محمد » .

حقيقة قد يسخر منى إنسان ومن عقيدتى ، وأرى أن السكوت أولى فى هذه اللحظة عملا بقول الله تعالى : (وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاما) . ولكن هناك فرق كبير بين مداراة السفيه وموالاته ،

(د) وأما بالنسبة للنقطة الرابعة وهى

ماهو رد الدين على الحجج التى يدلى بها من يوالى الكفار؟ . إن الذين يوالون الكفار لا يعدمون حجة يحتجون بها ويرمون بها فى وجه من يعارضهم ان السبب الأساسى فى موالاة الكفار — فى الحقيقة — هو ضعف العقيدة .

ولكنهم لا يصرحون بهذا ، بل يظهرون حججا أخرى أهم هذه الحجج هى .

١ — الاستنصار بهم .

٢ — مخافة الفقر بقطع الصلة بهم .

٣ — صلة القرابة .

والقرآن الكريم يرد على هذه الحجج

فبالنسبة للاستنصار بهم

فبالنسبة للاستنصار بهم يقول تعالى: (فترى الذين فى قلوبهم مرض يسارعون فيهم يقولون نخشى أن تصيبنا دائرة فعسى الله أن يأتى بالفتح أو أمر من عنده فيصبحوا على ما أسروا فى أنفسهم نادمين).

ان الآية توضح أن أساس المسارعة والرغبة فى موالاتهم إنما هو المرض فى القلب، وسوء الاعتقاد فى الله سبحانه، ومع أن هذا هو السبب الحقيقى فإن القرآن يرد على ما أظهروا من أسباب .

أنهم يقولون « نخشى أن تصيبنا دائرة » فهم — كما يقولون — لا يأمنون أن تصيبهم دائرة من دوائر الزمان أو صرف من صروفه أودولة من دوله ، وعندئذ يصبحون فى حاجة إلى معونتهم .

هذه حجة من يئس من ربه ويأخذ الأمور بالنظر القصير.

انه لو نظر إلى التاريخ لعرف أن الأيام دول ، وكم من قوى أصبح ضعيفاً ومن هنا يكون من الخطأ بيع الدين من أجل مخلوق ، بل عليه أن يطيع ربه ولاشأن له بما بعد ذلك، ومن هنا يكون رد الله على هذه الحجة .

(فعسى الله أن يأتى بالفتح) بإظهار المسلمين (أوامر من عنده) باستئصال شأفة هؤلاء الذين تعتمدون عليهم :فيصبح هؤلاء الذين فى قلوبهم مرض نادمين على ماحدثوا به أنفسهم .

إن الله سبحانه يبين مصدر النصر وأنه منه وحده حين يقول .

(إن ينصركم الله فلاغالب لكم وان يخذلكم فمن ذا الذى ينصركم من بعده) إذا فلكى تحصل على نصر الله عليك ان تقوم بما يطلبه منك وهو الطاعة وتنفيذ ما أمر وأن تحذر المعصية ، وتهب نفسك لله وتأخذ فى الأسباب التى أمرك بها وبعدذلك لا تسأل ماذا سيكون ولكن هؤلاء مرضى القلوب ـ ككثير من الذين ينتسبون إلى الإسلام فى كل وقت — كانوا يشكون فى أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم

ولا يظنون ان أمره سيظهر ، أوهم لحقدهم كانوا يتمنون ألا يظهر ، وكان اعتقادهم أو هم يتمنون ، أن الغلبة تكون لهؤلاء الأعداء عليه .

وبالنسبة للامر الثانى

وهو اعتذارهم بخوف الفقر نجد الذين يقطع أن الأرزاق بيد الله لابيد غيره ،لوأراد الاعداء افقار احد او إغنائه مااستطاعوا إلا بارادة الله . :

لما أراد الأعداء أن يجربوا عملية التجويع وقالوا (لاتنفقوا على من عند رسول الله حتى ينفضوا) رد الله عليهم بقوله :

(ولله خزائن السموات والأرض ولكن المنافقين لا يفقهون) لن يستطيع كائن من كان أن يتحكم فى ارزاق عباده ، يقول تعالى (ما يفتح الله للناس من من رحمة فلا ممسك لها وما يمسك فلا مرسل له من بعده وهو العزيز الحكيم)(١)

أى شىء يرسله الله من رزق أو مطر أو صحة أو أمن أو أولاد أوغير ذلك من انواع النعمة لا أحد يقدر على امساكه وحبسه وأى شىء يمسكه الله فلاأحد يقدر على اطلاقه ، هذه قاعدة يؤكدها الشرع فى كل موطن .

يخشى فيه الإنسان على رزقه، كما نراه،هنا وكما نراه مع الذين يقتلون اولادهم خوف الفقر حين يقول سبحانه :

(ولاتقتلوا اولادكم من إملاق نحن نرزقكم واياهم)(٢)

وعندما نزل النهى عن السماح للمشركين بأن يقربوا المسجد الحرام بعد هذا العام ـ التاسع الهجرى ـ بين الله سبحانه أن انقطاع هذا المورد ـ الذى كان يأتى عن طريق المشركين ليس معناه قطع رزق مرزوق ، يقول تعالى (يا ايها الذين آمنوا إنما المشركون نجس فلا يقربوا المسجد الحرام بعد عامهم هذا وإن خفتم

---

(١) فاطر آية ٢

(٢) الانعام آية ١٥١،ومن املاق أى من أجل فقر ومن خشيته.

عيلة فسوف يغنيكم الله من فضله إن شاء ان الله عليم حكيم)(١) .

امنعوا المشركين من ان يقربوا المسجد الحرام بعد عامهم هذا وإن خفتم فقرا بسبب هذا وخشيتم على ما كان لكم فى قدومهم من المكاسب، فاعلموا أن الأرزاق بيد الله ، وان سلاح التجويع ضعيف أمام الايمان ما أتى بثمرة للذين استعملوه من مشركى مكة عندما قاطعوا المسلمين ، وكتبوا بذلك صحيفة ولا اليهود عندما حاولوا ذلك مرارا .

وأما بالنسبة للاحتجاج بصلة القرابة

فانه ـ كما تقدم ـ لاشىء يقدم على قرابة الدين ، وهناك فترة من حياة الدعوة الاسلامية قبل فتح مكة كان الواحد من المسلمين لا يتم إيمانه إلا إذا هاجر إلى المدينة ، والبعض سألوا الرسول صلى الله عليه وسلم وقالوا يارسول الله : ان نحن اعتزلنا من خالفنا فى الدين قطعنا آباءنا وأبناءنا وعشائرنا وذهبت تجارتنا وهلكت أموالنا،وخربت ديارنا وبقينا ضائعين .

فنزل قوله تعالى : (يا أيها الذين آمنوا لاتتخذوا آباءكم وإخوانكم أولياء إن استحبوا الكفر على الإيمان ومن يتولهم منكم فأولئك هم الظالمون ، قل إن كان أباؤكم وأبناؤكم وإخوانكم وأزواجكم وعشيرتكم وأموال اقترفتموها وتجارة تخشون كسادها ومساكن ترضونها أحب إليكم من الله ورسوله وجهاد فى سبيله فتربصوا حتى يأتى الله بأمره والله لا يهدى القوم الفاسقين)(٢).

ويقول الزمخشرى فى تفسير هذه الآية ، فتربصوا حتى يأتى الله بأمره ، وعن الحسن هى عقوبة عاجلة أو آجلة،وهذه آية شديدة لاترى أشد منها ، كأنها تنعى على الناس ماهم عليه من رخاوة فى عقد الدين واضطراب حبل اليقين فلينصف أروع الناس وأتقاهم من نفسه ، هل يجد عنده من التصلب فى ذات الله والثبات على دين الله مايستحب له دينه على الآباء والأبناء والاخوان والعشائر والمال والمساكن وجميع حظوظ الدنيا ويتجرد منها لأجله،أم يزوى الله عنه أحقر شىء منها لمصلحته،

---

(١) التوبة آية ٢٨ (٢) التوبة ٢٣ ، ٢٤

فلا يدرى أى طرفيه أطول ، ويغويه الشيطان عن أجل حظ من حظوظ الدين فلا يبالى كأنما وقع على أنفه ذباب فطيره .

ويقول الرسول صلى الله عليه وسلم : «لا يطعم أحدكم طعم الإيمان حتى يحب فى الله ويبغض فى الله، حتى يحب فى الله أبعد الناس، ويبغض فى الله أقرب الناس إليه».

ويقول الله سبحانه : (لن تنفعكم أرحامكم ولا أولادكم يوم القيامة يفصل بينكم والله بما تعملون بصير ، قد كانت لكم أسوة حسنة فى إبراهيم والذين معه إذ قالوا لقومهم إنا برءاء منكم ومما تعبدون من دون الله كفرنا بكم وبدا بيننا وبينكم العداوة والبغضاء ابدا حتى تؤمنوا بالله وحده)(١).

فنجد أن إبراهيم والذين آمنوا معه يصرحون ببراءتهم من قومهم ويعلنون عداوتهم وبغضهم ، وإن سبب هذا هو كفر قومهم بالله وما دام السبب قائما فالعداوة قائمة فاذا زال السبب وآمنوا بالله تبدلت العداوة موالاة والبغضاء محبة، وأصبحوا إخوانا تحت راية الدين ، لا راية القرابة ويقول سبحانه بعد الآية السابقة بآية واحدة (لقد كان لكم فيهم أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر ومن يتولى فان الله هو الغنى الحميد) .

تأكيد بعد تأكيد على ترك صلة القرابة كأساس للموالاة والمحبة . واتباع صلة الدين ، وتهديد لمن لم يسلك هذا الطريق ، ولذلك ترى المؤمنين يقطعون كل صلة إلا صلة الدين .

لما نقضت قريش صلح الحديبية، وأعانت حلفاءها بنى بكر على خزاعة حلفاء رسول الله صلى الله عليه وسلم بعثت أبا سفيان إلى المدينة يشد العقد، ويزيد فى المدة وقد خافوا العاقبة ، ثم خرج أبو سفيان حتى قدم على رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة، فدخل على ابنته أم حبيبه. فلما ذهب ليجلس على فراش رسول الله صلى الله عليه وسلم طوته ، فقال يابنيه: ما أدرى أرغبت بى عن هذا الفراش او

---

(١) الممتحنة آية : ٣ ، ٤

رغبت به عنى ؟ فقالت هو فراش رسول الله صلى الله عليه وسلم وأنت مشرك نجس ، فلم أحب ان تجلس على فراشه . فقال يا بنيه : والله لقد أصابك بعدى شر(١) .

علاقة تبادل المصالح مع غير المسلمين

ما تقدم كله كان عن علاقة الموالاة والمحبة واتخاذهم بطانة ، وأما غير هذه العلاقة فان الإسلام لا ينهى عنها فهناك العلاقة مع الذمى الذى يعيش بيننا برغم مخالفته لنا فى الدين ، لابد من المحافظة عليه لا يحل ماله ولا دمه إلا بحقه قال رسول الله صلى الله عليه وسلم .

(من قتل قتيلا من اهل الذمة بغير حق لم يجد ريح الجنة)(٢) .

ان الذمى مع المسلمين فى ديارهم ، له مالهم ، وعليه ما عليهم ، وما دام يعيش بينهم فلابد من التعامل معه لأن الحاجة تحتم هذا التعامل ، وللمعاملة حدود وقواعد لابد من اتباعها وقد اباح الإسلام طعام أهل الكتاب وزواج الكتابية ، وإذا عقد المسلمون معاهدة مع المخالفين فى الدين يجب الوفاء بها ما داموا هم — المخالفون — محافظون عليها بقوله تعالى :

(إلا الذين عاهدتم من المشركين ثم لم ينقصوكم شيئا ولم يظاهروا عليكم أحدا فأتموا إليهم عهدهم إلى مدتهم إن الله يحب المتقين)(٣) .

وهذا الوفاء بالعهد واجب حتى ولو كان فى نقضه إعانة المسلم ، إن أخاك يجب ان تنصره ا على القوم الذين عاهدتهم قال تعالى :

(وإن استنصروكم فى الدين فعليكم النصر إلا على قوم بينكم وبينهم ميثاق)(٤)

---

(١) البداية والنهاية لابن الأثير ص ٢٨٠ جـ ٤ .

(٢) النسائى : ٢ — للفقهاء كلام فى زواج الكتابية وقد كان ابن عمر بن الزبير لا يرون نكاح الكتابية .

(٣) التوبة آية : ٤ (٤) الانفال آية ٧٢

والعدل مع الغير واجب، حتى ولو كان بينك وبينه عداوة ، ولا يجوز لك ان تتخذ العداوة مبررا لظلمه يقول تعالى :

(يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين لله شهداء بالقسط ولا يجرمنكم شنآن قوم على ألا تعدلوا اعدلوا هو أقرب للتقوى واتقوا الله إن الله خبير بما تعملون)(١).

والمعنى لايحملنكم بغضكم للمشركين على أن تتركوا العدل ، فتعتدوا عليهم بأن تنتصروا منهم ،وتتشفوا بما فى قلوبكم من الضغائن بارتكاب مالا يحل لكم من مثله أو قذف أو قتل أولاد أو نساء أو نقض عهد أو ما أشبه ذلك .

« اعدلوا هو أقرب للتقوى » نهاهم أولا أن تحملهم البغضاء على ترك العدل ثم استأنف فصرح لهم بالأمر بالعدل تأكيدا وتشديدا ، ثم استأنف فذكر لهم وجه الأمر بالعدل وهو قوله (هو أقرب للتقوى) أى العدل أقرب للتقوى وادخل فى مناسبتها(٢) .

وهكذا نجد القرآن الكريم يأمر بالعدل حتى مع هؤلاء الذين كانت لهم سابقة فى الإضرار بالمسلمين وإن استثارة الأحقاد القديمة واتخاذها سببا لظلم هؤلاء أمر لا يجوزه الشرع بحال ، والولد المسلم مع أبيه الكافر وصاه الله بوالديه حسنا بقوله سبحانه (ووصينا الإنسان بوالديه حسنا وإن جاهداك لتشرك بى ماليس لك به علم فلا تطعهما إلى مرجعكم فأنبئكم بما كنتم تعملون)(٣)

وإلى هنا نرى الإسلام يقف بالمسلم أمام أمرين .

الأول : الولاية والثقة واتخاذ البطانة وهذه كلها خاصة بالمسلم لاصلة لها بالقرابة ولا النسب ولا الجوار .

الثانى : تبادل المصالح واستعمال العدل والوفاء بالوعدفهذه أمور لايمنعها الشرع مع المخالفين فى الدين .

---

(١) المائدة آية : ٨ .　(٢) تفسير الكشاف .　(٣) العنكبوت آية ٨ .

الفصل الثاني

عداوة أوربا للإسلام

أن الدول الأوربية الموجودة اليوم ماهى إلا امتداد للدولة الرومانية ومن قبلها الدولة اليونانية .

وقد ورثت أوربا الحديثة عن اليونان والرومان عقيدة احتقار الغير وأنه يجب أن يطبق عليهم من القوانين مالا يطبق على الأوربى .

وكانت هذه عقيدة عامة فى اليونانيين لايختص بها واحد دون واحد ، بل نجدها سيطرت على كبار المفكرين لحرمتهم أن ينظروا إلى البشر نظرة المساواة .

فأفلاطون يقصر العدالة على اليونانيين ولا يجعلها تتعداهم إلى غيرهم من بنى البشر ،ويذهب إلى التفرقة بين اليونانيين وغيرهم وينصح للمدن اليونانية أن تتعهد فيما بينها العلائق الودية بل أن تتحالف ، وتؤلف أسرة واحدة ، فإن تحاربت فلا تدمر ولا تحرق ولا يسحق الغالب جميع أهل المدينة المغلوبة كأنهم أعداء بل يضرب الأقلية التى أثارت الخصام ، ويعامل الباقى معاملة الأصدقاء .

ويقصر التدمير والتحريق والسحق على محاربة الأعاجم .

ثم يصرح بأن اليونان لايسترق بعضهم بعضا ، وإنما يسترقون الأعاجم ،لأن الرجل العادل لايسترق قريبه وصديقه ، بل يسترق عدوه »(١).

هنا نجد أفلاطون عنصريا بكل مافى الكلمة من معنى رأفة ورحمة مع بنى جنسه ومع الغير الحرق والتدمير والسحق .

---

(١) ص ١٠٨ تاريخ الفلسفه اليونانية يوسف كرم عن الجمهورية .

هل كان أفلاطون عنصريا فى وسط شعب لا يعرف العنصرية ؟

لا يمكن أن يكون هذا، بل ورث العنصرية ورضعها مع لبن أمه . فلم يستطع ن يتخلص منها وبدل أن يلطفها جعلها شرعا يجب أن يطاع، وكان لعنصريته تأثير على أحكامه على الشعوب اذا ما تعرض للمقارنة بين شعبه وشعب آخر فنجده عند المقارنة بين الإثينيين والمصريين يصف (الاثينيين) بأنهم محبون للمعرفة والمصريين بأنهم محبون للثروة(١) .

ولذلك نجد (أول ديورات) يرد عليه فى هذه النقطة بقوله (ولعل فى هذا الوصف كثير من المغالات دفعته اليها النعرة الوطنية)(٢) .

هذه هى نظرة الأوربى القديم لنفسه .

وكل ما جاء بعد ذلك كان يعمق هذه النظرة ، ويزيد فى الفوارق بين أوربا والإسلام فلقد انضم إلى العامل العنصرى العامل الدينى .

أوربا المسيحية التى كانت تنظر إلى الشرق هذه النظـــرة وجدت نفسها أمام الإسلام وجها لوجه .

وقد تعودت أوربا أنها تنتصر فى معظم الحالات ،وحرب الاسكندر لا زالت عنواناً على تفوق أوربا .

فلما جاء الإسلام تغيرت هذه النظرة ، وأصبحت أوربا ترى نفسها مهددة ومهزومة من الإسلام .

وكانت الحروب الصليبية كنتيجة لأحقاد استمرت أزماناً طويلة ، ووجدت أوربا نفسها موحدة ضد العالم الإسلامى .

ويمكننا أن نقول ـ من غير أن نوغل فى المبالغة ان أوربا ولدت من روح الحروب الصليبية .

---

(١) ص ١٠٠ قصة الحضارة ج ٢ مجلد ١ (٢) نفسه ص ١٠٠

لقد كان قبل ذلك الزمن ، أنكلو سكسون ، جرمان ، وفرنسيون ، ونورمان وإيطاليون ودينماركيون .

ولكن أثناء الحروب الصليبية ولدت فكرة المدينه الغربية ، وأصبحت هدفا واحداً تسعى إليه جميع الشعوب الأوربية على السواء .

وكانت تلك المدينة الغربية عداوة للإسلام وقفت عرابا فى هذه الولادة الجديدة[1] .

هنا نجد أوربا بدأت مدينتها بعداوة الإسلام وأخذت تفكر من يومها لا فى الانتصار على الإسلام فى معركة حربية بل فى القضاء عليه نهائياً فنجد مثلا (غليوم دادان . . الردمنيكانى) يؤلف بين سنة ١٣١٠ م وسنة ١٣١٤ كتاباً يسميه كيفية استئصال المسلمين[2] .

واستمر الأمر حتى اليوم حيث نرى العداوة مستمرة ، ومحاولة القضاء على المسلمين لم تتوقف ، يقول ستودارد فى تعليقه على حرب أوربا لتركيا : وهذا الذى نتلو أنباءه فى صحف الأخبار اليوم . النضال القائم بين مصطفى كال ومقاتلة الوطنيين وبين اليونان فى آسيا الصغرى إنما هو حلقة من سلسلة حروب بين الإسلام والنصرانية .

حلقتها الأولى كانت فى فلسطين بين الترك والصليبيين منذ ثمانمائة سنة .

وحلقتها الأخيرة إلى اليوم هى هذه الحروب بين الترك واليونان فى أغوار الأناضول وأنجادها[3] .

---

(١) الإسلام على مفترق الطرق وكلمة عراب تعبير كنسى يقصد بها وكيل الطفل المعهد

(٢) حاضر العالم الإسلامى ص ٢٢١ .

(٣) حاضر العالم الإسلامى ص ١٥ ج ١

هنا نجد عقدة العداوة بين أوربا والإسلام قد استحكمت[1] .

ومما زاد استحكامها أن نهضة أوربا ولدت من حروب دينية بين الشرق والغرب هى الحروب الصليبية .

أن الحرب الصليبية هى التى عينت فى المقام الأول والمقام الأهم موقف أوربا فى العهد الذى كانت فيه الخصائص الثقافية الخاصة قد أخذت تعرض نفسها وكانت ولا تزال فى دور تشكيلها .

والشعوب كالأفراد إذا اعتبرنا أن المؤثرات العنيفة التى تحدث فى أوائل الطفولة تظل مستمرة ظاهراً أو باطناً مدى الحياة التالية ، وتظل تلك المؤثرات محفورة حفراً عميقاً ، حتى أنه لا يمكن للتجارب العقلية فى الدور المتأخر من الحياة والمتسم بالتفكير أكثر من اتسامه بالعاطفة أن تمحوها إلا بصعوبة : ثم يندران أن تزول آثارها تماماً.

وهكذا كان شأن الحروب الصليبية .

فإنها أحدثت أثراً من أعمق الآثار وأبقاها فى نفسية الشعب الاوربى وأن الحمية الجاهلية العامة التى أثارتها تلك الحروب فى زمنها لا يمكن أن تقارن بشىء خبرته أوربا من قبل ولا اتفق لها من بعد[2] .

ان هذا الحقد الذى امتلأ به الأوربى على الإسلام سيكون له أثره فى كل حكم يصدر منه بعد ذلك .

---

(١) ويبدو من أسلوب المؤلف أنه يرى أن أوربا وحدها صاحبة مدنية وإن غيرها هم البربر والخ . . . مع أن التاريخ يبين أن تركيا فى حربها كانت عند انتصارها على أوربا أكثر احتراماً للانسانية من أوربا عند انتصارها على تركيا ومن شواهد على هذا ما يسمى المسلم الرومى أثناء الحرب البلقانية من النزاع واستباحة الحرمات .

(٢) الإسلام على مفترق الطرق ص ٥٤ .

فإذا ما حلت بالمسلمين نكبة على يد الاوربيين فإنما هو أمر طبيعى ، وقهر المسلمين واستذلالهم ليس شيئاً ضد الأخلاق، وانما كان من أحكام الزمان القاضيه بسيطرة القوى على الضعيف (١) .

ان الفكر اليونانى الذى عبر عنه أفلاطون والذى ورثه الرومان فيما بعد ، ان هذا الفكر لا زال مسيطراً على أوربا فى العصر الحديث ، واذا فقد ورث الأوربى الحديث عنصرية اليونان والرومان،وأضاف اليها حقد الصليبيين .

وهنا نجد المنطق قد انعدم نهائياً عند اصدار اى حكم فيما يتعلق بالمسلمين فليس هناك الا الدعوة باستعمال القوة واستئصال المسلمين كما سنبينه فيما بعد .

ونسأل : هل هناك فرصة بعد كل هذا للقاء بين الأوربيين والمسلمين ؟

الجواب . لقد أصبح هذا اللقاء بين اوربا والإسلام مستحيلا .

يقول محمد أسد وهو الأوربى الذى اعتنق الإسلام، يقول فى ذلك أى أن اللقاء بين أوربا والإسلام غير ممكن .

إنه التجارب التاريخية التى اصطبغت صباغا شديداً بعداوة الإسلام وهذا أيضاً الى حد ماإرث أوربا من اليونان والرومان .

ان اليونانيين والرومان نظروا الى أنفسهم على أنهم هم وحدهم المتمدينون اما كل من كان أجنبياً عنهم ، وعلى الأخص اولئك الذين كانوا يعيشون شرق البحر المتوسط فقد كان اليونانيون والرومانيون يطلقون عليهم لفظ البرابرة .

ومنذ ذلك الحين والأوربيون يعتقدون أن تفوقهم العنصرى على سائر البشر أمر واقع .

ثم ان احتقارهم الى حد بعيد او قريب لكل ما ليس اوربياً من اجناس

---

(١) حاضر العالم الإسلامى ص ١٠ جـ ٤ .

الناس وشعوبهم قد أصبح احدى المميزات البارزة فى المدنية الغربية[١] على أن هذا الاحتقار للغير لم يكن سلبياً، بل كان إيجابياً إذ نرى أوربا تربى أولادها على محاربة الغير وخاصة المسلمين،ففى القرون الوسطى كان الإقطاع وكانت الفروسية وكان للفروسية قوانين عشرة،يجب على الفارس اتباعها: القانون السادس منها أن يحارب غير المسيحيين بغير مهادنه ولا هوادة.

ومعظم المواقع الشهيرة التى ذكرت فى كتاب (أغانى البطولة) كانت فى محاربة المسلمين.[٢]

أضاف الأوربى إلى رصيد العداوه أمراً آخر وهو التغنى بحرب المسلمين يشب الطفل فيسمع أنباء البطولة من بنى جنسه، وضد من ؟ ضد المسلمين.

وكما كان للفروسية قوانين، كانت هناك الهيئات العسكرية الصليبية التى تنشىء أعضاءها تنشئة معينة، وكان على الأخوة الأعضاء أن ينذروا على أنفسهم الفقر والعفة والطاعة، ثم دخل الآن ضمن واجباتهم حماية الحجاج بقوة السلاح.

وقد نشأت من ذلك المنظمات الحربية الـكـــبرى للفرسان. وحروبهم التى لا تنقطع مع المسلمين[٣]. ..

لم يعد موقف الأوربى من المسلمين موقف كره من غير مبالاه، بل كره يتبعه حروب، وتأصلت العداوة حتى أصبحت أغنية شعبية تتردد، وتأصلت البغضاء، ونمت مع تقدم الزمن، ثم استحالت عادة، ولقد كانت هذه البغضاء تغمر الشعور الشعبي كلما ذكرت كلمة مسلم.

ولقد دخلت فى الأمثال السائرة عندهم حتى نزلت فى قلب كل أوربى رجلا كان أم امرأة.

---

(١) الإسلام على مفترق الطرق ص ٥٠.
(٢) تاريخ العالم ص ٣/٥ جـ ٥ بحث .ر. ب. موات أستاذ التاريخ فى جامعة برستول
(٣) نفسه ص ٣٨٥ ؛

وأغرب من هذا كله أنها ظلت حية بعد جميع أدوار التبدل الثقافى (١) لقد حصل لأوربا تغير فكرى فى العصر الحديث وذهبت قيم وجاءت قيم أخرى .

كانت العصور الوسطى الكنيسة هى المسيطرة ، وهى الموجهة ، ودور البابوات فى الحروب الصليبية معروف لايحتاج إلى تأكيد ، ثم تغير الأمر وذهبت سلطة الكنيسة ولكن الذى لم يتغير هو الموقف العدائى بالنسبة المسلمين .

تجد الموقف العدائى للمسلمين من أوربا هو هو

حتى من عادى المسيحية بقى محافظاً على عدائه للمسلمين .

والمثل على ذلك فولتير كان عدو لكنيسة ومع ذلك كان عدواً إلى درجة المغالاة للمسلمين .

ونسأل إذا كان عداء أوربا للمسلمين دينياً، ثم ذهب التمسك بالدين فى أوربا لماذا يبقى العداء .

والجواب أن العداء لم يكن دينياً فحسب كما تقدم بل هو عنصرى من أيام اليونان .

ثم أن أوربا ـ برغم كثرة الملحدين فيها ـ لم تترك التمسك بالدين نهائياً ، وعلى فرض أنها تركت الدين فإنه لا غرابة أن تبقى العداوة .

وأنا أنقل هنا تحليل جوستاف لوبون لبقاء عداوة أوربا للإسلام والمسلمين ونكران أوربا كل فضل للعرب .حتى ولو كان هذا الفضل ظاهراً لايحتاج إلى دليل يقول .

إن استقلالنا الفكرى لم يكن فى غير الظواهر فى الحقيقة، وإننا لسنا من أحرار الفكر فى بعض الموضوعات كما يزيد .

---

(١) الإسلام على مفترق الطرق ص ٥٨ .

فالمرء عندنا ذو شخصيتين : الشخصية العصرية التى كونتها الدراسات الخاصة والبيئة الخلقية والثقافية والشخصية القديمة غير الشاعرة التى جمدت وتحجرت بفعل الأجداد وكانت خلاصة ماض طويل .

والشخصية غير الشاعرة وحدها ، ووحدها فقط ، هى التى تتكلم عند أكثر الناس ، وتمسك منهم المعتقدات نفسها مسماه بأسماء مختلفة ، وتملى عليهم آراءهم فيلوح ما تمليه عليهم من الآراء حراً فى الظاهر فيحترم .

والحق أن أتباع محمد ظلوا أشد من عرفته أوروبا من الأعداء إرهابا عدة قرون ، وأنهم كانوا عندما لا ير عدوتنا بأسلحتهم ، كما فى زمن شارل مارتل والحروب الصليبية ، أو يهددون أوربا بعد فتح القسطنطينية ، كانوا يدلولنا بأفضلية حضارتهم الساحقة ، وأننا لم نتحرر من نفوذهم إلا بالأمس .

وتراكمت مبتشراتنا الموروثة ضد الإسلام والمسلمين فى قرون كثيرة ، وصارت جزءاً من مزاجنا . وأصبحت طبيعة متأصلة فينا ، تأصل حقد اليهود على النصارى الخفى أحيانا ، والعميق دائماً .

وإذا أضفنا إلى مبتشراتنا الموروثة ، ضد المسلمين مبتشرنا الموروث الذى زاد مع القرون بفعل ثقافتنا المدرسية البغيضة القائلة : إن اليونان واللاتين وحدهم منبع العلوم والآداب فى الزمن الماضى . أدركنا بسهولة سر جحودنا . للتأثير العرب المظيم فى تاريخ حضارة أوربا .

ويتراءى لبعض الفضلاء أ ـ من العار ان رى ان اوربا النصرانية مدينة لأولئك الكافرين فى خروجها من دور التوحش .

فعار ظاهر كهذا لا يقبل إلا بصعوبة(١) .

وهذا الحكم الذى توصل إليه «جوستاف لوبون» لايختص به .

---

(١) حضارة العرب ص ٥٧٨ ـ ٥٧٩ .

وحده بل نجد الكثير يوافقه عليه .

فنجد محمد أسد يقول فى تحليل بقاء عداوة اوربا للاسلام ، رغم ان الدين لم يعد هو المسيطر فى اوربا :

« ولقد يتساءل بعضهم فيقول : كيف يتفق ان نفوراً قديماً مثل هذا ـ وقد كان دينياً فى أساسه وممكنا فى زمانه بسبب السيطرة الروحية للكنيسة النصرانية — يستمر فى اوربا فى زمن ليس الشعور الدينى فيه إلا قضية من قضايا الماضى ؟

ليست هذه المعضلات موضع استغراب ابدا ، فأنه من المشهور فى علم النفس أن الإنسان قد يفقد جميع الاعتقادات الدينية التى تلقنها فى اثناء طفولته ، بينما تظل بعض الخرافات الخاصة ـ والتى كانت تدور من قبل حول تلك الاعتقادات المهجورة ـ فى قوتها . تتحدى كل تعليل عقلى فى جميع ادوار ذلك الإنسان.

وهذه حال اوربا مع الإسلام .

فعلى الرغم من ان الشعور الدينى الذى كان السبب فى النفور من الإسلام قد اخلى مكانه فى هذه الأثناء لاستشراف على الحياة اكثر ماديه ، فأن النفور القديم نفسه قد بقى عنصراً من الوعى الباطنى فى عقول الأوربيين .

واما درجة هذا النفور من القوة فأنها تختلف ـ بلا شك — بين شخص وآخر ولكن وجوده لا ريب فيه .

ان روح الصليبيه — فى شكل مصغر على كل حال — ما زال يتسكع فوق أوربا،ولا تزال مدينتها تقف من العالم الإسلامى موقفا يحمل آثارا واضحة لذلك الشبح المستحدث فى القتال(١)

---

(١) الإسلام على مفترق الطرق ص ٥٩ .

(الخوف من الإسلام)

وصلنا فيما تقدم إلى أن اللقاء بين أوربا والإسلام وعقد هدنة بينهما غير ممكن وأنه يقف فى سبيل هذا عوامل أهمها. العنصرية الموروثة عن اليونان والرومان ثم ما خلفته الحروب الصليبية من أثر لم يستطع الأوربى أن يتخلص منه حتى بعد تخلصه من سيطرة الكنيسة، بل ولا بعد الحادة وكفره بالأديان .

ونضيف هنا عامل آخر وهو : الخوف المسيطر على الغرب من الإسلام . وأن الإسلام مهما بدأ ضعيفاً لا يمكن أن يؤمن جانبه ، بل يجب الحذر واتقاء شره . كيف يتقى شره ؟ . هو ما سنتكلم عنه فيما بعد .

أما لماذا يجب الحذر منه فهو ما نتكلم عنه الآن ,

إن الكتاب الغربيين يعيشون حيارى مع الإسلام .

ان الإسلام معجزة فى نشأته ، وفى انتشاره ،وفى بقائه حتى الآن .

أنهم عندما يكتبون عن الإسلام ونبيه وكتابه وقادته دائماً يقعون فى خطأ وهو أنهم يكتبون وكأنهم يكتبون عن قصص لأشخاص تعودوهم فى تاريخهم .

وهذا الخطأ الذى يقعون فيه لا يحتاج إلى من يلفت نظرهم إليه من غيرهم، بل هم أنفسهم يفاجأون بغير ما توقعوه .

والعجب أنهم -برغم الخطأ الذى وقعوا فيه — لا يغيرون أسلوبهم فى الكتابة عن الإسلام لان التغيير معناه الاعتراف بالإسلام كدين سماوى ،وهذا يعنى اعتناقهم له وهو ما لم يوفقوا له حتى الآن .

أن الإسلام لا يخضع للقواعد العقلية الانسانية ، إنه معجزة فى جميع أدوار حياته هو معجزة فى نشأته ، فلو قام فى الثلث الاول من القرن السابع الميلادى أحد

وتكهن بأن دولة خاملة الذكر وضيعة الجانب ، تخرج من مجاهل جزيرة العرب ثم تقضى على الدولتين العظيمتين المعروفتين فتقوض الدولة الواحدة — دولة آل ساسان — وتظفر بأملاكها ثم تقتطع من ولايات الثانية بيزنطة — أزهى مقاطعاتها .

نقول لو صدرت مثل هذا النبوة من فم إنسان فى ذلك العصر لحكم عليه بالجنون . والواقع أن هذا ما حدث فعلا .

فبعد الرسول تغيرت بلاد العرب الجدباء ، وأخذت تنشىء رجالا أبطالا يندر وجود من يشبهم كلهم فى أى وصف كان فكأن أعجوبة حلت فيها فالحملات العسكرية التى قام بها خالد بن الوليد وعمرو بن العاص وسعد بن أبى وقاص فاتحين بها العراق ، وفارس وسورية ، ومصر هى اعظم الحملات التى يرويها تاريخ الحروب المدون .

وقد كشفت عن نبوغ قوادها ، وتفوقهم فى أساليب القتال . وخلدت أسماءهم مع أسماء نابليون ، وهانيبال ، ويوليوس قيصر ، والأسكندر[1] .

هذا هو رأى «فيليب» حتى فى الاسلام وقادته .

أنه يرى أن فى ظهور العرب على الدولتين العظيمتين أمر ما كان يمكن التنبؤ به وأن للقادة الذين خرجوا من جزيرة العرب من أمثال خالد وسعد وعمرو لا يقلون عن نابليون وهانيبال ويوليوس قيصر والأسكندر .

وهنا نجده يقع فى الخطأ الذى يقع فيه أمثاله ، برغم مايبدو فى قوله من أنصاف .

إن خالداً وسعداً وعمراً عندما بذلوا الأرواح وجميع ما يملكون فى سبيل فتح هذه البلاد إنما فعلوا ذلك لخير الانسانية ، ولذلك نرى هذه البلاد التى

---

(١) تاريخ العرب ص ١٩٣ — ١٩٤ ج ١ .

فتحوها لا زالت تنعم حتى الآن بأثار هذا الفتح ما داموا متمسكين بمبادىء الاسلام الذى تم الفتح باسمه .

أما القادة الآخرون الذين ذكرهم فأين للفائدة التى عادت على الانسانية من وجودهم .

ان وجودهم كان وبالا على أعدائهم ؛ بل . وعلى قومهم والانسانية جمعاء لأى هدف سيرت هذه الجيوش؟

ولذلك ما أن ينتهى الواحد منهم حتى تشعر الانسانية بأن الكابوس قد انزاح عن صدرها ؛ ثم تبدأ فى تضميد جراحها بخلافها مع القادة الاسلاميين فقد تمسكت بالاسلام الذى حملوه إليها ولا زالت تدافع عنه وليس هنا محل المقارنة بل المقصود أن الغرب عرف أن انتشار الاسلام وانتصاره فى الماضى ما كان يمكن التنبؤ به وما حصل للاسلام فى الماضى لم يكن عرضاً عابراً ولكنه صفة أساسية لا زالت تلازمه .

فما زالت فيه القوة الكامنة التى يمكن أن تظهر فى أى وقت لتقضى على كل ما يقف أمامها ان الحركات الفكرية فى الاسلام-كما يقول لويس ماسينيون تستعد فى خفاء وصمت وتندلع فجأة دون أن يسبقها نذير يمكن أن يرى ... يجب أن نجعل هذه الحقائق نصب أعيننا إذ أردنا أن ندرك أى أساس وان تقوم عليه المنشآت الأوربية فى بلاد الاسلام،فبعد أعوام من السكينة ربما تندلع بغتة نار الدعوة إلى الجهاد أبعد ما نكون توقعاً لها(١) .

ويعلق (جب) على هذا محذراً قومه بقوله :

والأسطر القيمة التى كتبها الأستاذ (ماسينيون) فى مقدمة وصفه لتيارات الفكر فى المغرب يجب أن تكفى فى تحذير أكثر الباحثين ثقة بنفسه كيف تميد

---

(١) وجهه الإسلام ص ٥٥ .

الأرض من تحته وكيف تخدعه المظاهر الخارجية التى ينظر إليها(١) .

أن القوم هنا يقول بعضهم لبعض كونوا على حذر ، لا تأمنوا للإسلام ولا تطمئنوا إليه .

وعدم اطمئنانهم إليه لا يقوم على وهم وخوف بدون سبب، بل يقوم على أسباب مدروسة ينطق بها الواقع .

نجملها فيما يأتى :

أولا : الاسلام له قوة غريبة فى التوحيد بين المسلمين وإزالة فوارق الجنس واللون واللغة .

ان الاسلام — دون ان يكون له مثل من اى دين آخر — له قدرة عجيبة على ان ينسى المسلم كل ما كان يعتز به قبل الاسلام .

فقد نسى الناس — كما يقول جب — فى كل الأقطار تقريباً ما كان لهم من ماض قبل الاسلام .

نسى المصريون فرعنتهم وبطالسهم.

ونسى الأتراك خواقيتهم وهلم جرا .

ورجعوا إلى بلاد العرب والخلفاء الأولين يتخذون منهم أسلافا روحيين وبمثل هذا الأذعان لسلطان الاسلام زادت قوة دعوته وكسب وسيلة جديدة لنشر تقاليده وتعاليمه .

ان المسلمين فى مجموعهم كانوا يشعرون بما بينهم من قربى وكانوا يظهرون عملياً فى حياتهم الاجتماعية اثر هذا الاعتقاد .

---

(١) نفسه ص ٢٠٦ .

فالمسلم فى المغرب يحس فى الهند أو جاوه كأنما هو فى مراكش سواء بسواء إلا فى اللغة ، وله الحق أن يغدو ويروح ويتزوج ويقيم كما يشاء ، لأن دار الإسلام كلها وطنه الذى لا وطن له سواه .

ربما ينصب ميله على مسقط رأســـه . ولـكنه يفرق ولاءه ، وكل تلك العواطف التى تقرنها بحب الوطن على العالم الإسلامى وثقافته الدينية فى جملتها .

وقد شذت فارس وحدها ولاسيما منذ القرن السادس عشر ؛ وذلك يرجع غالبا إلى أن الشعور القومى تضاعف بانحراف مذهبى خاص عن جمهور المسلمين .

وعلى ذلك وأن الاسلام الذى هو موضوع بحثنا ليس دينا بالمعنى المجرد الخاص الذى نفهمه اليوم من هذه الـكلمة .

بل هو مجتمع بالغ تمام الـكمال ، يقوم على أساس دينى ويشمل كل مظاهر الحياة الانسانية[1] .

هذه القدرة على جمع الأتباع دون النظر إلى جنس أو لون والتى امتاز بها الاسلام يرى الأوربى أن أوربا نفسها عاجزه عن مثل هذا العمل بين الأوربيين ففى أندونيسيا — كما يقول (ك . ك . . برج) نجد شركة اسلام التى زاد عدد أعضائها على مليونين فى بعض الأحيان .

وأن تاريخها ليبين أنها تـكونت من عناصر غير متجانسه وأن هذه العناصر لم تشعر قط بما بينها من اختلاف نعرفه من القديم والحديث من المؤلفات فى جاوه .

وليس فى أوربا جمعية كانت تستطيع أن تفلح فى الاحتفاظ بحياة مضطربة متقلبه الأطوار مده عشرين سنه كما فعلت شركة اسلام[1] .

---

(١) وجهه الاسلام ص ١٣ — ١٥

(٢) وجهه الاسلام ١٨٤ — ١٨٥

ثم يقول عن الحركة القومية .

والحق أن تاريخها أشد اندماجا بتاريخ الحركات الدينية المحضه التى تبوأت المكان الأول فى العشرين سنة الأخيره .

ولايزال شعور الوحدة بحالة من تأثير عظيم يلعب اليوم ـ كما لعب دائما ـ دورا فى وصل الحركات بعضها ببعض(١) .

والأعداء يدركون أن الحوادث التى تنزل بالعالم الاسلامى تبين مدى قوة هذه الوحدة وأن المسلم فى أقصى الشرق يحس احساسا حقيقيا بما ينزل بأخيه فى الغرب . هذا مايجعل أمثال « روجر لابون» ينادى قومه محذرا من هذا الشعور المشترك بين المسلمين حين يقول أمثال :

ان الاهتمام الذى يراقب به العالم الاسلامى حركات الثائرين من مسلمى أسيا لأجل التخلص من ربقه الغرب هو لايجوز ارهاص الاستخفاف به .

فأن فوز شعب اسلامى على حكومة أوربية لايخلو أبدا من رد فعل يمتد إلى أقصى البلدان عن مرزح المعركة .

فلو رأيت جرائد الاستانه أيام انكسار الاسبانيون فى الريف كيف كانت تهلل وتكبر ، وتنشر فى صفحاتها الأولى بشائر نصر المراكشيين المسلمين وخرائط ميادين الحرب لقضيت العجب .

وانك لترى أقل اضطراب يقع فى برقة أو تونس أو سورية أو الهند مبالغا فيه أشد المبالغة فى الصحف التركية .

مع ذلك سياسة محاسنة الاسلام لاتزال ماشيةعلىمافيها من تضليل الأفهام ونبذ النصائح المبنيه على التجارب .

---

(١) نفسه ص ١٨٥

ولا يبرح بعضهم معتقدين ألا اخطر من هذه السياسة(١).

وإذا فالعدو يدرك تأثير هذه الوحدة وهذا ما يجعله يطيل التفكير فى القضاء عليها .

ثانيا : سهولة الاسلام وسرعة انتشاره .

أن الاسلام دين سهل يعرف طريقـــه إلى القلوب فاذا ما تمكن من هذه القلوب لايخرج منها بل يسيطر عليها. والسهوله العجيبه التى ينتشر بها الاسلام ـ كما يقول جوستاف لوبون شاملة للنظر تماما فالمسلم أينما مر ترك خلفه دينه(١).

وهو ـ كما يقول (ك . ك . برج) دين الديمقراطية .

وقد استمد قوته على الدوام من حب الجماهير له حبا حماسيا .

إن الاسلام يعرف كيف يجعـــل له فى قلوب الناس مكانا وإن معتنقيه ليفخرون به ولـكن مع فخرهم هذا ألا يدافعون غيرهم .

الاسلام يعلو تلك صيحة الداعية المسلم يدعوبها الوثنى لدينه أدخل فى الاسلام فتـكون من الجماعة الاسلامية السامية .

وما أسهل اعتناق دين محمـــد (صلى الله عليه وسلم) .

هو لايستلزم دراسة معقدة فليس هناك إلا النطق بالشهادة التى تتضمن الأيمان بالله الذى . لاشريك له ورسوله .

وليس هناك كاهن يشرف على الحياة الدينية(٢).

وسهولة الاسلام ويسره وجذب الناس إليه وتمسكهم به كل هذه عوامل أضرت بالمسيحية وجعلت المعنيين بالدراسة الدينية منهم يلفتون نظر حكومتهم إلى مراقبة المسلم وعد حركاته .

---

(١) حاضر العالم الاسلامى ٣٠١ .　　(٢) حضارة العرب ٦١٦
(٣) وجهه الاسلام ١٦٠

يقول المستشرق « هور غرونيه » مخاطبا الحكومة الهولانديه : — يجب على الحكومة أن تحذر وضع كثير من المأمورين الوطنيين الذين يدينون بالاسلام فى البلدان التى أصلها وتنيون لئلا تكون قد ساعدت على نشر الاسلام بدون قصد منها . . . . . كما يؤثر جولان التجار المسلمين فيما بينهم .

ولعمرى لايمكن منع هؤلاء التجار أن يجولوا فى تلك الديار بحجه . أنهم يدعون إلى الاسلام إذ يكون ذلك عملا مخالفا للعدل .

ولكن يجب تدبير الأمر واستعمال الحكمة فيه بحيث لا نكون نحن قد ساعدنا بأنفسنا على اسلام غير المسلمين(١)

فالاسلام إذا عائق أمام تقدم المسيحيين وطالما شكا الحكام مما يلاقيه المبشرون منه مر الشكوى ورأوا أنه عدو صعب المراس مهما بدا على اتباعه من علامات الضعف وأن مقاومة الاسلام للمبشرين المسيحيين شديدة فى البلاد البعيدة وكلهم يعرفون ذلك ، ولا حاجه لأحد ـ كما يقول (ك . ك . برج) من عنوا بدراسة الكفاح بين الاسلام والمسيحية فى جهات العالم الأخرى أن يخبره أن فى اندونيسيا أيضا يجد المبشرون المسيحيون من الاسلام منافسا خطيراً ، وخصما وأنهم لم يحرزوا إلا قليلا من النجاح ، ويجب أن نضع أمامه الخسائر التى عانتها المسيحية بسبب انتشار الاسلام بسرعة أكثر منها(٢)

انهم هنا قد ضاقوا ذرعا بهذا الدين الذى يقف عقبه فى سبيل نجاح دعوتهم ثالثا : ان الاسلام لا يقف موقف المدافع أو موقف المتفرج الذى يريد أن لم ينتقص .

---

(١) حاضر العالم الاسلامى تعليق شكيب أرسلان ص ٣٤ .

(٢) وجهه الاسلام ص ١٦٧ يجب أن نعرف أن التبشير فى أندونيسيا الآن أصاب نجاحا ضد الاسلام وقد دخل للأسف عدد كبير فى النصرانية وساعد المبشرين امكانياتهم الضخمة وفقر البلاد وعدم تمكن المسلمين فى أمور دينهم بسبب كثرة الجزر وصعوبة المواصلات والواجب أن تهتم البلاد الاسلامية بأمر الاسلام فى أندونيسيا قبل أن تصبح الفلبين الثانية .

بل ان الإسلام يهاجم ، وأتباعه يزيدون يوما عن يوم :

فاذا أخذنا الهند كمثال نرى المسلمين زادوا بنسبة ١٣ ٪ والهنود بنسبة ١٠ ٪ ...

ولقد كان المسلمون كما يروى (كولونيل م . ل . فرار) عن الأمير أغا خان — منذ خمسين سنة خمس سكان الهند وهم الآن ربعه وقبل أن يكتمل أبناءنا سيكونون ثلثه.

ثم يقول (م . ل . فرار) .

ويجب أن نضع أزاء هذا التقدير مسألة أخرى هى أن الهنود ازدادوا بنسبة عشرة فى المائة .
ولكن نسبة زيادة المسلمين برغم هذا تعلوا باستمرار .

وربما كان لهذا الازدياد السريع فى الهند نظيراً فى الأجزاء الاخرى من العالم الإسلامى التى يحكمها الاجانب أو يشرفون عليها(١) .

رابعاً : ان آمال المسلمين فى نشر دينهم لا تقف عند حد أنهم يفكرون .

بل هم قد بدءوا فعلا فى غزو المسيحية فى عقر دارها .

فبدل أن ينتقل المسلمون إلى دين مستعمريهم ، تراهم يحاولون إدخال هذا المستعمر فى دينهم .

فمثلا فى الجزائر — كما يقول لويس ماسينيون — تسود الشعور الإسلامى عاطفة غريبة جداً ، وليست مجرد الامل فى كسب عطف الفرنسيين ، بل طموح من

---

(١) نفسه ص ١١١ .

جانب المسلمين لأن يشقوا طريقا لا — لأنفسهم أفرادا بل للاسلام فى عقل وروح فرنسا ذاتها .

وهناك طائفة من كتاب الجزائر المسلمين الذين يجيدون الفرنسية أيما إجادة ويحاولون استخدامها فى بث الدعاية فى فرنسا نفسها .

ثم إنهم لا يقصدون هذه الدعاية على أن يستردوا للاسلام أولئك المسلمين المقيمين فى فرنسا والذين ربما استهدفوا . لخطر الانفلات من دينهم ولكنهم يستشرفون إلى أغراض أبعد من ذلك .

ومما هو جدير بالذكر أن بعض المسلمين البارزين بدءوا يدركون التأثير الذى تستطيع أن تحدثه الجاليات الإسلامية فى فرنسا .

ولا يرغبون فى أن يقل ذلك التأثير بعودة جميع المسلمين إلى بلادهم .

ومما يذكر أن قليلا من الفرنسيين فى نواحى متفرقة قد اعتنقوا الإسلام بتأثير مسلمى المغرب ولكن من اعتنقه من النساء أقل من ذلك ولم تعتنق بعض الفرنسيات الإسلام إلا فى تونس حيث ظهر أن طابع الإسلام الروحى يبعث فيهن افتتانا خاصا(١) .

هذا القليل من الفرنسيين أو غيرهم الذين اعتنقوا الاسلام قد أزعج الذين يناصبون الاسلام العداء وما أكثرهم فى الغرب .

ان أعداء الاسلام يرون أن دعاته وإن كان قد استطاعوا أن يدخلوا القليل من الأوربيين فى الاسلام فأنهم قد استطاعوا أن يجعلوا كثيراً ينظرون إلى المسلمين بعين العطف على قضاياهم أما إرضاء للمسلمين وأما للكيد للدول الأوربية الأخرى وهو ما جعل «روجر لابون» ينادى قومه محذرا من هذا قائلا نجد الناس

---

(١) حاضر العالم الإسلامى ص ٢٠٥ — ٢١٦ ص ١ .

فى فرنسا ينظرون بدون قلق إلى القلاقل وإلى حركات العصيان البادية فى العالم الاسلامى ، بل ربما ينظرون إليها مع شىء من الشماتة أو السخرية ببعض جيراننا الذين لا يوصفون بخلوص النية(١) ثم يدعو قومه إلى عدم التهاون مع المسلمين .

ونجد التحذير من الاسلام لايقف عند واحد دون آخر بل يكاد يكون عاما بين الجميع منهم ، وأن التفاؤل - كما يقولى المسيو كولله البلجيكى إلى حد التأميل بأنه يمكن احتكار قوة الاسلام الحيوية فى سبيل منفعة دولة أوربية ، هو حلم لذيذ لكنه غير مبنى إلا على مطالعات كثيرة من ذوى العقول السطحية .

والأب لامنس فى أول كتابه محمد يغضب من كـــون القرآن جاء وصرف العرب عن حلاوة الأنجيل التى كانوا بدءوا يذوقونها .

ولم يقدر أن يغفر للقرآن إدخاله فى الاسلام ثلاثمائة مليون نسمة من جميع أجناس البشر ، واستتبابه الى يوم الناس هذا ينمو وينتشر فى أفريقيا وآسيا بمرأى ومسمع ومن المبشرين المسيحيين(٢) ويتناول جوستاف لوبون الموضوع موضحا انتشار الاسلام وخوف أوربا من أن يهدد النصرانية من جديد فيقول .

ويتقدم الاسلام فى الصين تقدما يقضى بالعجب ويكتب للإسلام أسطع فوز فى الصين ، حيث اضطر المبشرون الأووبيون الى الاعتراف بالخبوط .

وقد رأينا أن عدد أتباع محمد فى الصين عشرون مليونا وفى مدينة بكين وعددها مائة ألف مسلم ، ثم يقول لوبون .

قال الأستاذ وازيلياف دخل الاسلام مملكة ابن السماء كما دخلتها البدهية والبوذية) وسيقوم الاسلام — ومسلمو الصين لايشكون فى ذلك — مقام ديانة شاكيه موتى وهذه المسألة على جانب عظيم من الأهمية فاذا رجع مثل هذا

---

(١) نفسه ص ٣١٦ .

(٢) نفسه ص ٣١٨ .

الحادث ، وأعتنقت الصين التى تضم ثلث البشر على الأقل دين الاسلام تغيرات علاقات العالم القديم السياسية تغيراً عظيما وأمكن دين محمد الذى يمتد اذ ذاك من جبل طارق الى المحيط الهادى أن يهدد النصرانية من جديد(١) .

هنا نجد الخوف يبدو واضحا من انتشار الاسلام .

مع أن الصين ليست نصرانية ولكن ليكن أى دين ما عدا اسلام .

أن الأديان الأخرى عقيمة لا يخشى من انتشارها أما الاسلام فأنه — كما يقول أرثو بلكرين يخفى فى مطاويه قوى يمكن أن ينشأ من انفجارها السريع الآتى ذات يوم ما يكون منة تهديد أوربا ومدينتها(٢) .

إلى هنا اتضحت عداوة أوربا للاسلام.

وأن هذه العداوة ليست مبنية على أسباب مرت وانتهى أمرها أو على خوف من المستقبل لا أساس له بل عداوة اجتمع لها كل الأسباب : من ناحية الأصل اختلاف عنصر زرع أصله من أيام اليونان والرومان ثم زادتها الحروب الصليبية ضراوة ولا زال يشعل نارها حتى الآن الخوف من المستقبل ماذا سيكون موقفا الاسلام ؟ أن كل كسب له معناه نقص للغـــرب وكل أضعاف له معناه تقوية للغرب .

ومن هنا كان لابد — فى نظر الغرب ـ من تجربة جميـــع الطرق فى حرب الاسلام وكان من هذه الطرق الحروب الصليبية وقد منيت بالفشل .

وجاء العصر الحديث وأخذ الغرب يتجه من جديد الى الشرق بعد ضعف تركيا وجاء هذه المرة لا باسم الدين بل باسم التجارة والسيطرة على طرقها ولكنه ـ فى حقيقة الأمر جاء ونوايا الحروب الصليبية معه .

---

(١) حضارة العرب ص ١ .

(٢) وجهه الإسلام ص ٧٩ .

إنه لم يندم على هذه الحروب بل لازال سائراً فى طريقها، بل ولا زال يعلن ذلك ويفكر فقط فى أن يتجنب الطرق التى بسببها فشل أجداده فى القضاء على الأسلام .

الدعوة إلى القوة لازالت موجودة ، والجميع مجمع عليها، إلا أنهم يختلفون فى أن البعض لايستطيع أن يكتم حقده فيصرح بما فى صدره ،والبعض الآخر يرى أن الوقت لما يحن بعد، ولا بد من السير فى الطريق ولكن بتؤده .
وان الصليبى فى العصر الحديث لايسكت عند مايسكت صوت المدفع وإنما يداوم الغزو الفكرى عندما يكف عن الغزو المسلح أو معه أيضاً .

وفيما يأتى سنبين بعض أنواع الغزو التى تجرب ضد الإسلام .

* * *

الفصل الثالث

الحرب ضد الاسلام

ما هى الوسائل التى رآها الأعداء توصلهم إلى ما يريدون من نتائج أى الى القضاء على الأمة الاسلامية . ؟

أن العدو وضح من أقواله قديماً وحديثاً أن القضاء على الأمة الأسلامية قد يكون بأمور منها .

١ — هزيمتها فى ميدان القتال ، لتفقد استقلالها السياسى .

٢ — هزيمتها فى ميدان الفكر ، لتفقد استقلالها الفكرى ، فتفكر بعقول غريبة .

٣ — هزيمتها فى ميدان الدين بتنصيرها فتفقد وجودها .

٤ — هزيمتها فى ميدان الوحدة ، فتصبح أمماً متفرقة ،لاربط لها يقتل بعضها بعضاً،ويصبح وجودها لايطمئن صديقاًولا يقلق عدواً .

هذه هى بعض الميادين التى يحاربنا فيها العدو ، وقدأعلن الحرب علينا فيها جميعاً فى وقت واحد ، وأعد لكل حرب جنودا متخصصين.

وبالنسبة لمعالجة الموضوع فأننا لن تتعرض للنقطة الاولى الا اذا كانت تفيدنا فى موضوعنا .

وأما النقاط الثلاث الأخرى فهى موضوع هذا البحث ، مع العلم بأن هذه النقاط متشابهة ، وقديختلط الأمر فيها فما هو وسيلة للسيطرة على الفكر قديكون وسيلة للتنصير ، وما هو وسيلة للقضاء على الوحدة قد يكون وسيلة للسيطرة على الفكر ، ولذلك نرى الفصل بين هذه النقط ليس فصلا كاملا .

والآن ننتقل الى التفصيل .

الدعوة لاستعمال القوة مع المسلمين

كان لاعتقاد النصارى أن الاسلام انتشر بالسيف : أثره فى محاولتهم القضاء عليه بالقوة .

وعند ما نقرأ المذابح التى كانت من النصارى ضد المسلمين فى فترات التاريخ نجد أنفسنا أمام مشاهد تبرأ منها الوحوش الضارية ولو كان راوى هذه المجازر من المسلمين لكان للنصارى أن يشككوا فى روايته ولكن الرواة هنا من النصارى .

إذ ترى فى كل صفحة من الكتب التى ألفها النصارى فى ذلك الزمن - كما يقول جوستاف لوبون - براهين على وحشية الصليبيين ويكفى لبيان ذلك أن ننقل الجزء الآتى الذى رواه الشاهد الراهب روبرت عن سلوك الصليبيين فى مدينة « مارات » للدلالة على سياسة الصليبيين الحربية ، وذلك بالاضافة الى ماحدث حين الاستيلاء على القدس .

قال المؤرخ الراهب التقى : -

كان قومنا يجوبون الشوارع والميادين وسطوح البيوت ، ليروا غليلهم من التقتيل وذلك كاللبؤات التى خطفت صغارها ، كانو يذبحون الأولاد والشبان والشيوخ ويقطعونهم إربا إربا ، وكانو يشنقون أناساً كثيرين بحبل واحد بغية السرعة .

وكان قومنا يقبضون على كل شىء يجدونه فيقروا بطون الموتى ليخرجوا منها قطعاً ذهبية ، فيا للشره ، وحب الذهب .

وكانت الدماء تسيل كالأنهار فى طرق المدينة المغطاة بالجثث ،

ولم يكن بين تلك الجماعة الكبرى واحد يرضى بالنصرانية دينا(١) ، ثم أحضر « بوهيموند » جميع الذين اعتقلهم فى برج القصر ، ويأمر بضرب رقاب عجائزهم وشيوخهم وضعافهم ، وبسوق فتيانهم وكهولهم إلى أنطاكية لكى يباعوا فيها

ثم يقول :

وكانت القدس تابعة فى ذلك الحين لسلطان مصر الذى استردها من الترك فاستولى عليها الصليبيون فى ١٥ من يوليو سنة ١٠٩٩ .

وقد جاء فى الأقاصيص أن « القديس جورج » تراءى للصليبيين من جبل الزيتون وأنه حرضهم على القتال ، فانقضوا على أسوار القدس واقتحموها .

وكان سلوك الصليبيين حين دخول القدس غير سلوك الخليفة الكريم عمر بن الخطاب نحو النصارى حين دخلها منذ بضعة قرون .

قال كاهن مدينة أبوس « ريموند داجيل » : —

حدث ما هو عجيب بين العرب عندما استولى قومنا على أسوار القدس وبروجها فقد قطعت رؤوس بعضهم ، فكان هذا أقل ما يمكن أن يصيبهم وبقرت بطون بعضهم فكانوا يضطرون إلى القذف بأنفسهم من أعلى الأسوار وحرق بعضهم فى النار ؛ فكان ذلك بعد عذاب طويل .

وكان لا يرى فى شوارع القدس وميادينها سوى أكدس من رؤوس العرب وأيديهم وأرجلهم ، فلا يمر المرء إلا على جثث قتلاهم ، ولكن كل هذا لم يكن سوى بعض ما نالوا .

---

(١) حضارة العرب ص ٣٢٥ واستقبال المسلمين للموت بصدر رحب هكذا هو الذى جعل الأعداء يقرون بهذه المعجزه للاسلام يقول فيليب حتى عن المسلمين وهيأهم دينهم الجديد الى أن يسخروا من الموت ويحتقروا الحياة تاريخ العرب ص ١٩٤ ــ ١٩٥ ج ١ .

وروى ذلك الكاهن خبر ذبح عشرة آلاف مسلم فى مسجد عمر فعرض الوصف اللطيف الآتى.

لقد أفرط قومنا فى سفك الدماء فى هيكل سليمان، وكانت جثث القتلى تعوم فى الساحة هنا وهناك، وكانت الأيدى والأزرع المبتورة تسبح كأنها تريد أن تتصل بجثث غريبه عنها فإذا ما اتصلت ذراع بجسم لم يعرف أصلها.

وكان الجنود الذين أحدثوا تلك الملحمة لا يطيقون رائحة البخار المنبعثة من ذلك إلا بمشقة

ولم يكتف الفرسان الصليبيون الأتقياء بذلك، فعقدوا مؤتمراً أجمعوا فيه على إبادة جميع سكان القدس من المسلمين واليهود وخوارج النصارى الذين كان عددهم نحو ستين ألفاً، فأفنوهم على بكرة أبيهم فى ثمانية أيام، ولم يستبقوا منهم امرأة ولا ولداً ولا شيخاً (١).

وعندما جاءوا المعرة معرة النعمان قتلوا على رواية « تيشو » جميع من كانوا فيها من المسلمين اللاجئين إلى الجوامع المختبئين فى السراديب، وأهلكوا صبراً ما يزيد على مائة ألف إنسان فى أكثر الروايات.

وكانت المعرة من أعظم مدن الشام، وافاها سكان الأطراف بعد سقوط أنطاكية يعتصمون فيها (٢).

ويقول خوستاف لوبون عن صلاح الدين بعد استيلائه على القدس:

ولم يشأ السلطان صلاح الدين أن يفعل فى الصليبيين مثل ما فعله الصليبيون الأولون من ضروب التوحش، فيبيد النصارى على بكرة أبيهم، فقد اكتفى بفرض جزية طفيفة عليهم، مانعاً سلب شىء منهم (٣).

---

(١) حضارة العرب ص ٣٢٦ — ٣٢٧.
(٢) الاسلام والحضارة العربية ص ٣٩٦.
(٣) حضارة العرب ص ٣٢٩.

هذا مثال لوصف مؤرخى النصارى لما حصل من بنى قومهم فى الحروب الصليبية . وأنا فى الحقيقة بهذه المناسبة ، لا أجد مبرراً للتفرقة بين ما حصل من الصليبيين فى الحروب الصليبية ، وما حصل من التتار ، ـ بل أعتقد أن التتار كانوا أقل جناية على الإنسانية من هؤلاء الصليبيين .

وللعجب نرى أوربا التى حصل منها هذا لا زالت تصف التتار بالبربرية وبأشنع الأوصاف كأنها بريئة من هذا .

وإذا كانت أوربا قد ارتكبت هذا ضد المسلمين فى العصور الوسطى هل هى الآن نادمة على ما حصل منها كما قالوا لنا ؟

الحقيقة أن أوربا غير آسفة ، بل لا زالت تفكر فى العودة إلى هذه الحروب الصليبية . وينادى بها البعض علنا ، والبعض الآخر لا يعارض فى الفكرة ولكنه يرى أن الوقت لم يحن بعد ، أو يرى أنه يمكن سلوك طرق أخرى تختلف فيها الوسيلة. ولكنها تؤدى إلى نفس النتيجة . فنجد إيطالياً فى العصر الحديث وقت استعمارها لليبيا تقوم بإخراج الآلاف ، من سكان الجبل الأخضر ، وتسكنهم فى صحراء قاحلة بالقرب من أرض سرت ، وكانت هذه العملية سبباً فى موت عدد كبير منهم ثم عمدوا إلى الأطفال الذين هم بين سن الرابعةوالخامسةوحملوا الكثير منهم إلى إيطاليا لكى ينشئوا على الدين المسيحى .

ولم يرقوا للبكاء ولا للصراخ من الآباء والأولاد .

وهم لا ينكرون هذا ، بل تفتخر به الحكومة الإيطالية فى مجلس الأمة الإيطالى . وأما اليونان فهم ـ كما قال سلامة ـ موسى ما زال إخواننا اليونانيون يتشاءمون من يوم الثلاثاء لأنه هو اليوم الذى دخل فيه محمد الفاتح القسطنطينية ، ومازالوا يتغنون بالأغانى التى تصبو .إلى الامبراطورية القديمة وما زال عامتهم يذكرون أن أيا صوفيا كانت كنيسة ثم صارت مسجداً (ما هى النهضة .ص ١٠٥.

فإذا انتقلنا من إيطاليا إلى إنجلترا وجدناها لا تخفى عداءها للاسلام فوزيرها

الأول « غلا دستون » وهو أحد موطدى الإمبراطورية فى الشرق يقول : ما دام هذا القرآن موجوداً فلن تستطيع أوربا السيطرة على الشرق ، ولا أن تكون هى نفسها فى أمان[١].

القرآن عقبة فى سبيل استقرار بريطانيا فى الشرق بل وخطر على أمنها هى نفسها، إذا لا بد من محاربته ، وحجتهم الظاهرة أنه لا يتلاءم مع المدنية .

فقد زعموا — كما يقول هاردى — أن الإسلام ليس من الأديان الاجتماعية ولا يحسن منتحلوه التلاؤم مع موجبات الحضارة .

وذهبوا إلى أن الواجب أن تنظم آخر حملة صليبية للقضاء على الدين . قال : ولم أر دعاة الاستعمار بعد هذا إلا أن يضيقوا من دائرة الإسلام ، ويحصروه فى أرضه وينشطوا الوثنية ، لأن من يدينون بها أقرب إلى التمثل[٢] .

هذا هو رأى الإنجليز الذين وصفوهم لنا وقت أن كنا طلبة ، بأنهم لاشأن لهم بالدين ، وأن كل إنسان حر فى تدينه .

والحقيقة أنها ما سكتت عن القضاء على الأسلام إلا عجزا منها عن تنفيذ ما تريد .

وأما فرنسا فهى - كبقى جنسها - تمتلىء غيظا من الاسلام وسيطرته ، فلو كان بربر أفريقيا - كما يقول «روجر لابون» - يتبعون غير دين الإسلام لكان مركزنا هناك أقوى مما هو اليوم[٣] .

ثم يحذر قومه قائلا للحكومة : إن عليها أن تأخذ حذرها من ديانة هى — فيما عدا بعض مبادىء نادرة فيها شىء من السماحة — يمكن أن تختصرها بهذه

---

(١) نفسه ص ٣١٨

(٢) نفسه ص ٣٠٦ .

(٣) حاضر العالم الاسلامى ص ٣١١ - ٣١٢ ج ٢

الجملة : قاتلوا الكفار، واستعبدوهم واطرحوهم فى الأرض(١) .

ثم يلوم قومه لأنهم يعيشون غير مكترثين بالقلاقل التى تحصل فى بلاد إسلامية ضد دول أوربية أخرى ، وأنهم — أى قومه — يظنون أن سياسة الملاينة ربما تنفع مع المسلم وتدفع خطره ، ويتخدعون بكل سهوله بظاهر الشرقى الذى من شأنه كتمان سريرته تحت ستار الأدب الغض ، والكياسة الزائدة ، وينسون أن الإسلام المبنى على قاعدة الخضوع للقوة الغالبة تصلح له الصرامة وسياسة الحزم ، أكثر من سياسة التودد والمراءاة عن حقوقه(٢) .

ثم يأخذ فى بيان خصائص الإسلام - حسب زعمه - مبينا أن ديانة النبى تحتم على أتباعها الاستسلام للقوة وانها تجعل القوة كخاصية إلهية ، وإذا كانت القوة من الله فمن ذا الذى يقدر ان يناهض قوة الله .

ثم يوجه إلى قومه النقد فى معاملتهم المسلمين ، وأكثر ما يحدث من الاغلاط فى سياسة الأمم ناشىء عن الجهل بهذه الحقيقة ، أى كون الإسلام عبدا للقوة .

فالإسلام لايخضع بفطرته إلا للسلطة القاهرة(٣)

بالطبع هو يغالط نفسه ويغش قومه ، لأن الإسلام لم يكن عبدا للقوة فى يوم من الأيام وأحكامه فى ذلك معروفه بقوله تعالى « فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم»(٤) ونحن لن نرد عليه إلا بما وقع بالفعل ، فإن قومه قد أخذوا بنصيحته ونصيحة أمثاله ، فكانت نهايتهم الفشل وانتصار المسلمين عليهم.

وينتقل الأمر إلى رجال الدين ، ونرى الجميع يرددون نغمة واحدة . فلذلك

---

(١) نفسه ص ٣١٨

(٢) نفسه ص ٣٠٦

(٣) نفسه ص ٣٠٧ — ٣٠٨

(٤) البقرة آية ص ١٧٨

زعم الأب لامنس أن يشنها على الإسلام غارة شعواء ، ويحمل عليه حملة صليبية يكون هو بطرسها الناسك على أمل أن يصرع الإسلام(٣).

هذا الاتجاه إلى حروب صليبية أخرى هو ما نفذته أوربا بالفعل ، حتى ان هذه الفظائع ضد العالم الإسلامى خاصة ، والأمم الشرقية عامة قد حركت ضمير كثير من الأوربيين .

قال الكاتب الانجليزى الشهير « سدنى لو » سنة ١٩١٢ :

ما أشبه غالب الدول النصرانية فى سلوكها هذا الذى ما برحت سالكته منذ عدة سنوات إزاء الأمم الشرقية بعصابة من اللصوص يهبطون على الحلل الآمنة : أهلها ضعفاء عزل فيثخنون فيهم ، ثم ينقلبون بالغنائم والأسلاب .

مابال هذه الدول لاتنفك تدوس حقوق الأمم المجاهدة فى سبيل النهضة ، وعلام هذا العنف الذى تضرب به الشعوب المستضعفة ، وهذا الجشع الكلبى لانتياش ما بين أيديها وما خلفها .

إن هذه الدول الغربية النصرانية هى بفعلها هذا مؤيدة للدعوة الباطلة: إن القوى الشاكى السلاح يحق له الانقضاض على الضعيف الأعزل ، وآتية بالبرهان القاطع على أن مكارم الأخلاق والآداب الاجتماعية ، لاشأن لها البتة حيال القوة المسلحة(٤) .

---

(١) عن تعليق شكيب أرسلان على حاضر العالم الاسلامى ص ٣٩ ج ١

(٢) حاضر العالم الاسلامي ص ١٢ ج ٤ ولى الحرب التى تدور رحاها الان بين مصر وسوريا من ناحية واسرائيل ومن ورائها الدول المسيحية من ناحية أخرى ، قال مراسل الاذاعة البريطانيه الذى زار الجبهة يوم ١٩-١٠-١٩٧٣ م هى الجنود المسيحيين الذين جاءوا لمساعدة اسرائيل قال ومنهم من خاض هذه الحروب بنفس الروح التى دفعت الصليبيين لخوض غمار الحروب الصليبية .

هذه هى الصليبية الجديدة تسير على نهج الصليبية القديمة هدف الإثنتين إبادة المسلمين واقتلاع الاسلام من على وجه الأرض .

وتسأل كيف استطاع مشعلو نار الصليبية الجديدة كسابقيهم أن يسوقوا شعوبهم إلى هذه الحرب ؟ والجواب : لأن هذه الشعوب تربت على بغض الاسلام ، حيث اجتهد كاتبوهم فى إظهار الاسلام بمظهر كريه ، وتفتحت عين الأوربى على مخلفات مملوءة بالأكاذيب، تتعلق بقواعد الاسلام وسيرة نبيه وكتابه .

وكان لهذه الأباطيل كل سيطرة على عقل الأوربى ، حتى أن كبار مفكريهم لم يستطيعوا التخلص منها حتى الآن .

وفى ثنايا هذا البحث ستجد كيف أن هؤلاء المفكرين بل وتلامذتهم من المسلمين الذين تلقوا على أيديهم ثقافتهم ، دون أن يرجعوا إلى دينهم ليعرفوا عنه حقيقته .

كيف أن هؤلاء وأولئك وقعوا ضحية هذه الأكاذيب التى حيكت اثناء العصور الوسطى ؛فاذا ماسمعوا ما هو ضد الاسلام صدقوه فأن كان جنديا أطاع وإن كاتبا كتب .

ولكن هل أفادت الصليبية الجديدة من إبادة المسلمين ؟

الجواب : لا ، بل كانت كما عبر عن ذلك أحد عظماء المسلمين قبيل الحرب العامة فى هذا الصدد قال : إن هذه الدواهى التى دهتنا ، والنوازل التى نزلت بالعالم الاسلامى خلال العشر السنوات الأخيرة قد جددت فى أعماق جميع المسلمين عواطف التآخى؛ من حيث أشعلت صدورنا مقتا وكرها وعداء للبغاة المعتدين علينـــا(١).

لقد قال جوستان لوبون عن آخر حملة صليبية قادها لويس التاسع على تونس بعد

---

(١) نفسه ص ١٦

فشله وأسره فى المنصوره ثم إصابته بالطاعون وموته فى ٢٥ من أغسطس سنة ١٢٧٠ .

قال لوبون :

وكانت تلك الحملة الثامنة أخرى الحملات الصليبية . فيها ختمت تلك المغازى الكبيرة الى الأبد وبقى المشرق خاضعا لأتباع النبي العربى .

ولم يلبث النصارى أن خسروا ما كانوا يملكون من النواحى القلبله فى فلسطين ، وأراد البابوات أن يوقظوا حمية النصارى الدينية على غير جدوى.

فقد فترت حرارة الايمان فى النفوس وسارهم شعوب الغرب مصروفا إلى أهداف أخرى(١).

فشلت إذا الحملات العسكرية الصليبية القديمة ، وتلتها فى الفشل فى تنصير المسلمين العسكرية الصليبية الحديثة ، وإن كانت هذه قد استقرت فى البلاد الاسلامية لتقضى على استقلالها ، ولكن العداء مستحكم ، والوئام من المستحيل أن يحل محل الخصام ، وكان العدو وقد استفاد الكثير من تلك الحروب الطويلة

كان مما استفاده :

أولا : وجد أن الصليبيين فى الحروب الصليبية كانوا أكثر عددا وأقوى عدة ، ومع هذا هزموا بعد أن استمرت الحروب قرنين من الزمان ، وعرف أن الوازع الدينى كان وراء انتصار المسلمين ، ومن هنا لم تأخذ المسلمين رحمة بمن خان دينه فقد دبرت الخاتون صفوة الملك على ابنها شمس الملوك صاحب دمشق من يقتله ، لما تأكدت أنه اتفق مع الافرنج على أن يسلمهم دمشق .

---

(١) حضارة العرب ص ٣٢٢

وطالما تنازع المسلمون ؛ ولـكنهم تناسوا بسرعة كل ما كان بينهم أمام الغزو الصليبى ، وتنازل كل واحد منهم عما كان يطالب به الآخر .

ثانيا : رأى العد وانه إذا فشل الغزو العسكرى فى القضاء على الاسلام فأن الغزو المعنوى يمكن أن يقوم مقامه أو يفوقه ، وأن ثمرات الغزو المعنوى وأن كانت بطيئة إلا انها مضمونه .

الغزو الفكرى

تمهيد :

يمكن للعدو أن يسيطر على عدوه إذا هزمه فى إحدى ناحيتين أو كلتيهما الناحية العسكرية والسياسية ، والناحية الفكرية والمعنوية .

وقد درس الغرب المجتمع الإسلامى ، فى أثناء الحروب الصليبية وبعدها ، وأيقن أن أساس نصره إنما هى عقيدته ، وصمم على أن تكون المعركة الحقيقة ضد العقيدة .

فاذا مانجح فى أن يزيلها ، أو فى أن يجعلها غير مجدية ، فقد نجح فيما فشل فيه السيف وزيادة .

وبدأ الغرب فى التنفيذ، وكانت الظروف كلها فى صالحه ، فقد استطاع بتفوقه الحربى أن يقضى على استقلال كل البلاد الإسلامية تقريبا ، وأن يمسك بالسلطة فى يده ، ثم حاول أن يفرض نوع التعليم الذى يراه مساعدا على نشر أفكاره وعقائده .

وكانت ظروف المسلمين مساعدة على أن يتقبلوا عن العدو ما يريد لهم ، لقد كانوا مستغرقين فى النوم ، ثم استيقظوا فجأة على صوت مدفع ، وإذا بشخص ممسك بهذا المدفع يسلبهم استقلالهم ، ويلقى عليهم أوامر ، وماذا فى يدهم حتى يدفعوه ؟

هكذا كانت الأمم الإسلامية من جهتيها المعنوية والمادية على استعداد لأن تتقبل مايلقى إليها .

ولم تكن الامة الإسلامية وحدها هى المغلوبة، بل كانت تشاركها أمم أخرى، واتجهت الأمم الغالبة بعد انتصارها المادى لفرض سيطرتها المعنوية على الأمم المغلوبة ، ولم تدع الفرصة تفلت من يدها .

وإذا بها توجه الطعنات للمعتقدات الدينية ، والقوانين الشرعية ، واختلفت

الأمم الغربية فيما بينها فى كثير من الأمور ؛ إلا فى هذا الأمر ؛ وهو الغزو المعنوى ، فقد كان بينها اتفاق ولها تخطيط قد يتغير فى شكله حسب الظروف ، ولكنه لا يتغير فى جوهره .

فالاستعمار فى مفهومه كل لا يتجزأ ، يراد منه كسب الأمم المستضعفة لفائدة الدول المسيحية ، وكما يقصد من الكسب الاستفادة ، الاقتصادية ، يقصد كذلك نشر ، المسيحية واللغة الأجنبيه ، واختلاف مناطق النفوذ إنما هو توزيع للعمل ، وإلا فالمكسب فى النهاية لصالح مايسمونه بالعالم المتمدين(١) . أى للنصرانية وحضارتها .

وكون هذا هو قصد الدول المستعمره ليس استنتاجا بل هم أنفسهم الذين يصرحون بهذا .

يقول « روجر لابون » ناعيا على قومه الاكتفاء بالفتح العسكرى دون الاهتمام بالفتح الفكرى يقول :

نحن الآن بعد مضى مائة سنة على فتحنا أفريقيا أخذنا ندرك الخطأ الذى ارتكبناه فى طريقة ضمنت لنا الفتح الحربى والفوز السياسى ، لكنها أهملت الفتح المعنوى الذى كنا نراه من القسم المستحيل .

ومن إهمال الفتح المعنوى تأتى المتاعب ، كلما اشتد الهيجان فى العالم الإسلامى .

فى الجزائر — بالرغم من الصداقة والأمانة اللتين أظهرهما الجيش الوطنى أثناء الحرب — كانت نتيجه انتخابات سنة ١٩١٩ مما يوجب قلق الفكر .

فإن الستمائة ألف وطنى الذين آتيناهم حق الانتخاب بموجب أمر ٤ شباط رشحوا بأجمعهم من عرف ببغض فرنسا ، وكانوا من جماعة الأمير خالد (بن الأمير الهاشمى بن الأمير عبد القادر) .

كذلك الشبان الذين حصلوا العلم فى مدارسنا وتلقوا تربية أوربية كانوا أشد

---

(١) دفاع عن الشريعة .

الناس مناهضه لقضية تجنيد الوطنيين(١).

إنهم يدركون هنا أن القوة المادية تأثيرها موقوت بقوة صاحبها فاذا ضعف نرى من خضع يحاول التخلص منه ، ولذلك يرون أن الغزو الفكرى أبقى أثرا من الغز المادى .

ولايهم المستعمر أن يكون على حق أو باطل ، ان الأمر أولا وقبل كل شىء هو : هل ترك المسلمين مسلمين فى مصلحة الغرب ؟ لاشك الجواب بالنفى .

يقول « روجر لابون » أيضا:

مهما فرضنا شعائر الإسلام سليمة فى الظاهر ، نتساءل .

هل يوجد لنا مصلحة فى تمكينه يمتد ؛وينتشر .بين هذه الأقوام ؟

لا، بل فى أن نعترف به دينا رسميا لمن دان به منهم، سيحصل لعمرى فى غرب أفريقيا ماقد حصل فى الجزائر،ويمتد الإسلام وينتشر بسببنا وتحت حماية أسلحتنا، عند أقوام أشداء ، لم يزالوا منذ قرون يرفضون الإسلام الذى يأتيهم به تجار الرقيق من العرب ، ويحبطون فتوحاتهم الدينية والعسكرية(٢).

ثم ينبه قومه إلى مافى الإسلام من قوة . وأنه يدفع بمعتنقيه إلى الثورات . ويقول :

إن أساس الدين الذى يدين به المسلم ، وتصطبغ بة نفسه ، مهما كان حليما ، والذى لايعرفه إلا ذوو الخلطة والخبرةالطويله.ان هو إلا عامل ثورات مستقبله ، من مصلحتنا ألا نتركها تفعل مفعولها(٣) .

---

(١) حاضر العالم الاسلامى ص ٢٩٠ ــ جـ ٣١ وماذا كان ينتظر من المسلمينالجزائريين وقد وعدتهم فرنسا أنهم إن قاتلوا فى صف الحلفا سوف يحصلون على استقلالهم ثم بعد النصر انقلبت عليهم تقذهم متناسبة جميع وعودها .

(٢) حاضر العالم الإسلامى ص ٣١٥ جـ ٢

(٣) نفسه ص ١٣١

والعدو يدرك أن المعركة قائمة فعلا بين الإسلام المسيحية ، وأن مستقبل كل من الدينين يتوقف على نتيجة هذه المعركة .

يقول « ك. ك. برج » :

ومستقبل الإسلام فى أندونيسيا رهن طريق ومدى مقاومة كل من الإسلام والقومية والتعليم الأوربى والمبشرين المسيحيين صاحبه فى المستقبل القريب(١)

المعركة إذا ضارية ، والعدو يعرف هذا ، وأن المسلمين أمام امتحان لاشك فيه ، وعلى درجتهم فى النجاح فى هذا الامتحان يتوقف مستقبلهم ، بل وجودهم ، فإن الشىء الجوهرى — كما يقول جب — هو عما إذا كان المسلمون فى آرائهم وأنظمتهم ومسلكهم حيال المشاكل الجديدة ، وفى تطورهم المادى والروحى الصميم سيكشفون عن نزعة واحدة ، ويستقون من منبع واحد ، ويسيرون على ضوء الشعور بالواجب الذى يشعرون به جميعا والغاية التى يطمحون لها جميعا .

أو أن اشتداد وطأة الأفكار الجديدة والحاجات الجديدة سيفرق بينهم على الدوام وسيفلح أخيرا فى تحطيم بناء المجتمع الإسلامى(٢) .

ثم يجيب بأنه لا يمكن الاجابة على هذا السؤال اليوم ، بل ويحتمل أنه لايمكن الاجابة بعد زمن طويل . لأنه قد يدخل عامل ليس فى الحسبان يغير مجرى الحوادث .

ثم يبين أنه على يقين أن أكثر من عامل كهذا سيطرأ .

لأن التأثير بالنسبة للعالم الاسلامى ليس بالنسبة لأوربا فقط ، بل هناك ثقافات أخرى ربما يكون لها تأثير فيما يجرى فى العالم الاسلامى ، فكما أن تأثير ثقافة أوربا كان سبب الأزمة الحاضرة فى العالم الاسلامى ،فسيتأثر هذا فى تطوره المقبل لا بما سيحدث فى المجتمع الأوربى وحده من تطورات بل سيتأثر بتطور المجتمعات الأخرى كذلك .

---

(١) وجهه الإسلام ص ٢٠٣ (٢) وجهه الإسلام ص ٢٠٥

ولك أن تأخذ على سبيل المثال حالة بعيدةالوقوع ، فربما يحدث ـ قبل أن يعد المجتمع الاسلامى نفسه الاعداد الكافى أن يوطد المجتمع فى روسيا سيادته على آسيا الغربية ، وأن تعيد جماعة هندوكية توطيد مركزها فى الهند ، وأخرى أندونيسية فى أقصى الشرق[1] .

ثم ما المانع أن يمسك أحد هذه المجتمعات بزمام الفكر فسيطر فكريا على المجتمعات الأخرى ويتحكم فى تيار تطورها وبالتالى يتمكن من التأثير فى المجتمع الاسلامى وتغيير مجرى تطوره .

هذه هى نقط المخاوف على الفكر الاسلامى .

وأن المسلمين لكى ينجوا بدينهم من المؤثرات الخارجية ، عليهم أن يعلموا من أين يأتى الخطر ، وأن يستعدوا لمقاومته . ولهم من دينهم — لو اتبعوه — حصن منيع ، يجعل أسلحة عدوهم عديمة التأثير .

---

(١) نفسه ص ٢٠٦

متى بدأ الغزو الفكرى*؟

أن الغزو الموجه ضد الإسلام ليس جديداً ، بل بدأ منذ الأعوام الأولى للدعوة .

ومنذ ذلك الحين وهذا الغزو يتخذ أشكالا متعددة ، تتغير بتغير الظروف والأوقات ، ولكنها تتفق فى الغاية وهى القضاء على الإسلام .

إن العدو — من قديم — رأى أن المسلمين عندما خرجوا للجهاد لم يخرجوا لكسب مادى وإنما ، خرجوا يطلبون الموت فى سبيل رفع كلمة الله.

إن القوم عرفوا الأمر على حقيقته ، عرفوا الدنيا وعرفوا الآخرة ، وأيهما يجب أن تكون مجرد وسيلة ، وأيهما هى الغاية ، واختاروا الآخرة ، كغاية ، واختاروا العمل الصالح فى الدنيا ليصلوا به إلى رضوان الله سبحانه .

ولقد حاولوا أن يوصلوا هذه الرسالة السامية إلى كل البشرية حيث رأوا هذا واجبهم ولذلك تراهم عند انتصارهم — على غير عادة البشر آنئذ — يجعلون كل همهم إنقاذ هذه الأمة التى هزمت فى ميدان الحرب من الكفر إلى الإيمان ، ولا يتركون بابا لصرفهم عن رسالتهم الحقيقية .

لقد نظروا إلى أنفسهم على أنهم أطباء يتحتم عليهم إنقاذ المريض ، فاذا ما شفى وأصبح مسلماً بدأ هو نفسه يدافع عن الإسلام .

واكتسح الإسلام أمامه ممالك كانت فى ذلك الوقت أعظم ممالك الدنيا وكانوا ينظرون إلى العرب نظرة عدم اكتراث ، فاذا بهؤلاء العرب يقضون على ملكهم ، ويجد أصحاب الملك الضائع أنفسهم عاجزين عن مقابلة الإسلام فى ميدان القتال .

---

* تقدم فى الفصل الأول أنواع الغزو العسكرى التى حصلت فى عهد الرسول صلى الله عليه وسلم ، إلا أن محاولات أهل مكة كانت بسيطة وساذجة إذا قيست بالمحاولات التى جاءت بعد ذلك .

هذا مما جعل أعداء الإسلام ينزعجون ، كما كان من الأسباب التى جعلتهم يتجهون إلى حيلة أخرى لمحاولة القضاء على الإسلام فى غير ميدان القتال .

أضف إلى هذا أنه بعد الرسول صلى الله عليه وسلم حصلت بعض الثغرات فى تطبيق الاسلام ، فان سلمان الفارسى مثلا لم يشعر بفرق بينه وبين أى شىء . .

أما فى عهد بنى أمية فان الأمر تغير، فقد كانت دولتهم عربية ، ولكن الرعية منهم العرب وغير العرب ، وقد أطلق على غير العرب من المسلمين اسم الموالى .

ولو مشينا على القاعدة الاسلامية فإنه لا فرق بين العرب والموالى ، فعمر بن الخطاب يقول : أبو بكر سيدنا ، وأعتق سيدنا . يعنى بلالا مع أن أبا بكر قرشى ؛ وبلالا حبشى .

ومن قبل ذلك قال الرسول صلى الله عليه وسلم : سلمان منا آل البيت، ولكن يبدو أن الأمر تحول فى عهد بنى أمية إلى نوع من العصبية ، وشعر الموالى بأن هناك فاصلا بينهم وبين العرب . ولم تعد المساواة التى جاء بها الاسلام تطبق كاملة ، بل تأكد الموالى أنهم جعلوا من طبقة دنيا(١) .

ولما كانت الثورة لا تكون عن الظلم ، بل عن الشعور بالظلم فإن الموالى لو كانوا مستعدين لقبول وضعهم فى طبقة دنيا كما هى الحال عند الطبقة الرابعة فى الهند (شودر).

لو كانوا مستعدين لهذا لهان الأمر ، ولكن الموالى كانوا ينظرون إلى أنفسهم

---

(١) خذ ــ مثلا ــ مسألة المصاهرة ، نرى أن الإسلام يرى أن المسلم كفء للمسلمة ، ولذلك زوج الرسول صلى الله عليه وسلم زينب بنت جحش زيد بن حارثة ، ولكن فى الوقت الذى نؤرخ له لم يكن العربى يسمح بزواج إبنته من الموالى ، وانتقلت المسألة إلى الفقه وعولجت على أنها مسألة خلافية وكثيراً ما وجد المنع أنصاراً وإذا كانت خلافية فى الفقه فقد صارت إجماعاً على المنع فى الواقع .

نظرة أسمى ، وأنهم أصحاب مدنية عريقة، بل إن بعض هؤلاء الموجودين أدركوا عصر الجاهلية حين كانوا ينظرون إلى العرب بدون اكتراث .

من هنا كان الحقد على العرب ، — وللأسف على الاسلام — عند الكثير منهم وبدأت الحركات الفكرية ضد الاسلام .

يضاف إلى ما تقدم أن الفرس كان عندهم رصيد من الديانات القديمة التى ساعدتهم على هذه الحرب الفكرية ، كان عندهم الزرادشتية والمانوية والمزدكية ، وكان موقع بلادهم (الفرس) عند ملتقى الطريق يساعد على استقبال عقائد جديدة، كالبوذية والصابئه .

ولذلك وجدنا فى هذه البلاد القول بمبدأى النور والظلمة كصانعين للعلم النور فاعل الخير والظلمة فاعل الشر وهذا يرجع إلى المانوية .

كما وجدنا عندهم عنـــدهم عبادة النار ، فى المجوسية ، وعبادة الكواكب فى الصابئة .

وكانت المزدكية التى تأثرت بمذهب مانى فى القول بأصلين إلا أن مزدك أثبت للنور الاختيار ونفاه عن الظلمة ، ثم جاء بالشيوعية المغالية ، حيث وجد أن سبب الشر إنما هو النزاع المؤدى إلى الحروب ، وما تجره على البشرية من ويلات والقضاء على الشر يكون بالقضاء على أسبابه ، وأسبابه هى الملكية ، وبالقضاء عليها تكون الشيوعية فى المال والنساء ، فإذا أصبح المال والنساء مباحين لكل الأفراد بلا قيد ولا شرط ارتفع سبب التقاتل عند ذلك .

بالطبع أخطأ مـــزدك ، فقد كان سبباً فى انهيار الدولة أخلاقياً ، وبالتالى اجتماعياً وسياسياً . وبرغم هذا بقيت المزكية كعامل قلق للدولة الاسلامية

إلى هنا وصلنا إلى أن سبب الغزو الفكرى للاسلام هو ضياع ملك العجم على يد العرب ، وتعصب العرب ضد الموالى ، ووجود أديان قديمة لا زالت

تجد من يتعصب لها ولو فى السر ،والسبب الأخير وهو وجود الأديان القديمـــة عند الفرس من أهم الأسباب ، إذلو لم يتوفر لهم هذا الرصيد من الأديان لما استطاعوا أن يشنوا هذه الحرب التى كانت السبب فى القضاء على الوحـــدة الاسلامية . .

والتاريخ يثبت أن أمل بعض الفرس لم يكن فقط محاولة التساوى مع العرب، بل ، كان أبعد من هذا ، وهو محاربة الاسلام نفسه ، بدليل أن الحكم لما صار إلى العباسيين وأصبح هؤلاء يقدمون الفرس على العرب لم يكتف الفرس بهذا ، بل ساروا فى نفس الطريق ، وهو الحط من شأن العرب ، ومحاربة الاسلام ، ومحاولة التخلص منه تحت أسماء مختلفة .

ومن المؤكد أن هؤلاء الذين كانوا يريدون التخلص من الاسلام كانوا كثرة .

وبدون القول بأنهم كانوا كثرة لا نستطيع أن نعلل هذه السرعة فى اتباع أى داع للخروج على الاسلام ، برغم أن ما جاء به يعتبر تافهاً لا ترضاه العقول .

فنجد أن أبا مسلم الخراسانى كان قائداً انتصر على الأمويين ، وكان سببا فى نقل الخلافه إلى العباسيين ، ثم كانت نهايته على يد العباسيين ، وهى حياة بالنسبة لكبار الرجال تعتبر عادية ، وفى التاريخ بطولات كثيرة ولو كانت الأمـــور تسير سيراً طبيعيا لكان أقصى ما يتصور من الفرس بعد ذلك أن يحزنوا عليه ، وينظروا إليه كبطل قتل مظلوما .

ولكننا نرى أبا مسلم يدخل ميدان العقيدة من أوسع الأبواب ، فالراوندية يمجدونه ، ويذهبون إلى أنه تجسد للإله ، ويخرج ـ بعد قتله ـ رجل من أتباعه، ويدعى أنه التجسد الجديد للذات الألهية ، ثم يتخذ قناعا من ذهب ، هذا القناع فى حقيقة الأمر كان لقبح وجهه ، ولكنه ادعى أنه يحجب به الذات الالهية عن العيون الدنسة التى لدناستها ليست أهلا للنظر إليه ، وعرف بالمقنع ، واتخذ مقراً له قلعة (سنام) فيما وراء النهر ، وتبعه الكثير،حتى استطاع أن يخضع الأقاليم كله ،

وهزم جيوش الخليفة فى أول الأمر لولا أنها استطاعت أن تحاصر القلعة ، وهنا لجأ المقنع إلى إشعال النار فى القلعة لتأتى عليه وعلى أهل بيته وأتباعه .

هل كانت عقيدتهم فعلا أن أبا مسلم تجسد ثلاله ، أو أن عقيدتهم كانت أن أبا مسلم رمز لبعث القومية الفارسية .

وهل يعتقدون بأن أبا مسلم لم يمت ، وأنه مختبىء فى الجبال ، وسيعود — كما كانت دعوة إسحق التركى — لقيادة أنصاره ؟

ثم ما هذه السرعة فى تصديق إسحق أنه رسول زرادشت إلى الفرس ؟

من هنا لا نعجب من انتقال الداعية فى الظاهر ، من فكرة إلى فكرة .

فتلا الحسن بن الصباح ، يرحل إلى مصر ، ويعجب بالدعوه الفاطمية ، ثم يعود إلى فارس داعيا الفاطميين ، إلا أنه بعد ذلك يسلك طريقا ليس بينه وبين الاسلام أية صلة فيتخذ قلعة « الموت » قاعدة له ، ينشر منها الرعب ، وينظم أتباعه درجات . ليس هذا مكان تفصيلها ، إلا أن الذى يهمنا أن الطبقة العليا التى كانت قريبة منه كانت تعيش حياة إباحية ، لا مكان فيها لأسرة ، ولا خلق ، ولا دين .

أليس هذا تطبيقا للشيوعية المزدكية .

وليس من شك فى أنه كان بين أتباع هؤلاء من يظن فعلا أن هذا هو الاسلام ، دون ان يدرى انه وقع فى الردة عن الاسلام .

وإذا تركنا الدعوات الكبيرة ضد الإسلام كالتى تقدمت ، والتى كان يقضى عليها من قبل الدولة ، إذا تركنا هذه الدعوات ، فإننا نجد أن الحرب الفكرية ضد الإسلام لم تهدأ ، بل من الحكمة القول بأنه كانت هناك طبقة دائبة العمل ، تختفى احيانا ، وتظهر احيانا اخرى ، وهى وان كانت على هيئة افراد ، الا انه من الممكن القول بأن هؤلاء الأفراد كانوا معظم الطبقة المثقفة يستخفون ويظهرون

حسب قوة الدولة وضعفها ، فمهما كانت الأسباب السياسية فاننا لانستطيع أن نبعد الأسباب الدينية فيما حصل لعبد الله بن المقفع ، وبشار بن برد ، وصالح بن عبد القدوس ، بل وربما البرامكة .

والمتبع لهذه الحركات يجدان أن الأساليب مختلفة والغاية واحدة وهى الكيد للاسلام، من هنا نجد أن هذه الحركات كثيرا ما تتداخل وتختلط بحيث يصعب الفصل بينها، فالباطنية والزنادقة والشيعة الغالية والشعوبية كل هذه الحركات التى ماقامت إلا للكيد للاسلام نجدها عند المؤرخين متداخله .

فالغزالى يجعل الإسماعيلية من الباطنية مع أن الإسماعيلية من الشيعة ونجد علان بن الحسن يوصف بالشعوبى الزنديق ، فالحركة الشعوبية وإن كانت تقوم على تفضيل غير العرب ـ وخاصة الفرس ـ على العرب ، إلا أنها عند المبالغة تتناول الدين ، وقد ألف علان هذا لطاهر بن الحسين كتابا فى مثالب العرب خرج فيه عن آداب الدين ولم يخص بحملته بعض العرب دون ، بعض ، بل جعلها تعم جميع العرب وقريشا وبنى هاشم .

ورغم هذا فقد أجازه طاهر بن الحسين عليه بثلاثين ألف درهم ، يقول الإمام الغزالى فى الباطنية وسبب دعوتهم على هذه الصورة .

تشاور جماعة من المجوس والمزدكية ، وشرذمة من الثنوية الملحدين وطائفة كبيرة من ملحدة الفلاسفة المتقدمين ، وضربوا سهام الرأى فى استنباط تدبير يخفف عنهم مانابهم من استيلاء أهل الدين ، وينفس عنهم كربة مادهاهم من من أمر المسلمين حتى أخرسوا ألسنتهم عن النطق بما هو معتقدهم من إنكار الصانع، وتكذيب الرسل ، وجحد الحشر والنشر ، والمعاد إلى الله فى آخر الأمر .

وقد تفاقم أمر محمد واستطارت فى الأقطار دعوته واتسعت ولايته واتسقت أسبابه ، وشوكته ، حتى استولوا على ملك أسلافنا ـ كما يقولون ـ .
ولا مطمع فى مقاومتهم بقتال ، ولا سبيل إلى استنزالهم إلا بمكر واحتيال .

ولو شافهناهم بالدعاء إلى مذهبنا لتنمروا علينا وامتنعوا من الإصغاء إلينا.

فسبيلنا أن ننتحل عقيدة طائفة من فرقهم، هم أركهم عقولا، وأسخفهم رأيا وألينهم عريكة لقبول المحالات، وأطوعهم للتصديق بالأكاذيب المزخرفات وهم الروافض.

ونتحصن بالانتساب إليهم، والاعتزاء إلى أهل البيت عن شرهم، ونتودد إليهم بما يلائم طبعهم: من ذكر ماتم على سلفهم من الظلم العظيم، والذل الهائل، ونتباكى لهم على ماحل بآل محمد صلى الله عليه وسلم، ونتوصل به إلى تطويل اللسان فى أئمة سلفهم الذين هم أسوتهم وقدوتهم، حتى إذا قبحنا أحوالهم فى أعينهم وماينقل إليهم شرعهم بنقلهم ورواياتهم، اشتد عليهم باب الرجوع إلى الشرع. وسهل علينا استدراجهم إلى الإنخلاع عن الدين.

وإن بقى عندهم معتصم من ظواهر القرآن ومتواتر الأخبار، أوهمنا عندهم أن تلك الظواهر لها أسرار وبواطن، وأن أمارة الأحمق الإنخداع بظواهرها وعلامة الفطنة اعتقاد بواطنها.

ثم نبث إليهم عقائدنا، ونزعم أنها المراد بظواهر القرآن.

ثم إذا تكثرنا بهؤلاء سهل علينا استدراج سائر الفرق بعد التحيز إلى هؤلاء، والتظاهر بنصرهم[1].

هذه هى الحيلة التى جربت مع المسلمين الذين انتصروا فى ميدان القتال، ولقد نجحت هذه الخدعة فيما فشل فيه سيف العدو، وخرجت بالمسلمين عن دينهم،

---

(١) فضائح الباطنية ص ١٨ — ١٩ ويقول أبو الفرج عبد الرحمن بن الجوزى «فلما فشا الاسلام بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم وفتحت البلدان اجتمع جماعة من الملحدين فقالوا: لا طاقة لنا اليوم بالمسلمين فهلموا حتى نظهر الاسلام وندخل فيه الآفات، وهم الباطنية يظهرون الاسلام والتعبد ومقصودهم الجهال واصطيادهم فاذا تمكنوا منهم كاشفوا بالالحاد» الوفا بأحوال المصطفى ص ٣٥١ ج ١

وأضعفت قوتهم ، وجعلتهم شيعا وأحزابا ، يتقاتلون بعد أن كانوا أمة واحدة ويدا على من سواهم .

ولقد وصلوا إلى ما يريدون ، وجعلوا أتباعهم يعتقدون الكفر بعينه ، ولكن مع التواء الطريق الذى سلكوه .

فهم - كما يقول الإمام الغزالى - لما عجزوا عن صرف الخلق عن القرآن والسنة .

صرفوهم عن المراد بهما إلى مخاريق زخرفوها ، واستفادو - بما انتزعوه من نفوسهم من مقتضى الألفاظ - إبطال معانى الشرع ، وبما زخرفوا من التأويلات تنفيذ انقيادهم للمبايعه والموالاه ، وأنهم لو صرحوا بالنفى المحض ، والتكذيب ، لم يحظوا بموالاه الموالين ، وكانوا أول المقصودين المقتولين[1].

ثم إذا قارنا ما وصلوا إليه بما عليه الكفار نجد أنهم أسوأ من الكفار ، فهم قد قالوا بكل ما قال به الكفار ، سواء فى الفروع أم فى الأصول . فمن ناحية الفروع ألغوها نهائيا .

فمعنى الجنابة عندهم مبادره المستجيب بإفشاء سر ألقى إليه قبل أن ينال رتبة استحقاقه ، ومعنى الغسل تجديد العهد على من فعل ذلك ...

الصيام هو الإمساك عن كشف السر - الكعبة هى النبى ، والباب على ، والطواف بالبيت سبعا هو الطواف بمحمد إلى إتمام الأئمة السبعة ، والصلوات الخمس أدلة على الأصول الأربعة وعلى الإمام ....

وكذلك زعموا أن المحرمات عبارة عن ذوى الشر من الرجال ، وقد تعبدنا باجتنابهم ، كما أن العبادات عبارة عن الأخيار الأبرار الذين أمرنا باتباعهم[2].
إلى هنا ألغوا جميع الفروع .

وأما فى الأصول فهم (قائلون بإلهين قديمين لا أول لوجودهما من حيث

---

(١) ص ٥٥ - ٥٦ فضائح الباطنية (٢) نفسه ص ٥٥ - ٥٦

الزمان إلا أن أحدهما علة لوجود الثانى ، واسم العلة السابق ، واسم المعلول التالى وأن السابق خلق العالم بواسطة التالى لا بنفسه(١) وأما مذهبهم فى القيامة والمعاد فقد اتفقوا عن آخرهم على إنكار القيامة ، وأن هذا النظام المشاهد فى الدنيا : من تعاقب الليل والنهار ، وحصول الإنسان من نطفه والنطفة من إنسان ، وتولد النبات وتولد الحيوانات لايتصرم أبد الدهر ، وأن السموات والأرض لايتصور إنعدام أجسامها .

وأولوا القيامة وقالوا إنها رمز لخروج الامام ، وقيام قائم الزمان ، وهو السابع الناسخ للشرع المغير للأمر(٢) .

ولم يقتصر الباطنية فى حربهم ضد الاسلام على الحرب الفكرية ، بل كانوا يستعملون كلا النوعين من الحرب — العسكرية والفكرية — حسب الظروف ولذلك تراهم يطعنون الاسلام كلما سنحت الفرصة ،ففى الحرب الصليبية لما وجدوا الفرصة سانحة لطعن الإسلام تعاونوا مع الصليبيين ، إلا أنه من فضل الله تنبه لهم المسلمون،واستعملوا معهم القوة التى تتفق وخياناتهم،ولذلك لما شعر صاحب دمشق سنة ٥٢٣ ﻫ أن الباطنية فاوضوا الصليبيين ليسلموهم دمشق قتل المزدقانى وزيره الخائن وأمر الناس فثاروا بالاسماعيلية فقتلوا منهم ستة آلاف فى يوم واحد ، وقيل أكثر من ذلك ، فطفئت فتنتهم .

وكانوا يحاولوا تسليم دمشق إلى الصليبيين ، وتواعدوا وإياهم إلى يوم مخصوص يهجمون فيه عليها ، وأحرق الاسماعيلية أسواق حلب فى غضون ذلك فافتقر أهلها(٣) .

وفى عهد الدولة العباسية نجد القرامطة يعيثون فى الأرض فسادا ، ويرهقون الدولة بحروبهم الطويلة حتى شمل شرهم مكة نفسها وكان لهم على الكعبة اعتداء يذكره التاريخ .

---

(١) نفسه ص ٣٨ (٢) نفسه

(٣) الاسلام والحضارة العربية ص ٣٠٢ ج

والاعتداءات المسلحة على المسلمين لا تقف عند حد ، وتاريخ الدولة الاسلامية مملوء بهذه الحروب ، وهم الذين سببوا لهذه الدولة من الحروب ما جعلها تتوقف عن الفتوحات .

* * *

وقد ذكر الإمام الغزالى من ألقاب الباطنية ما يأتى (الباطنية ، والقرامطة والقرمطية ، والخرمية ، والخرمدينية ، والإسماعيلية ، والسبعية ، والبابكية والمحمره ، والتعليمية(١) .

فكل ما يصادفك من حرب أشعلها هؤلاء فإنما هى حرب من الباطنية ضد الإسلام .

وقد وجدوا لهم الكثير من الأتباع ، ولا زالوا حتى اليوم ، وقد التقيت أنا شخصيا ببعض هؤلاء ووجدت عندهم من التأويلات ما يطابق ما جاء به الإمام الغزالى فيما يختص بالقيامة والحساب والثواب والعقاب الخ .

وكانت كل الدلائل تدل على أنهم ليسوا على استعداد للتنازل عن اعتقاداتهم وهو ما حصل بالفعل .

ونسأل - كما سأل الغزالى

كيف ينخدع بمثله عاقل ؟

وقد أجاب الإمام الغزالى رضى الله عنه على ذلك قائلا : قلنا لا ينخدع بمثله إلا المائلون عن اعتدال الحال واستقامة الرأى فللعقلاء عوارض تعمى عليهم طرق الصواب

ثم يقول عن أصناف المستجيبين لدعاة الباطنية ونقط الضعف التى جعلتهم يستجيبون وهم ثمانية أصناف .

---

(١) فضائح الباطنية ص ١١

الصنف الأول طائفة ضعفت عقولهم وقلت بصائرهم وسخفت فى أمور الدين آراؤهم لما جبلوا عليه من البله والبلاده . . . .

وكيف يستبعد قبولهم لذلك ، ونحن نشاهد جماعة فى بعض المدائن القريبة من البصرة ، يعبدون أناسا يزعمون أنهم ورثوا الربوبية من آبائهم المعروفين بالشباسية ؟

(الصنف الثانى) : طائفة انعطفت الدولة عن أسلافهم بدولة الإسلام كأبناء الأكاسرة والدهاقين وأولاد المجوس المستطيلين فهؤلاء موتورون . .

فأذعنوا لقبول كل محال تشوقا إلى درك ثأرهم . . .

(الصنف الثالث) طائفة فهؤلاء طامحة إلى العلياء متطلعة إلى التسلط والاستيلاء إلا أنه ليس بساعدهم الزمان . فهؤلاء إذا وعدوا بنيل أمانيهم ، وسول لهم الظفر بأعاديهم سارعوا إلى قبول ما يظنونه مفضيا إلى مآربهم . . .

(الصنف الرابع) طائفة جبلوا على حب التميز عن العامه ترفعا منهم عن مشابهتهم وتشرفا بالتحيز إلى فئة خاصة تزعم أنها مطلعة على الحقائق . . . .

(الصنف الخامس) طائفة سلكوا طرق النظر ولم يستكملوا فيه رتبة الاستقلال وإن كانوا قد ترقوا عن رتبة الجهال ، فهم أبدا مشوقون إلى التكاسل . والتغافل وإظهار التفطن لدرك أمور تتخيل العامة بعدها ، وينقرون عنها ، لا سيما إذا نسب الشيء إلى مشهور بالفضل فيغلب على الطبع التشوق إلى التشبه به ، فكم من طوائف رأيتهم اعتقدوا محض الكفر تقليدا لأفلاطن وأرسطاطاليس . . .

فهؤلاء يستجرون إلى هذه البدعة باضافتها إلى من يحسن اعتقاد المستجيب فيه ، فيبادر إلى قبوله تشفعا بالتشبه بالذى ذكر أنه من منتحليه .

(الصنف السادس) طائفة اتفق نشوؤهم بين الشيعة والروافض واعتقدوا

التدين بسبب الصحابة ، ورأوا هذه الفرقة تساعدهم عليها فمالت نفوسهم إلى

المساعدة لهم والاستئناس بهم وانجرت بهم إلى ما وراء ذلك من خصائص مذهبهم .

(الصنف السابع) طائفة من ملحده الفلاسفة والثنوبه والمتجرة فى الدين . . .

فاذا رأوا هؤلاء يكرمون من ينتمى إليهم . . .

انتدبوا لمساعدتهم طلبا لحطام الدنيا . . .

(الصنف الثامن) طائفة استولت عليهم الشهوات فاستدرجتهم متابعة اللذات واشتد عليهم وعيد الشرع وثقلت عليهم تكاليفه. فليس يتهنأ عيشهم إذا قرفوا بالفسق والفجور . . .

فإذا صادفوا من يفتح لهم الباب ...

ويحسن لهم ماهم مستحسنون له بالطبع تسارعوا إلى التصديق بالرغبة والتطوع(١)

إن هذه الأفكار هى التى عمقت الخلافات السياسية ، وجعلتها عقائدية بحيث أصبح من غير الممكن إزالتها .

وجاء الاستعمار الحديث وبين جنبيه كل أحقاد تلك القرون الماضية، ووجد أمامه أرضا خصبة لنفث سمومه ، وهى فرقة الأمة بسبب الغزو المعنوى القديم

إن من سبقوه من أعداء الإسلام قد أضرموا النار بالفعل، ولا زالت مشتعلة وما عليه إلا أن يقدم لها الوقود ، وهو ما قام به بالفعل .

---

(١) فضائح الباطنية ص ٢٣ — ٢٦

الغزو الفكرى حديثا

المستشرقون مع تلامذتهم

لم يكن المستشرقون فى العصر الحديث إلا امتدادا للحرب التى ابتلى بها الإسلام من الباطنية وأمثالهم .

يقول محمد أسد فى تصوير الخط الفكرى للمستشرقين :

بعد بضعة عقود — أى من الحروب الصليبية — جاء زمن أخذ فيه علماء الغرب يدرسون الثقافات الأجنبية ، ويوجهونها بشىء من العطف . أما فيما يتعلق بالإسلام فأن الاحتقار التقليدى أخذ يتسلل فى شكل تحزب غير معقول إلى بحوثهم العلمية(١).

والواقع أن المستشرقين الاولين فى الأعصر الحديثة كانوا مبشرين يعملون فى البلاد الإسلامية ، وكانت الصورة المشوهة التى اصطنعوها من تعاليم الإسلام وتاريخه مدبرة على أساس يضمن التأثير فى موقف الأوربيين من الوثنيين غير أن هذا الالتواء العقلى قد استمر مع أن علوم الاستشراق قد تحرت من نفوذ التبشير ، ولم يبق لعلوم الاستشراق هذا عذر من حمية دينيه جاهلية تسىء توجيهها .

أما تحامل المستشرقين على الإسلام فغريزة موروثة ، وخاصة طبيعية تقوم على المؤثرات التى خلفتها الحروب الصليبية بكل مالها من ذيول فى عقول الأوربيين الأولين(٢) .

وإذا كانت هذه هى حال المستشرقين فقد أصبح فى الإمكان القول بأن هؤلاء

---

(١) الاسلام على مفترق الطرق ص ٥٨

(٢) نفسه ٥٨ — ٥٩

المستشرقين لا يعوزهم العقل ولا الخبث ولذلك نراهم تارة يمدحون حتى نثق بهم ثم يطعنوننا وتارة يذمون حتى نفقد الثقة بأنفسنا وإذا بهم يلقون إلينا بما أرادوه وتارة يستعملون تلامذتهم الذين ربوهم على أيديهم .

وهذا المنهج ليس جديدا فقد مدح الباطنية فى آل البيت حتى أسكرونا ثم كانت الطعنة فى الدين، وأتخذ غيرهم - كمعتى الكـر - طريق الهجوم فطعنوا فى كل وفى نبوة سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم .

وممن استعمل أسلوب المدح والطعن فى النقط الأساسية فى الدين « جوستاف لوبون » وممن اتخذ طريق الهجوم دائما « رينان » و« بر، كلمان » و « جولدتسيهر » وأمثالهم فهؤلاء يطعنون فى كل شيء تقريبا ، وإن كان بينهم خلاف فى هذه ماجاء به الإسلام المطاعن قلة وكثرة .

ومن وجوه الشبة أن كلا العدوين — القديم والحديث — له تلاميذ إذ لم يرض الأعداء أن يطيلوا الوقوف وحدهم ، بل عملوا على استمالة عدد ليس بالقليل من أبناء المسلمين وربوهم على أيديهم .

وأخلص التلاميذ لأساتذتهم وحاولوا أن ينفذوا تعاليمهم بعناية وبذلك تورطوا فى الدفاع عن أمور كلها خروج على الشرع ، ولـكن للأنصاف نقول إن بعض هؤلاء التلاميذ يشعر بما يقوم به ، وأن نجاحه فى دعوته معناه القضاء على الأمة يشعر بذلك تماما ، ويعمل من أجله عمداً .

ومنهم من هو برىء من سوء النية ، ولايشعر بخطر ما يقوم به ولـكنه لم يتعمق فى معرفة دينه حتى يقيم نهضته عليه ، وبذلك اندفع فى الدفاع عما جاء من الغرب دون تبصر .

وقد يؤدى للعدو خدمة أجل مما لو كان يشعر بما يقوم به لأنه مندفع — بلا حدود - بعقيدة أنه يخدم وطنه .

وقد يكون من هؤلاء التلامذ الحسنى النية ـ أو على الأقل ليس هدفهم تضييع أمتهم ـ من لا يكفون عن مدح المستشرقين ، معددين خدماتهم وفضلهم على العلم فالمستشرقون — كما يقولون — كان لهم جهد مشكور فى إحياء التراث الإسلامى وعنهم أخذنا الأسلوب العلمى فى دراساتنا للحضارة الإسلامية وأنهم قدوة فى تحقيق الكتاب العربى ، وأنهم وجوا به إلى حيز الوجود كما أنهم أبرزوا .

كثيرا من نواحى المجد فى تاريخنا . . . . .

إلى آخر ما نقرؤه .وأضعاف ذلك ما يتردد فى المجالس .

ونسىء هؤلاء المادحون أن الصياد يعيش حياته يفتن فى تحسين الطعم لصيده حتى يقبل عليه بشهية ، وكم صيدا يستطيع أن يأكل الطعم دون الوقوع فى الشباك ؟

إن المستشرقين والمبشرين ـ وإن اختلفوا فى الاسم ـ هدفهم واحد وهو أن يصطادوا المسلم .

وقد ضربت مثلا بـ « جوستاف لوبون » وإذا قرأت له كتابا مثل كتاب « حضارة العرب » تجده فعلا أبرز الكثير من نواحى مجدنا .

وأعتقد أنك لن تجد من أنصفنا ـ من المستشرقين ـ أكثر منه اللهم إلا إذا كان من القليل الذى أسلم منهم(١) .

ولكن ماذا يفيدنا دفاعه بجانب طعناته ضد الإسلام فى أساسه فهو يقول

---

(١) سيأتى ـ أثناء هذا البحث كثير من دفاع (لوبون) عن العرب كرد منابه على بنى قومه ، وهو منهج اتخذته فى هذا البحث أن أرد بالمستشرقين على المستشرقين للتنبيه على أن آراءهم لا تقوم على أسس علمية وإلا لما اختلفوا

عن الرسول صلى الله عليه وسلم فى حبه للنساء ـ كما يدعى ـ : «وأطلق محمد العنان لهذا الحب حتى أنه رأى اتفاقا زوجة ابنه بالتبنى وهى عارية ،فوقع فى قلبه منها شىء ، فسرحها زوجها ليتزوجها ، محمد فاغتم المسلمون ، فأوحى إلى محمد بواسطة جبريل الذى كان يتصل به يوميا آيات تسوغ ذلك ، وانقلب الانتقاد إلى سكوت(١).

ويغمز جبريل فى هدوء عندما يقول عن عائشة رضى الله عنها وحادثة الأفك : وأصبحت ذات مرة موضع قالة سوء ، فشهد بعصمتها جبريل المحب للخير دائماً .

ثم يقول عن القرآن :

ومحمد لم يزعم أنه يكتب من أجل الفلاسفة ، وكان من مقاصد محمد أن يقيم دينا سهلا يستمرئه قومه ، وقد وفق لذلك حين أخذ من الاديان الأخرى مايلائمهم .

أى شىء بقى لنا بعد ذلك يمدح عليه (جوستاف لوبون) حتى ولو ارتفع بنا فوق أوربا : يونانها ورومانها فى الآداب والفنون .

أقول هذا بمناسبة أن من بين تلاميذ الغرب من يشعرون بما يقومون به ومنهم من يخلص فى الخدمة بحسن نية .

المهم أن العدو فى غزوه الفكرى إما أن يمسك السلاح بيده وأما أن ينقل السلاح من يده إلى يد واحد منا .

---

(١) ولورجع لوبون إلى المراجع الاسلامية ـ وهى تحت يده ـ لوجد أن زيدا هو الذى جاء الى رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال : إن زينب توذينى بلسانها وتفعل كذا وكذا فكان الطلاق بسبب فارق الناحية الاجتماعية الذى كان يوذى زينب ثم كان الزواج لسبب بينه الله سبحانه وتعالى بقوله (لكى لا يكون على المؤمنين حرج فى أزواج أدعيائهم إذا قضوا منهن وطرا [الاحزاب ٣٧] فلا تحرم زوجة الابن بالتبنى .

وبذلك انتقل إلينا الفكر الغربى عن طريقين : ـ

الطريق الأول ذلك الغربى الذى جاء — لا كمعلم مخلص كما يدعى بل — كمنفذ لأفكار خاصة ، مكلف بها من قبل من أرسلوه .

ولا بد أن ينفذ إما لعقيدته ، وإما للمحافظة على النعمة الدنيوية التى غمره بها بنو قومه .

الطريق الآخر الذى وصلنا عنه الفكر الغربى هو بعض منا تتلمذ على الغرب حتى امتلك الفكر الأجنبي عليه مجامع فكره . ثم جاء ليطعن به أمته إما بحسن نية وإما بسوء قصد ، كما تقدم .

اطلق هؤلاء التلاميذ مع أسيادهم فى طول البلاد وعرضها وبدأنا نسمع — كما سمعنا فى عهد الباطنيه وأمثالهم من قبل ـ بخرافة الأديان والعلمانيه والاسمية ألخ . . .

وملأت آذاننا منهم عبارات التسامح الدينى . وان زمن الأديان والتعصب لها قد انتهى ، وأن العصر لم بعد صالحا لهذا التعصب ألخ

وما هى إلا تعاليم حملوها من أعداء الإسلام وانحصرت مهمتهم فى توصيلها .

ولذلك لو سألتهم عن التسامح فى الفيلبين والحبشة أو فى أوربا نفسها لا يجيبون .

ولو سألت الأعداء الذين حملوا أبناءنا الأفكار : هل ترضون بتطبيق ماتطلبونه منا عندكم لقالوا ـ وقد قالوها فعلا ـ إن بطاعة التبشر بضاعة تصدير ليس إلا (١).

والغرب وعلى رأسه إنجلترا يبارك العلمانية فى تركيا ، بل ويجعلها ثمنـــا

(١) الاسلام والحضارة العربية ص ٦٤ .

لاستقلالها ، ومع ذلك تخلع إنجلترا ملكها لأنه خرج على الكنيسة بزواج رأته الكنيسة معيبا .

الهدف إذا ـ ما دام تنصير المسلمين غير ممكن ـ هو انتزاع الإسلام من قلوب أصحابه ، اى انتزاع حقيقته وإن بقى اسمه ، بحيث لا تراه فى الشارع ولا فى النادى ولا فى البيت .

تراه ركعات تؤدى فى المسجد ـ على احسن تقدير ـ تقف عند الظاهر ولا تتجاوزه إلى الباطن .

وأصبح من المألوف جداً أن ترى مجموعة من المسلمين تذهب إلى المسجد لتؤدى الصلاة ، وهم اثناء ذهابهم او رجوعهم بل وحتى اثناء جلوسهم فى المسجد قد يتكلمون فى معاملاتهم الربوية ـ مثلا ـ بدون تحرج كأنهم يتكلمون فى مسائل الوضوء والصلاة .

لا شك ان هذة نتائج خطيرة أصابت العالم الإسلامى فى الصميم ، ويزيد فى خطرها ان الضحية لا زالت مخدرة ، ولا زالت كثرة منا تسميه عصر النهضة ، وتصف من قدموا لنا السم بانهم رواد نهضة وصانعوها .

وللأسف نرى من هم مع الأجنبى فكريا هم اصحاب المراكز الفكرية فى العالم الاسلامى ، ومن هنا يكون ضررهم اشد وقد اعدهم العدو وضمن لهم مراكزهم ، ليكونوا اقدر على تغيير العالم الاسلامى لصالح الأجنبى .

يقول « جب » فى هذا :

وربما كانت أسلم نتيجة نقررها هى أن نقول :

إن هناك طبقتين رئيسيتين :

طبقة عليا تشمل أفرادا من القادة ، ولكنها تشغل أيضا أكبر مراكز

الفكر الاسلامى تأثيرا . وفيها يظهر أثر الافكار الغربية ظهورا قويا .

وطبقة دنيا تشمل جمهور الرأى الاسلامى الذى لايفصح عن نفسه ، وفيها نجد أثر الأفكار الغربية ضيقا إلى حد ما .

وإن ندر أن تقاوم هذه الطبقة أفكار الغرب الا فى جزيرة العرب .

ومادام الزعماء هم الذين يعتد بهم ، ولاسيا زعماء الجيل الناشىء ، استطعنا أن نستنبط أن الجزء الأكبر من العالم الاسلامى سيكون بعد قليل من الزمان قد أخذ نهائيا بوجهة نظر لا سلطان للدين عليها ، إلا إذا طرأ عامل جديد، وغير اتجاه التيارات الموجودة إلى ناحية أخرى(١).

وإذا تحققت نظرية ، (جب) وأخذ المسلمون نهائيا بوجهه نظر لا سلطان للدين عليها فقد ذهب الاستقلال ولو لم نر جنديا أجنبيا بيننا .

إننا - كما يقول علال الفاسى - لايمكن أن نتحرر من الاستعمار الأجنبي بمجرد إعلان الاستقلال السياسى ، أو بمجرد استيلاء أفراد منا يحملون أسماء مغربيه - مثلا - على الحكم فى الوزارة أو فى الادارة أو فى القضاء .

ان كثيرين من الدول الاستعمارية ترضى بأن يبقى لها النفوذ المادى والثقافى والقانونى على بعض المستعمرات دون أن تتدخل فى شئونها الداخلية .

وكل المستعمرين ما كانوا يعملون - إلى جانب الاستفاده المالية التى هى فى نظرهم مؤقته - إلا لخلق شعوب على صورتهم . وأهالى على صورة مواطنيهم.

ولذلك كانوا يقبلون فى بعض مراحل الأستعمار ادماج الأهالى فى جنسيتهم وإمتاعهم بنفس الحقوق التى يتمتع بها المواطن المستعمر (بالكسر) .

فإذا رضينا نحن بقوانين الأجنبي مكان قوانيننا واذا اخترنا لغته مكان لغتنا وحضارته مكان حضارتنا فمعنى ذلك أننا لم نزد على أن ورثنا سلطته ، وقمنا

---

(١) وجهه الاسلام ص ٢١٩ — ٢٢٠

مقامه فى تطبيق البرامج التى كان يعمل لها .

هذه هى الحقيقة التى يجب أن نعلنها غير هيابين من الاتهام بالجمود أو بالرجعية أو بعقدة الاحتلال الأجنبى(١).

هكذا نجد أعداء الإسلام ينظرون إلى انتصارهم فى الغزو المعنوى نظره أهم من انتصارهم فى الغزو العسكرى .

---

(١) دفاع عن الشريعة ص ٢٤/٢٢

إنشاء المدارس فى داخل البلاد الاسلامية

تقدم لنا أن الأوربى تربى على عداوة الإسلام . وأن هذه العداوة متأصلة فى نفسه، إلى درجة أثرت تأثيرا كاملا فى نظرته، وحكمه على الأشياء خاصة الاسلام اذ هنا فقط (نعنى فيما يتعلق بالإسلام) ـ كما يقول محمد أسد ـ

لا تجد موقف الأوربى موقف كره فى غير مبالاة فحسب كما هى الحال فى موقفه من سائر الأديان والثقافات ، بل هو كره عميق الجذور ، يقوم ـ فى الأكثر ـ على صدود من التعصب الشديد .

وهذا الكره ليس عقليا فحسب ، ولكنه يصطبغ أيضا بصبغة عاطفية قوية . وقد لا تتقبل أوربا تعاليم الفلسفة البوذية ، أو الهندوكية ، ولكنها تحتفظ دائما فيما يتعلق بهذين المذهبين بموقف عقلى متزن ، ومبنى على التفكير .

إلا أنها حالما تتجه إلى الإسلام يختل التوزان، ويأخذ الميل العاطفى فى التسرب .

حتى أن أبرز المستشرقين الأوربيين جعلوا من أنفسهم فريسة التحزب غير العلمى فى كتاباتهم عن الإسلام .

ويظهر فى بحوثهم — على الأكثر — كما لو أن الإسلام لا يمكن ان يعالج على أنه موضوع بحث فى البحث العلمى ، بل على أنه متهم يقف أمام قضاته(١) ومادامت بحوثهم هكذا ، فما هى الصورة التى ينقلها أحدهم إلى طلبته عندما يتولى للتدريس أو إلى قارئيه عندما يكتب ؟

لاشك أنها الصورة المشوهة .

من هنا يكون إنشاء مدارس أجنبية فى البلاد الاسلامية خطرا على الإسلام، وأملا بالنسبة لأعدائه

وقد حاول أعداء الإسلام فى كل مكان نزلوا فيه أن ينشئوا المدارس التى

---

(١) الإسلام على مفترق الطرق ص ٥٠ ـ ٥١

من خلالها يستطيعون نفث سمومهم فى داخل العالم الإسلامى، وأمنيتهم الأولى صبغ أبناء المسلمين بصبغه أوربية الفكر .

وكانت هذه المدارس التى أنشأها العدو لهذا العرض، فى بعض البلاد الإسلامية أقدم منها فى البلاد الأخرى تبعا لتقدم النفوذ الأوربى فى بعض البلاد، وتأخره فى البلاد الأخرى .

ففى لبنان نجد الموارنه وعلاقتهم بأوربا قديمة ترجع إلى أيام شارلمان، ومنذ ذلك الوقت تأسست البطريركية المارونية ، وكانت على صلة وثيقة بالكنيسية المسيحية فى روما وبقيت هذه الصلة حتى بعد انفصال الكنيسية الشرقية عن الكنيسية الغربية وأسست للموارنة مدرسة فى روما لتخريج رجال الدين ودراسة علوم أخرى والعلاقة بين فرنسا والمارونيين هى علاقة الأم بابنها ؛ فالمارونيون يفخرون بهذه العلاقة وفرنسا تعتبرهم الطفل المدلل .

والمارونيون ركيزة لأوربا كلها وليس لفرنسا فحسب ، وقد كانوا عونا للصليبين فى الحرب الصليبية .

فلما جاء العصر الحديث وجدت أوربا لها ركائز فى الشام ،وهم المارونية .

وكثر توافد الإنجيليين منذ سنة ١٨٣٨ للدعوة إلى البروتستانتية ، وأسسوا مطبعة عربية كانت لهم فى مالطه أولا ،يطبعون عليها الأناجيل بلغات مختلفة لنشرها فى الشرق .

ثم تبعهم اليسوعيون من الطوائف الكاثوليكية ينشئون مطبعة لهم(١).

وانتشرت فى منتصف القرن التاسع عشر — كما يقول جب — شبكة واسعة من المدارس فى معظم البلاد الإسلامية ، ولاسيما فى تركيا وسوريا ومصر وذلك يرجع غالبا إلى جهود جمعيات تبشيرية مسيحية مختلفة ، وربما كان أكثرها عددا المدارس الفرنسية ، كاثوليكية وعلمانية .

(١) الاسلام والحضارة العربية ص ٣٧٦ ج١

ثم تلتها المدارس الأمريكية والإيطالية واليونانية .

وقد كانت المدارس الإنجليزية فى الامبراطورية العثمانية أقل منها فى الهند وكانت المدارس الهولانديه قاصرة على جزر الهند الشرقية(١).

واستطاعت هذه المدارس أن تعمل بكل حريه فى مصر والشام بسبب التسامح الذى اتصف محمد على .

وكان هذا التسامح سببا فى فتح البلاد أمام الارساليات الأجنبية سواء من الكاثوليك أم البروتستانت .

فنجد جمعية اتحاد مبشرى أمريكا الشمالية سنة ١٨٥٤ تنشىء معهدا للتبشير ، وكان هذا المعهد أهم معاهد التبشير ، وفى سنة ١٨٨٢ تأسس فى مصر معهد على للتبشير تابع لجمعية التبشير الكنسية ، وله أربعة فروع الأول قسم طبي والثانى مدرسة للصبيان ، والثالث والرابع لنشر الانجيل . وينشر مبشرو هذا المعهد مجلة أسبوعية ، وكراسات ، ولهم مكتبة خاصة لهم .

والنتيجة الأولى لمساعى هؤلاء هى تنصير قليل من الشبان والفتيات كما جاء فى كتاب (العالم الاسلامى اليوم) .

والثانية تعويد كل طبقات المسلمين أن يقتبسوا بالتدريج الأفكار المسيحية.

وبعد المعهدين السابق ذكرهما تأتى جمعية تبشير شمال أفريقيا ، هذه الجمعية أسست معهدا فى مصر سنة ١٨٩٢ .

وفى سنة ١٨٩٨ تأسست «الجمعية العامة لتبشير مصر» ، وغايتها تنصير المسلمين أيضا وكان لها معاهد فى الدلتا والسويس وتدير مدارس للصبيان والبنات وتبث فيهم مبادىء النصرانية .

وفى التقرير الذى قدمه القسيس «ترو بريدج» إلى «مؤتمر» لكنو جاء ما يلى :

---

(١) وجهه الاسلام ص ٣٧

بين جدران الكلية الإنجيلية في بيروت ١٠٤ من المسلمين وفي كلية الأستانة ٥٠ وفي كلية المبشرين في كرك باشا في الأستانة أيضا ٨٠ ومنذ بضع سنين صدر إذن خفي بجواز التردد على الكلية الأولى والثانية .

وقال : ان في استطاعة المسلمين التردد على مدارس وكليات التبشير (١).

وأسس الأمريكيون أول مدرسة للبنات ناهجين على المنوال نفسه من حيث العناية بالعربية والعلوم الحديثة :

وحينما اضطر المصريون إلى ارجاع سوريا للأتراك هاجر كثير من المتعلمين إلى مصر ، حيث شعروا بحرية أكثر للاستمرار في نشاطهم الأول .

وأسست الارسالية التابعة للكنيسة المشيخة كلية البنين في أسيوط تعد طلابا للكهنوت ، وكان الغرض الأصلي انعاش الكنيسة القبطية لتتمكن من التبشير بين المسلمين .

وأما أواخر القرن التاسع عشر وأوائل العشرين فقد كان التعليم تحت اشراف الانجليز .

وبذلك نرى أن الشرق الاسلامي أصبح هدفا لجيوش الفكر كما هو هدف الجيوش الحرب ، وأن المدارس غرضها الحقيقي تنصير المسلمين ، وأن الكنائس المسيحية ـ برغم اختلافها فيما بينها ـ اتحدت في كل ماهو ضد المسلمين فنرى الأمريكان البروتستانت يساعدون أقباط مصر الارثوذكس ، ثم هم يتحايلون فاذا لم يمكن تنصير المسلمين ، فليكن العمل على السيطرة على افكارهم ، وهذا سيكون نتيجة للتعليم الذي يسير على تخطيط غربي ، كما يرى ـ جب ـ حين يقول :

ولعل هناك نصيبا من الحق في التهمة التي ترمى بها هذه المدارس الأجنبية ، وهي أنها مفسدة لقومية التلاميذ ، وان كنا لانستطيع القول بأن التطورات

---

(٢) ارجع في ذلك إلى كتاب الغاره على العالم الإسلامي .

السياسية التى أعقبت ذلك فى البلاد الإسلامية أيدت هذه التهمة ، ولكن الذى فعلته ـ بلا ريب ـ أنها ربت فى التلاميذ خروجا على الأنظمة الاجتماعية ، وعلى السياسية ، إلى حد ما ، فى أوطانهم الأصلية .

وبأضعافها من هذه الوجوه سلطان النزعة الإسلامية القديمة على التلاميذ ، أدخلت فى بناء المجتمع الإسلامى أداة هادمة ، وقطعت بعض الأواصر التى كانت تحفظ تماسكه(١) .

وأصبح الشباب الاسلامى ـ كما يقول «بايرد دودج» ـ فى المدن الكبيرة يشربون الخمر ، ويقرءون الصحف أكثر مما يتلون القرآن ، ولا يعنون عناية ظاهرة بالنظم القديمة ، ولكنهم يساهمون فى الأعمال الخيرية

وأعمال الإحسان الخاصة ليست جديدة فى الإسلام ، ولكن الأعمال الخيرية المنظمة ذات الطابع الحديث جديدة ، والنبى يقول : أتحب خالقك حب أخاك الإنسان أولا . . وهل هناك قاعدة أحسن من هذه القاعدة لعبادة الله عن طريق الخدمة الاجتماعية ، وأعمال الخير ، وما إلى ذلك من أعمال البر بالناس . . .

وهذه الخدمات ، الإجتماعية تعوض عن العقائد التى يمكن أن يقف منها الأعضاء موقف عدم المبالاة (٢) .

ويوضح محمد أسد الدور الذى يلعبه تدريس الأدب الأوربى فى عقول الشباب ، وكذلك دراسة التاريخ من وجهة النظر الأوربية وينبهنا على الخطر فيقول : ان الدور الحاضر الذى يقوم به الأدب الأوربى فى المدارس الإسلاميه

---

(١) وجهة الاسلام ص٣٨ وإذا كانت الوطنية لا زالت باقية فهو لاصالة هذه الشعوب ولديتها الذى يعتصمها.

(٢) الاسلام فى نظر الغرب ص ٣٤ ـ ٣٥ ونجد تبرير الخروج على الدين بالاشتغال بالخدمة الاجتماعية وهو نوع من استدراج المسلم للخروج على دينه وأما الحديث فلم أستطع العثور على سنده برغم ما بذلته من جهد .

يجب أن نستبدل به تدريسا عاقلا بصيرا للادب الإسلامى يتأثر فيه الطالب بسعة الثقافة الإسلامية وغناها .

وهكذا يشع فى نفسه أمل جديد بحسن مستقبلها .

إن تعليم الأدب الأوربى على الشكل الذى يسود اليوم الكثير من المؤسسات الإسلامية يقود إلى جعل الإسلام غريبا فى عيون الناشئة المسلمة .

ومثل هذا ـ ولكن إلى حد أبعد ـ يصدق على التعليل الأوربى للتاريخ العام ، اذا لايزال الموقف القديم فيه (رومانيون وبرابرة) يظهر بجلاء .

ثم إن لمثل هذا العرض فى التاريخ هدفا خفيا ، وذلك أنه يدلك على أن الشعوب الغربية ومدينتها أرقى من كل شىء جاء أو يمكن أن يجىء إلى هذا العالم وهكذا ، يمكن خلق نوع من التبرير الادبى لسعى الاوربيين إلى السيطرة على القوة المادية (١).

ويزيد فى الاضرار أن الناشىء عندما ينشأ على فكر معين يبقى حياته طوع هذا الفكر ، يدافع عنه ، ويتعبد بأوامره ، وما دام قد تربى على أن المدنية الغربية هى الوحيدة التى يجب أن تكون وإذا نظر إلى الحضارة الإسلامية فإنها ينظر إليها من خلال المدنية الغربية .

ما دام قد نشأ على هذا فإنه سيصل إلى حالة يكون فيها حربا على دينه ، جنديا لاعداء الإسلام ، يغذى فيهم الغزور بأن الإسلام لم تعد للعالم به حاجة .

وإذا عرفنا أن الذين ربوا فى المدارس الاجنبية إنما كانوا من الطبقة العليا أو المتوسطة ازداد الخطر، لأن الامور ظلت بيد هاتين الطبقتين لمدة طويلة وأصبح الجمهور عرضة للتأثر بهؤلاء .

---

(١) الاسلام على مفترق الطرق ص ٧٢ ـ ٧٣ .

ومن هنا أصبح من الممكن أن نقول ، إن العقيدة الدينية آخذة فى إخلاء أماكن كانت تحتلها ، إلا إذا قام الدعاء بما أوجبه الله عليهم ، وأنقذوا قومهم ، ومما يزيد فى الألم أنه فى حين نرى الحركة التعليمية الحديثة تبعد الشعوب الإسلامية عن دينها نرى هذه الشعوب التى خلعت سلطان الدين لا تشعر بما أصابها إلا نادرا بل قد انعكست الآية فبدل أن كان المسلم خاضعاً لأوامر دينه أصبح يحاول أن يخضع دينه للمدنية الغربية ،ويريد أن يكيف أوامر الدين لتتفق مع ما تمليه هذه المدنية .

وسار المسلمون فى ذلك شوطا بعيداً ، حتى مسخ الدين على يد أبنائه وبعملية مقارنة بين ما كان الحال عليه وبين ما صار إليه يتضح الفرق .

ونترك أحد الأجانب يعقد هذه المقارنة حتى لا نتهم بالمبالغة .

إنه يخبرنا بأنه باستثناء التعليم المسيحى المستقل — كما نرى - يسترعى نظرنا عدم وجود قاعدة خلقية للتعليم الهولندى(١) أى فى أندونسيا لقد كان الفرد فى أندونسيا — خاصة الإشراف — ينشأ على صفات الشجاعة والفطنة ، وضبط النفس ، والأخلاق النبيلة وكان يرجى منه فوق هذا أن يلم بأخلاق السلف ، وعاداتهم ، وبتقاليد الأسرة ، لأن هذه هى الدعائم التى يقوم عليها المجتمع الأندونيسى(١) .

وجاء المعلمون الهولنديون بأفكارهم البعيدة عن الناحية الروحية — ينسفون بقوة ثقافتهم الغربية من نفوس الناس اعتقادهم بالعادات القديمة ، واحترامهم لها ،

ومعنى هذا أنهم يوهنون أساس المجتمع القديم وأساس الإسلام أيضا ، لأنه متصل بالعقائد الموروثة صلة وثيقة(٢) .

---

(١) وجهه الإسلام ص ١٨٩ .
(٢) نفسه ص ١٨٨ .

ثم يقول :

إن التعليم الأوربى يعمل على قلب وجهه نظر الناس قلبا لا يقف عند حد .

وقوة الضربة التى تعانيها الثقافة الأهلية كل يوم ، إنما يحس بها تمام الإحساس الأندونوس الذين هم أكبر سنا .

أما الجيل الجديد فقد شب بين أحضان النظام الجديد ، ولم يظهره المعلم الأوربى على شىء من الثقافة الأهلية ، حتى أن هذا الجيل لا يحس بما بين الثقافتين من فرق إحساسا قويا .

ثم يقول :

والآن فالتعليم على الأسلوب الأوربى الجديد ــ وهو غريب عن روح الإسلام غربته عن روح المسيحية ــ يمنح وهو صامت بذور انحلال فى الفكر أكثر مما حدث(١) .

نصل إذا إلى أن الواجب أصبح يحتم أن نحترس من الاستغراب ولكن كثيرا ما نسمع من تربوا على يد الغرب يرفعون أصواتهم قائلين :

ان الزمن قد تغير وإننا لا بد أن نلاحق سير الحضارة ، والغرب بيده مفتاح العلوم ، والشرق ليس عنده شىء ، إلى آخر هذه الأمور .

والجواب أننا فى حاجة إلى العلم ، والإسلام دعا إلى العلم وموقف الإسلام من الدعوة إلى العلم لا تحتاج إلى شرح ، فقد جعل خشية الله مقصورة على العلماء ، والعلماء الذين قصدهم هم العلماء فى أى فرع من فروع المعرفة التى تفيد الإنسانية ، كما تنبهنا على ذلك الآيات السابقة على قوله تعالى : «إنما يخشى الله من عباده العلماء» وبتقديم لفظ الجلالة وتأخير لفظ العلماء يكون المعنى :

---

(٢) نفسه ص ١٩٠ .

إن الذين يخشون الله من عباده هم العلماء دون غيرهم وعلى ذلك فالإسلام يدعوا إلى العلم بل ويجعله واجبا وفريضه .

والواجب علينا أن ندرس ، وأن تشمل دراستنا جميع فروع العلم من شرعية وطبيعية ورياضية .

ولكن الذى يجب علينا هو ألا تجرنا دراسة العلوم التى تفوق فيها الغربيون إلى استبدال الحضارة الإسلامية بالمادية الأوربية .

فإذا كان فى أوربا رياضة تعلمناها كذلك الطبيعة والطب . . . ألخ ولكن اذا جازأن نأخذ عن أوربا الرياضية مثلا لحاجتنا الى ذلك ، فهل نسوغ لأنفسنا أن نتحلل من أوامر ديننا ، وصلتنا بربنا ، ونجرى وراء الغربيين فى التحلل الذى وقعوا فيه ؟

هناك فرق كبير بين ما ورثناه من ديننا وما ورثته أوربا من الرومان ؛ لقد ورثنا من ديننا أخلاقا قال صلى الله عليه وسلم انما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق .

والنظام الخلقى فى الإسلام نظام متكامل يحدد للانسان سلوكه الذى يتفق وانسانيته ، ويرضاه له ربه .

أما أوربا فقد خلفت الرومان وورثت عنهم أخلاقهم .

وقد جاء على المجتمع الرومانى وقت تحلل فيه من الأخلاق ، واندفع فى تيار من العرى والفواحش وجموح الشهوات .

فأصبحت المسارح مظاهر للخلاعة ، والتبرج الممقوت ، والعرى المشين .

وزينت البيوت بصور ورسوم كلها دعوة سافرة الى الفجور والدعارة والفحشاء .

ومن جراء هذا كله راجت مهنة المومسات والداعرات ، وانجذبت اليها نساء البيوتات .

وتمادى الأمر فى ذلك الى أن اضطر القوم الى وضع قانون خاص ... لمنع نساء البيوتات من احتراف مهنة المومسات ، وصناعتهن النافقة ، ونالت مسرحية فلورا حظوة عظيمة لدى الروم لكونها تحتوى على سباق النساء العاريات .

وكذلك انتشر استحمام الرجال والنساء فى مكان واحد بمرأى من الناس ومشهد .

أما سرد المقالات . الخليعة ، والقصص الماجنه العاريه . فكان عملا مرضيا مقبولا ، لايتحرج منه أحد ، بل الأدب الذى يتلقاه الناس بالقبول والرضى .

وهو الذى يعبر عنه الناس اليوم بالأدب المكشوف ، وهو الذى يتبين فيه أحوال الحب والعناق والتقبيل سافرة ، غير مقنعة بحجب من المجاز والكنايات(١) هذا هو حال الرومان من الناحية الأخلاقية .

وأما المدنية الغربية التى ورثت الرومان فيعبر عنها (لابريولا) أحد ساسة إيطاليا وعلمائها بقوله :ـ

إننا معاشر البيض من أهل الغرب قد اعتمدنا على ذ كائنا وما أوجدناه من آلات ، فأصبحنا بذلك أهل المغامرات والفتح والغنى والعلم ، وزدنا على ذلك أن غدونا أرباب الجرائم وفينا ظاهرات ثلاث هن حثالة مدنيتنا ورمزها فى آن واحد، المختلس ، والقاتل ، والمومس(٢) .

وننتهى إلى أن الدراسة المتأنية تحتم أنه لا يمكن أن نتخذ من الغرب أساتذة فيما يتعلق بالدراسات المتعلقة بالأخلاق والعقائد .

---

(١) كتاب الحجاب أبو الأعلى المردوى ترجمة محمد كاظم ص ٢٣ ـ ٢٤ .
(٢) عن كتاب الاسلام والحضارة العربية ٣٥٤ جـ ١

ومما تقدم تعلم أن هذا ليس حكما بدون سبب ، بل لأن أوربا لا يمكن أن تتنازل عن عقيدتها ثم لأن أخلاقياتها لا تتناسب مع أخلاقياتنا .

والأهم أن هؤلاء الذين جاءوا إلينا كأساتذة لا يتصفون بالنزاهة المطلوبة لأمرين :

أولا : الاحقاد التى ورثوها

ثانيا المهمة التى كانوا من أجلها وهى سياسية وتبشيرية قبل كل شىء .

كيف يمكن لأستاذ يأتى من اوربا وعقيدته ، نسبية الأخلاق ، أن يكون أستاذا لقوم مصدر أخلاقهم الوحى .

وكيف يمكن لأستاذ انجليزى مثلا تعلم العربية كلغة أجنبية عنه ، كيف يمكن لهذا الأستاذ أن يتعلم على يديه متخصصون فى العربية ؟

إذا كان أسلافنا قد ارتكبوا خطأ فاننا يجب علينا أن نراجع أنفسنا عندما نرسل أولادنا ليتخصصوا فى علوم خاصة بنا ولا يعرفها غيرنا .

هل يليق بنا ونحن مسلمون وعرب أن نرسل أولادنا إلى قوم من المسحيين اللاتين ليتخصصوا فى اللغة العربية والفلسفة الإسلامية بل فى علم الكلام والفقة والأصول .

ماذا ينتظر من أستاذ يقدس الرومان إذا أصبح يحاضر فى الفقه الإسلامى ؟

ولم يكتف الاعداء بمدارسهم التى ملأت بلادنا . ولا يأخذ أولادنا عندهم ، بل رأوا أنه لابد ـ لكى يتم لهم ما يريدون ـ أن يحاربوا دور العلم التى لازالت تربط الناس بدينهم ، والبلاد التى يمكن أن تكون أساس نهضة دينيه بغيرها ولنضرب لذلك مثلا بمصر والأزهر .

محاربة الأزهر

لم ينظر الأعداء إلى البلاد الإسلامية والمعاهد العلمية - من حيث الأهمية — نظرة واحدة بل نراهم يشعرون بأن بعض هذه البلاد والمعاهد تؤثر أكثر فى غيرها ، وأنه إذا أمكن التغلب عليها كان ذلك سبيلا إلى التغلب على غيرها .

وأهم البلاد الإسلامية فى نظر العدو هى مصر وأهم المعاهد هو الأزهر .

ويرى الأعداء أن قومهم يجب أن يحذروا مصر .

يقول (روجر لابون) محذرا قومه .

إن صور أبطال الإسلام مالئة أسواق مصر ، وبيوت فلاحى الأرياف .

فهذه حالة روحية قد تسرى إلى مستعمراتنا ، لاسيما تونس شمالا وممالك بحيرة تشاد جنوبا .

وإذا نالت مصر استقلالها صارت مركزا لتحرير الإسلام (١) .

هذه هى النظره إلى مصر وإذا كان « لابون » لم يوضح سبب نظرته هذه فإن غيره يوضحها .

والسبب أن القاهرة — كما يقول الدكتور (ج . كامبفماير) — مركز الإسلام العقلى بل مركزه الجغرافى أيضا (٢) .

وقد هيأ الله لمصر من الأسباب ما جعلها ملتقى المفكرين من كل ناحية . وحتى المندوب السامى الإنجليزى لم يستطع أن يشل هذه الحركة .

ونحن هنا نأخذ وصف القاهرة من رجل عاش فيها وعاصر الحركة العلمية بها وهو « جب » يقول .

---

(١) حاضر العالم صـ ٢٢٦ جـ ٢ .
(٢) وجهة الاسلام ص ٨٣ .

(وصارت القاهرة — ملتقى كل القوة النشيطة فى العالم الإسلامى ، وميدان التنازع للغلبة — تحت يد المندوب السامى المصرفة وعينه الساهرة ، التى لم تكن دائما تفهم حقيقة الامور .

وكان لمصر من الأزهر - وهو المعهد الوحيد للتمكن فى الدراسات الاسلامية العالية ، والذى يجتذب طلابه من جميع أصقاع العالم الإسلامى — لسان يعبر بقوة لا تبارى عن آراء أهل السنة .

وكان الفارون السياسيون من تركيا وغيرها من بلاد الإسلام يجدون فى مصر مأوى لهم ، ويلتمسون فيها الحرية . ويسعون لتحقيق غاياتهم .

وإن المجتهدين من كتاب سوريا ، وقد كممتهم الرقابة الشديدة فى بلادهم أتوا إلى مصر زرافات ، وزادوا الصحافة المصرية قوة حملت ثمارها وآراءها إلى الآفاق (١) .

وبذلك أصبحت مصر أمان الخائفين وملتقى المفكرين .

وفى وسط هذا الجو الفكرى يبرز دور الأزهر كصمام الأمان فى وسط هذا التيار العاصف ، إنه من ناحية يجمع الأفراد ، والوفود الاسلامية ، مفيضا عليهم من معين لا ينضب من العلوم الشرعية ، ومن ناحية أخرى كان هو الملجأ للشريعة فى وقت اتجهت معظم الأنظار إلى أوربا ونسيت دينها .

ورسوخ قدم مصر فى الفكر الإسلامى كان عونا لها فى انتصارها على الفكر الدخيل حيث جاء وقت كانت فيه حركة الاستغراب تجد لها كل يوم أنصارا وصارت بمرور الأيام تتسع وتثبت قواعدها .

وأصبحت مصر فكريا معرضة لخطر الاستغراب .

---

(١) نفسه ص ٤٥ — ٤٦ .

يقول الدكتور (ج كامبفماير » في هذا : فى كتاب وجهة الاسلام . -

« وكان المصريون أثناء العشرين سنة الماضية (قبل سنة ١٩٣١) عرضة لأن يفقدوا — بسبب اتصالهم بمدنية الغرب - ما لهم من شخصية ، ويقطعوا الصله بما لهم من ماض ودين وأخلاق ، ويسلموا أنفسهم لمساوىء تلك المدنية بدون أن يأخذوا ما فيها من محاسن .

والظاهر أنهم تغلبوا على هذا الخطر الذى كان يتهددهم » .

والاهتمام بامر مصر قديم فطالما حاول الأعداء القضاء على المصريين فنجد مارينو سانوتو المولود سنة ١٢٦٠ يضع كتابا سنة ١٣٠٦ .

يحث فيه كثيرا على حصر الديار المصرية ويعتقد أنها إذا حوصرت مدة ثلاث سنوات فلابد من الاستيلاء عليها .

ثم يقول : إنه إذا استولى المسيحيون على مصر فلا بد أن يستولوا على بيت المقدس(١) .

ونظرا لهذه الأهمية الخاصة بالأزهر ومصر نجدهم يضعون الخطط الخاصة بمحاربتهما .

وإليك ماجاء فى كتاب « وسائل لتبشير المسلمين بالنصرانية » يقول : —

إن أحد أعضاء المؤتمر أفاض فى وصف ما للجامع الأزهر القديم من النفوذ وإقبال الألوف عليه من الشبان المسلمين فى كل أقطار العالم .

وتساءل عن سر نفوذ هذا الجامع منذ الف سنه إلى الآن .

ثم قال : إن السنيين من المسلمين رسخ فى أذهانهم أن تعليم العربية فى الجامع الأزهر متقن ومتين أكثر منه فى غيره .

---

(١) حاضر العالم الاسلامى ص ٢٢٢ ج ٣

والمتخرجون فى الأزهر معروفون بسعة الاطلاع على علوم الدين .

وباب التعليم مفتوح فى الأزهر لكل مشايخ الدنيا خصوصا وأن أوقاف الأزهر الكثيرة تساعد على التعلم فيه مجانا لأنه فى استطاعته أن ينفق على ٢٥٠ أستاذا ـ كان ذلك قبل سنة ١٩٠٦ ـ

ثم تساءل عما إذا كان الأزهر يتهدد كنيسة المسيح بالخطر . وعرض اقتراحا يريد به إنشاء مدرسة نصرانية تقوم الكنيسة بنفقاتها .

وتكون مشتركة بين كل الكنائس المسيحية فى الدنيا على اختلاف مذاهبها لتتمكن من مزاحمة الأزهر بسهولة . وتتكفل هذه المدرسة الجامعة بأتقان تعليم اللغة العربية .

ثم قال :

إن فى الإمكان مباشرة هذا العمل فى دائرة صغيرة وهى أن يعنى أولا بتعليم المسلمين المتنصرين وتربيتهم تربية إسلامية ، ليتمكن هؤلاء من القيام بخدم جليلة فى تنصير المسلمين الآخرين وختم كلامه قائلا : ربما كانت العزة الإلهية قد دعتنا إلى اختيار مصر مركز عمل لنا لنسرع بأنشاء هذا المعهد المسيحى لتنصير الممالك الإسلامية .

وهكذا نجد أن محاربة الأزهر تدرس على أعلى مستوى .

كما نجد أسلوب الباطنية يبدو واضحا حيث ينصح بتربية المتنصرين المسلمين تربية إسلاميه ـ فى الظاهر طبعا ـ حتى يتمكنوا من تنصير غيرهم .

وبالطبع سيكون سلوكهم أنهم يتظاهرون بالإســـلام والتمسك به حتى يستدرجوا غيرهم .

هذا كان أمل العدو غير أن الواقع صار إلى غير ما أمل ، وكانت « مقاطعة

المسلمين للمتنصرين وعدم إصغائهم لهم(١)

أما بالنسبة لإنشاء المدارس التبشيرية فقد كانت خطة تدوس فى جميع مؤتمرات التبشير تقريبا .

وقد كان من قرارات مؤتمر لكنو بالهند سنة ١٩١١ ، مايلى : ـ

ويرى المؤتمر أنه من الضرورى العاجل تأسيس مدرسة فى مصر خاصة بالتبشير تكون عامة لكل الفرق البرتستانتيه(٢) .

يضاف إلى ذلك المدارس التى أنشأها المبشرون للتعليم فى مصر وكانت كثيرة وفى وقت صار فى مدارس المبشرين فى القطر المصرى ٣٠٠٠ طالب مسلم وخمس هؤلاء من البنات المسلمات(٣) .

ولكن الواقع أن طريق المبشرين كان صعباً ، فقد أقروا بأنه بالرغم ممايبذله المنشرون من الغيرة فى هذه البلاد الإسلامية لم تكلل أعمالهم بالنجاح ، حتى أنهم أوقفوا مدرسة التبشير فى القاهرة فى سنة ١٨٦٢ بعد أن تخرج فيها بعض المبشرين(٤) .

وعن مقاومة المصرين ـ خاصة الشباب ـ الأعمال التبشيرية يقول سكرتير مؤتمر التبشير المنعقد فى القاهرة سنة ١٩٠٦ .

أن الخطة العدائية التى اتبعها الشباب المسلمون المتعلمون اضطرت المبشرين فى القطر المصرى إلى محاولة إعادة ثقة الشباب المسلمين بهـم ، فصار هؤلاء المبشرون يلقون محاضرات فى موضوعات اجتماعية ، وخلقية ، وتاريخية ،

---

(١) الغارة على الاسلامي ص ٤٨

(٢) نفسه ١٢٨ ويراعى أن المؤتمر كان بالهند الا أنه لم ينسر مصر .

(٣) نفسه ٤٨ (٤) نفسه ١٤٠

لايستطردون فيها إلى مباحث الدين ، رغبة فى جلب قلوب المسلمين إليهم وانشأوا بعد ذلك فى القاهرة مجلة أسبوعية أسمها الشرق والغرب افتتحوا فيها بابا غير دينى يبحثون فيه الشئون الاجتماعية والتاريخية وأسسوا أيضا مكتبة لبيع الـكتب بأثمان قليلة ،والغرض من ذلك استجلاب الزبائن ومجادلتهم أثناء البيع(١)

وسيكرن الجدل بين بائع من المبشرين ، ومشترٍ من المسلمين البسطاء ، كعامة الشعب فى ذلك الوقت .

وان جدلا كهذا – لاشك معروف النتيجة ، اذ لن يكون فى امكان المشترى كشف جهله .

وسيرجع هذا المشترى –على الأقل – أقل ثقة فى دينه عما كان عليه قبل أن يذهب إلى بائع الـكتب هذا .

وسيظهر لنا فى الصفحات التالية كيف جند القوم أنفسهم لمهمة التبشير هذه ، بحيث يمكن القول بأن جميع طوائفهم انقلبوا مبشرين .

---

(١) نفسه ص ٣٢ .

محاولة تنصير المسلمين

الأمنية الأولى للعدو أن يتحول المسلم الى نصرانى ، وأعداء الاسلام لايخفون هذا ولا يقولونه سرا .

إن المتتبع لما يكتبون يجد هذا الطابع لهم جميعا والشواهد على ذلك كثيرة سواء من الحكومات أم من الأفراد .

فى مؤتمر المستشرقين الذى انعقد فى ليدن (هولندا) سنة ١٩٣١ قال ناظر المعارف الذى افتتح هذا المؤتمر :

ان هولندا لا تذهب الى الشرق لأجل التجارة ، بل لنشر حسنات الدين المسيحى .

وحوالى سنة ١٩٢٩ تشكلت فى بلجيكا وزارة أعلنت من جملة بروجرامها : العمل لتنصير أهالى مستعمرة الكونغو .

ووجد الغرب أن الفرصة سانحة بضياع استقلال الدول الاسلامية وخضوعها للغرب .

وقد صرح المهتمون بالتبشير - كما يقول روجر لابون - أنه يجب انتهاز هذه الفرصة ، وأنها لو ضاعت فلن تعود ، وأن مما يساعد على التبشير مع الاستعمار أن الشباب الذى كان متمسكا بالدين فى الماضى بدأ - كما حصل للشباب الذين جندوا فى الجيوش الأجنبية - يشرب الخمر ويترك الصلاة ولا يصوم رمضان

كل هذا مع ثورة فكرية يقربه من الغرب . ويبعده عن الاسلام وأحكامه وقد ، صار بعض الشبان (من المسلمين) يغشون محلات العبادة عند النصارى سواء فى سان لويس أو فى دافار ، ويشتركون فى الأناشيد الروحية ، مما يدل على عقلية لم تكن من قبل . ثم يقول

. فعلى المبشرين أن يستغلوا هذه الحالة الجديدة بتوجيهها إلى جهة المسيح .

وقد آن لنا أن نستفيد عبراً من الماضى[١] .

وفى نفس الاتجاه يتجه زويمر حين يقول :

يجب أن نعلم أن هذه الفرصة اذا ضاعت فلن تعود أبدا .

فينبغى أن تكون هزيمة الاسلام فى الحرب العامة انتصاراً للكنيسة المسيحية[٢] .

ثم بعد ذلك يرسم لقومه الطريق الذى يجب أن يسلكوه مع الاسلام وأن : عليهم أن يسلكوا طريق الملاطفة مع المسلمين ، وألا يظهروا بمظهر الشماتة، وأن يظهروا الحزن على ما أصاب الاسلام وفى أثناء ذلك يجب سوق الحملة ضد الاسلام بحكمة وشجاعة ونترك يعبر عن ذلك بأسلوبه فيقول :

إن الإسلام قد تلاشت قوته ؛ وانهارت دعائمه ، وسقطت مكانته الأولى ومشت سكة الأجنبي فى حقلة ، فلا تناسب زيادة قهره .

والظهور بمظهر الشماتة به لئلا يحرك ذلك من عصبية أهله ، ويثير من نخوتهم ويؤجج من نيران أحقادهم ، فينهضوا ويشوزوا للمقاومة .

بل يلزمنا أن نأخذهم بالوداعة والملاطفة ، وبذرف الدموع ، لأجل أن نستل سخائم صدورهم ، ونتمكن من حرث ذلك الحقل الذى صار مباحا أمامنا على أنه لايؤخذ من ذلك أنه يجب سلوك مسلك الضعف مع الإسلام والعدول إلى التهيب ، إذ لايعقل أنه إذا دعى الإنسان إلى بيت لم يبق له أبواب ولا توافذ

---

(١) حاضر العالم الاسلامى :

(٢) عن كتاب حاضر العالم الاسلامى ص ٢٨١ س ١ .

أن يضيع وقته فى احتشام أصحاب ذلك البيت ومعاملتهم برقة الأدب والكياسة .

إنه يجب سوق الجملة بحكمة ومهاره ولكن يتحتم سوقها بشدة . . ويجب أن الكنيسة تبنى جميع قواها من المشرق إلى المغرب ومن الشمال إلى الجنوب تحت رايه مؤسسها ، وتشن هذه الغارة على الإسلام إلى أن تصل إلى غايتها(١).

وإذا كنا نجد فى هذا النص مايدلنا على طرق الأعداء فى الهجوم على الإسلام فإننا الآن نبين ماسار فيه الأعداء تنفيذا لهذه الخطة .

أولا : حاولوا استعمال القوة لحمل الناس على التنصر ، وساروا فى ذلك شوطا بعيدا ولكن هذا أثار الخواطر وخافت الحكومات من اندلاع الثورة وهنا تراجعت بعض الحكومات كما يقول «بونه مورى» فى كتابه «الاسلام والنصرانية فى أفريقيا» .

يقول : وكانت الدول المسيحية بادىء ذى بدء أرادت حمل الزنوج على التنصر بنفوذ الحكومات وسارت زمانا على هذه الخطه .

ولكن دول انجلترا وهولندا والدانمارك رفضت فى التالى هذه الطريقة خشية حدوث الثورات فى مستعمراتها ، وتركت إيتاء مهمة التنصير للجمعيات غير الرسمية(٢).

إنهم وجدوا أن استعمال القوة أثار النخوة وأجج نيران الحقد وهنا انتقلوا إلى طريقة الملاطفة والملاينة .

فالسبب إذا فى عدم استعمال القوة ليس هو إيمانهم بحرية الأديان بل هو الخوف

إن الاعتداء على الإسلام لن يجعل المسلمين يتخلون عن دينهم سواء كان الاعتداء بالقول أم بالفعل، وقد نصح الدكتور (ج . كامبفماير)قومه حين قال :

---

(١) عن كتاب حاضر العالم الاسلامى ص ١٨١ ج ١ .
(٢) عن كتاب حاضر العالم الاسلامى ص ١٨١ ج ٣

أقول ـ مع التأكيد ـ: إن أحدا من المسلمين لايعارض فى بيان محاسن الدين المسيحى ، وفى إظهار الحياة والأعمال المسيحية الصحيحة ، وربما كان هذا مؤديا إلى نتائج نافعة .

أما الاعتداء على الإسلام فلا ترجى منه فائدة ثم يقول :

وأقرر ـ مع الأسف ـ أن مثل هذا الاعتداء حدث فى جهات كثيرة ، وفى المسلمين اليوم من يقرءون كل مايكتب ، ويسمعون كل ما يقال بأى لغة ، ولن يردهم الاعتداء عن دينهم ولن يعوق النهضة الإصلاحية بل سيقويها .

ثم يقول : هذا الاعتداء ليس من شأنه إلا تكدير الجو ، وخلق المتاعب فى العلاقات الودية بين المسلمين والمسيحيين فى الشرق ، وتوسيع الهوة بين الشرق والغرب ،مما يتعارض مع مصلحة المبشرين ، ومع مانرغب فيه من إقرار العلاقات بين الشرق والغرب اقرارا شاملا(١).

إيمان كامل من الغرب ـ وبعد التجربه ـ أن الاعتداء على الإسلام لن يرد المسلمين عن دينهم .

ثانيا: محاولة إيجاد حاجز بين الشعوب وبين التعليم حتى تبقى الشعوب ملازمه للجهل ويسهل استغلالها فكريا واقتصاديا .

ونسمع هنا رأى غربى متعصب للغرب هو « بروكلمان » فى كتابه تاريخ الشعوب الإسلامية ، إنه يوافق على رأى الإنجليز فى غرضهم من استعمار مصر و « أنهم لايهدفون إلى المحافظة على مصالح الامبراطورية فى تلك البلاد فحسب ، بل إلى رفع مستوى المصريين من الوجهتين المادية والفكرية أيضا .

ثم يستشهد ببعض المصريين دون ذكر اسمهم فيقول :

فالحق أن مصر ـ على ما اعترف بعض الوطنيين المصريين الحصفاء ـ مدينة للإدارة البريطانية إلى حد بعيد جدا .

هذا هورأيه. ورأى بعض المصريين الذى وصفهم بالحصفاء .

---

(١) وجهه الإسلام ص

ولكنه بعد ورقة واحدة يتناقض ، فيبين استغلال الأجانب للمصريين ، ثم يبين سياسة كرومر التعليمية ، فيقول : « ولكن أبرز ماتلام عليه إدارة كرومر لوما كبيرا أنها لم ترصد غير اعتمادات هزيلة جدا لتعليم الشعب ، فى حين خصصت أموالا ضخمة للإنشاءات التى تنطوى على خدمة المصالح البريطانية أيضا ، فمن سنة ١٨٨٣ إلى سنة ١٩٠٢ مثلا لم تبلغ اعتمادات التعليم الشعبى نصف نفقات خزان اسوان إلا بعد جهد » .

وهنا نسأل أين النعمة التى أصابت المصريين من الانجليز ؟ وإذا كانوا قد اهتموا بخزان أسوان فذلك ليس لصالح المصريين بل لسد حاجة المستعمرين من القطن والقمح .

وإذا شجعوا نوعا من التعليم فإنما هو التعليم الذى يخدم أغراضهم ؛ كما تقدم فى الكلام على المدارس وكما سيأتى فى التبشير .

فالجهل حاجز بين الشعوب وبين العلم ؛ والتعليم على طريقتهم حاجز بين الشعوب وبين الحقيقة ، والأخذ بيد هذه الشعوب نحو مايريد الأعداء أعداء الدين .

محاربة الشريعة

عمل العدو على إبعاد المسلمين عن أحكام دينهم حتى يألفوا الخروج على الدين لقد جعلوا هذا هدفا من أهدافهم ، وصرحوا به ؛ ففى مؤتمر المستشرقين الذى عقد فى ليدن (هولندا) قال المستشرق «هور غرونيه» إن سن القوانين من الشريعة الاسلامية غير موافق ، لأنه ينبغى لنا أن نفهم المسلم أنه لايقدر أن يعيش معيشة عصرية راقية ، وهو متمسك بشريعته .* وأنه يجب أن يعلم أن شريعة الاسلام لاتتسع لقبول المدنية الحاضرة(١)

تشكيك المسلم فى شريعته ، وذلك لايكون بدون حجة، والحجة هنا هى المدنية ، وأن الحكم بالشريعة تأخر ، ورجعية وللأسف هذا ماصرنا نسمعه من مسلمين .

والاحتجاج بأن الشريعة الإسلامية أصبحت غير صالحة للمدنية هو منع الحكم الشرعى بالحسنى ، فإن تمسك المسلمون بشريعتهم فلابد من منعهم من تحكيم الشريعة بالقوة .

يقول الكمندان (مارتى) :

كل تدخل من قبل الفقيه ، وكل ظاهرة إسلامية يجب منعها بصرامه تامه فنحن نبتعد من تلقائنا عن كل مرحلة تكون مرحلة إسلامية ، أى مرحلة تبلور .

ان الآراء هنا وفى كل مكان متفقة على هذه النقطة(٢).

ويقول موريس لوجلان :

« يجب أن نعلم البربر كل شىء ماعدا الإسلام » . ويقول « روجر لابون » موضحا السبب فى محاربتهم للشريعة الإسلامية : واذا أيدنا فى مستعمراتنا ادارتنا الملكية وجعلناها فوق الشريعة الإسلامية كان ذلك خطوة أولى فى منع انتشار

---

(١) حاضر العالم الإسلامى ص ٢٧٣ ج ١ .
(٢) دفاع عن الشريعة ص ١٦ — ٦٤

الإسلام بين الأقوام التى لم ترسخ أقدامة بينهم (١).

هذا ما أعلنته السلطات الفرنسية لأبعاد الشعب عن الحكم بشريعته الإسلامية واذا حاول بعض البربر المطالبه بإبقاء قضاتهم الشرعيين . يكون نصيبهم السجن لأنهم — فى نظر الحكومة الفرنسية — خارجون على الطاعة .

ان العدو درس الإسلام وأمكن له أن يعرف كل شىء ، ووصل الى أن هناك ناحية فى الإسلام لا داعى للاسراع بالتعرض لها ، وهناك ناحية لا يجوز التأخر فى مقاومتها .

أما الناحية التى رأى عدم لتسرع فى (معارضتها — أى بالقوة —) فهى العقيدة وبعض أنواع العبادات كالصلاة ؛ لأن منع مسلم من تأدية لصلاته ربما تكون سببا فى ايجاد حالة عصبية ولأن محاربة العقيدة يمكن أن تتم بالتدريج ، واذا بقيت العقيدة بدون عمل فأنها ستصبح رقيقة لاتقوى عل البقاء أما الأحكام الشرعية فى المعاملات والعقوبات فان جميع الدول الاستعمارية . قد اتفقت على محاربتها بدون استثناء ، إما بمنع التعامل بها ، أو بحصرها فى الأحوال الشخصية وقد ترتب على منع العمل بالأحكام الشرعية فى المعاملات والعقوبات أن أصبح المسلم يرى نفسه خاضعا لقانون مدنى لايعرف له صلة بدينه ، وهنا نجد الدين لم يعد هو العامل الأساسى فى الروابط الاجتماعية ، وبذلك انفصل الدين عن الحياة الاجتماعية .

زد على هذا أن عدم التعامل بالأحكام الشرعية فى المعاملات والعقوبات قد أصاب الفقه بالجمود وتوقف عن النمو فى هاتين الناحيتين وما يتصل بها ؛ لأنه لو كان العمل بالشريعة مستمرا فإن الفقهاء كانوا سيجدون لهم دافعا على العمل والتجديد والابتكار ، أما وقد توقف العمل بالشريعة فان الدافع على الدراسة لم يعد موجودا .

---

(١) من كتاب حاضر الإسلامى ص

ويرى الأعداء أن كل مهاجم للحكم الشرعى هو علامات مشجعه لنجاح خطتهم؛ كما كانوا يرون علامات البؤس فى هؤلاء الذين يدعون للحكم بالشريعة .

يقول فيليب وايرلند :

ومن أهم القرائن المشجعه فى الإسلام هو تزايد عدم الرضى عن ناحية الحكم الدينى منه التى تؤلف بين الدين والقانون والحكومة والنظم الاجتماعية .

وفريق كبير من المفكرين المسلمين يرى فصل الدين عن الدولة ضروريا .وكتاب على عبد الرازق - فى أوائل القرن العشرين الذى قرر أن نظام الخلافة لم يكن جزءا ضروريا فى أصول الحكم — أخذ يعطى ثمرة الآن .

ثم أن المثل الذى ضربته تركيا يراه الجميع .

والتغيير الاجتماعى والسياسى الذى أجرته تركيا لايبشر بقيام ديموقراطية فحسب ؛ بل روح الديموقراطية أيضا(١).

ثم يرى وجود المتمسكين بدينهم وبصلاحيته للحكم علامة تشاؤم فيقول :

ويقابل هذه الظاهـرة المبشرة بالخير وجود نواة صلبة من المسلمين الذين يعتقدون أن خلاص الإسلام هو فى المحافظة على حالته الحاضرة .

ولـكن قبول النواحى الفلسفية مع الديموقراطية يعين على تحطيم هذه النواة الصلبة كما يؤدى إلى نفس الاتجاهات فى بعض البلدان التى يشيع فيها التعصب الدينى بين الجماهير لـكونه وسيلة لاستمرار قناعتهم بحظهم فى هذه الحياة من الناحية السياسية والاقتصادية(٢).

إنهم يرون أن المجموعة المتمسكة بدينها ستنهار بتعرضها للدراسات الأجنبية .

---

(١) الإسلام فى نظر الغرب ص ١٤٥ — ١٤٦

(٢) سيكون الاعتماد هنا على ما كتبه علال الفاسى لا أنه أعرف بما حصل .

وفى هذه المناسبة أتمنى لهؤلاء الذين لا زالوا يهاجمون كل من وقف أمام دعوة على عبد الرازق ويصفونهم بالجمود والرجعية وبأحياء سلطة رجال الدين فى العصور الوسطى ، أتمنى لهؤلاء أن يدرسوا مثل هذه الكتب ، وهل كان أمثال على عبد الرازق إلا أعوانا لأعداء الإسلام ومنفذين لآرائهم .

رحم الله علماءنا الذين تعرضوا لكل ما تعرضوا لا حبا فى دنيا ، ولكن دفاعا عن دينهم .

ولكون إلغاء الشريعة بهـذه الأهمية فى نظر الأعداء نراهم يعلنون الحرب عليها بلا هوادة .

والآن إلى بعض هذه المحاولات المحمومة لإلغاء الشريعة الإسلامية .

وسنأخذ بعض الشواهد من المحاولات التى جربت فى عدة مناطق من العالم الإسلامى .

ونبدأ بما حصل فى المغرب الإسلامى وكيف حاول الفرنسيون القضاء على الشريعة الإسلامية وإحلال البربرية مكانها يقول علال الفاسى(١) .

وأخطر المحاولات التى سلكتها الحماية للقضاء على محا كمنـا الإسلامية هى السياسة البربرية، فقد عملت هذه السياسة مستطاعتها على محـو الشريعة الإسلامية واللغة العربية من القبائل الجبلية . وإحلال الأعراف المحلية مكانها .

ومن المعلوم أن هذه الأعراف بدائيـة ، ولم تكن صالحة للبقاء ، ولكنها صالحة لقطع المرحلة التى يفصل فيها قسم من المغرب عن العربية وعن الأحكام الشرعية .

ومتى تعود سكان هذه النواحى على الحكم بغير ما أنزل الله واستعمالى اللغة

---

(١) سيكون الاعتماد هنا على ما كتبه علال الفاسى لأنه أعرف بما حصل .

الأجنبية إلى جانب اللهجات البربرية ، لا تبقى هناك صعوبة فى إدخال القوانين الأجنبية ،وتوسيع دائرة اختصاص المحاكم المؤسسة للأجانب لعم هذه المناطق فلا يتبقى إلا بعض أهل المدن سرعان مايوردهم إلى نفس المحكمة تطورهم الفكرى عن طريق الاستعمار الثقافى الذى لا تألوا سلطات الحماية فيه جهداً(١) .

ثم ينتقل علال الفاسى إلى تفصيل خطوات محاولة القضاء على الشريعة فيقول: كانت الشريعة الإسلامية هى المرجع الذى تؤول إليه كل القضايا والقاضى الشرعى هو الذى يتولى الحكم فى المسائل المدنية والجنائية وفى نظام الأسرة كذلك .

ولكن الحماية الفرنسية بمجرد انتصابها حدت من اختصاصات المحاكم الشرعية وقوت محاكم الاخبار اليهودية ، وأسست المحاكم العرفية فى القبائل البربرية وهكذا أصبح القضاء موزعا .

ولكن المحاكم التى كانت تطبق قوانين منظمه هى المحاكم الخاصة بالأجانب .

أما المغاربة فأنهم يخضعون للعرف فى القبائل البربرية،وللقانون المغربى حينما يرفعون للمحاكم الفرنسية، وللشريعة الإسلامية غير المقننه فى محاكم القضاء هذا فى جنوب المغرب.أما فى الشمال فقد احتفظت المحاكم الشرعية باختصاصاتها فيما يرجع للجنايات والجنح والشئون المدنية والأحوال الشخصية .

وأسست محاكم أسبانية مغربية للأجانب ، وللقضايا التى فيها أجانب .

فالأمة المغربية فى الحقيقة لم تكن بدون قانون ؛ ولكن الشريعة الإسلامية التى هى قانونها المرضى أصبحت معطلة وملقاة، لأن الاستعمار جعل من تسرب القانون الأجنبي سبيلا للقضاء على الكيان العرب وعلى الفكر الإسلامى فى

---

(١) دفاع عن الشريعة ص ١٧ ـ ١٩ ويظهر فى الجزء الأخير من النص أن العدو يرى أن مداومة الغزو الفكرى كفيل بأن يقضى على المقاومة ضد الثقافة الأجنبية كما أنه كفيل بأن يقضى ـ فكرياً ـ على الوافقين عن الشريعة ويحولهم إلى موافقين على الدخيل .

المغرب(١) ثم يقول فى لجوء الحكومة الفرنسية إلى استصدار الظهائر البربرية كوسيلة لإلغاء العمل بالشريعة الإسلامية خاصة بين البربر يقول :

وهذه السياسة التى أطلقت عليها فرنسا اسم السياسة البربرية وشذتها منذ سنة ١٨٥١ فى الجزائر حيث أخرجت القبائل عن أحكام الشريعة الإسلامية زاعمة أن البربر الجزائريين هم الذين طلبوا بعث أعرافهم وتكوين أنظمة قضائية تقوم مقام القضاء الإسلامى، وفى ٢٩ أغسطس ١٨٧٤ ألغت فرنسا تلك الجماعات العرفية التى أسستها وضمت القبائل البربرية إلى اختصاص قضاة المصالح الفرنسية الذين يطبقون عليهم القوانين الفرنسية فيما عدا الاستثناءات المعروفة بقانون الأندية .

وفيما عدا الأحوال الشخصية فقد أبقتها على مقتضى العـــرف ولكن قاضى الصلح الفرنسى هو الذى يطبقه .

وفى ١٠ سبتمبر سنة ١٨٨٦ ضمت فرنسا اختصاصات المحاكم الشرعية فى القطر الجزائرى كله إلى دائرة قاضى الصلح الفرنسى .

وهكذا جعلت فرنسا من سياسة الرجوع إلى الأعراف الجاهلية قنطرة لضم الجزائر إلى المحاكم الفرنسية وتطبيق قوانينها بعد إلغاء القانون الشرعى الإسلامى.

وبمجرد ما تم بسط الحماية الفرنسية على المغرب استصدرت الإقامة الفرنسية ظهير ١٩١٤ فى عنفوان الحرب العظمى الذى يقضى باحترام العوائد البربرية .

وتظهر أهمية هذا الظهير بالنسبة لإلغاء المحاكم الشرعية من التعليق الذى كتبه المسيو « ريبو » قال : أن لظهير ١١ سبتمبر سنة ١٩١٤ أهمية عظمى لأنه مستخرج من السلطات نفسه وقد أقر مبدأ عدم إسلام البربر وهو نجاح عظيم لأن السلاطين السابقين كانوا يفرضون تطبيق الشريعة الاسلامية فى سائر المملكة .

فظهير ١١ سبتمبر فى نظر الفرنسيين سبيل إلى اخراج القبائل البربرية من

---

(١) نفسه ص ١٢٧ ـ ١٢١.

الإسلام،لأن الفرنسيين متيقنون أن قبول التحاكم لغير الشريعة الاسلامية تخل نهائى عن الاسلام . . . . وفى سبيل ذلك استصدرت الحماية عدة ظهائر وقرارات. . . . . . وقد توج ذلك كله بظهير ١٦ مايو سنة ١٩٣٠ (١).

ولقد اعتبر الشعب ترك الشريعة إلى العرف البربرى ارتداداً عن الاسلام ، ولذلك أخذ يعلن إسلامه وتوبته ويطلب اللطف من الله العلى القدير ، وأن يحفظ له الوحدة الدينية التى يهددها إحداث محاكم لا تطبق أحكام الشرع الاسلامى(٢) .

هذه بعض المحاولات التى تمت فى المغرب الإسلامى لتعطيل أحكام الشريعة ولا يقتصر ذلك على المغرب بل نراه فى أماكن أخرى

ففى النيجر وزع المسيو « بريفيه » الحاكم من قبل فرنسا منشورا جاء فيه عن عادات الزنوج وتقاليدهم الموروثة ما يأتى :

« إنه يوجد من ذلك قواعد قضائية كافية لأجل حل المشكلات الاجتماعية ، وفصل الخصومات الفردية ، وهى من وجوه كثيرة لا تقل متانة عن الشرع الإسلامى .

ثم قال . وانه يجب علينا أن نجمع تلك الهيئة الاجتماعية التى توشك أن تنحل والتى هى متفرقة أشتاتاً حول تلك الأصول القديمة(٣) »

هل يصدق باحث علمى فى فرنسا أن الزنوج غير المسلمين « البومبارة » والذين يعبدون الحيوان والأشجار أن هؤلاء الزنوج الوثنيين عندهم ما فى الاسلام من قوانين

إن الأمر — كما تقدم — يتلخص فى الحقد على الاسلام ومحاولة خنقه .

---

(١) نفسه ص ١٥٩ — ١٦١ (٢) نفسه ص ٣٢.

(٣) حاضر العالم الإسلامى ص ٣٥٣ جـ ٢ (٨) حاضر العالم الإسلامى ص ٥٢ جـ ٤ .

وقد كانت النتيجة أن الشريعة الاسلامية ألغى العمل بها فى معظم البلاد الاسلامية فقد كانت النتيجة فى مصر مثلا أن صار قانونها مأخوذاً من القانون الفرنسى فى جملة وبقيت زاوية ضيقة للشريعة الاسلامية هى زاوية الأحوال الشخصية وحتى فى هذه الزاوية لا زال تلاميذ الغـــرب يحاولون زحزحة الشريعة عنها .

لقـــد كان إبعادا لمسلمين عن العمل بالقانون الإسلامى ابعـاداً لهم عن حقيقة دينهم .

تعقيب

لقد حاول العدو إبعاد المسلمين عن شريعتهم، وترك لهم العقيدة بها جمها أحياناً ويسكت حيناً .

وظن المسلمون أنهم مسلمون ما داموا ينطقون الشهادة وهذا وهم باطل .

إن الوحى الذى نزل على محمد صلى الله عليه وسلم ولا زال محفوظاً فى القرآن الكريم : هذا الوحى هو الإسلام ، إيمان وعمل . ايمان بالله واليوم الآخر ، وعمل صالح حسب ما يقتضيه هذا الإيمان من تعاليم .

فالإسلام دين، وهذا الدين يسيطر على المسلم فى عقيدته وفى علاقته بربه بما يطلق عليه العبادات ، وفى علاقته بأخيه الانسان بما يطلق عليه المعاملات، والحاكم المسلم هو الذى ينفذ أحكام الشريعة لا كسيد ، ولكن كخادم للدين ، فالحاكم فرد من أفراد الأمه ولا يكون الفرد مسلماً إلا اذا كان سائرا على أحكام دينه ، فإذا ما أصبح هذا الفرد حاكما لأمة فكيف ينفصل عنها عملياً مع المحافظة على دينه ؟

قال تعالى . وما أرسلنا من رسول الا ليطاع بإذن الله .

وقال « وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا » .

والطاعة لا تكون طاعة الا اذا كانت كاملة .

اذا كان هناك مواطن يسير على قانون الدولة كله ما عدا جزئية كأن يختلس مثلا نحكم على هذا المواطن بأنه غير شريف ، لماذا لا يكون كذلك فيما يتصل بالاسلام؟

على المسلم أن يعتز بدينه علناً ويسير رافعاً رأسه منادياً بشريعته يفخر بالانتساب اليها والاحتماء بحماها .

وهنا — وعندما يعتز بدينه — سيجد نفسه مدفوعاً لإحياء دينه فيكون بين المبشر وبين خلع المسلم عن دينه مسافة لا يمكن تخطيها .

أما اذا أهمل فى شريعته فإن العدو لن يكتفى بهذا بل سينتقل الى العبادات يهاجمها وهذا ما حصل فإننا نجد العدو بعد أن بين أن الشريعة لا تصلح لهذا العصر، قال ذلك أيضاً بالنسبه للعبادات واليك ما قال.

يقول « بايرد دودج » ليس شىء أجمل فى المجتمع نصف اليدوى لعهد النبى محمد من أن ينزل الجمالون عن جمالهم ويؤدون الصلاة مجتمعين .

أما اليوم فكيف يستطع صراف أو سائق سيارة الأجرة أو شرطى تنظيم المرور أن يؤدى الصلوات الخمس فى القاهرة أو فى استانبول .

والمشكلة نفسها تبدو فى رمضان .

فليس من العسير أن تصوم من شروق الشمس إلى غروبها فى الصحراء، إن استطعت أن ترجى سفرك أو عملك إلى الليل البارد، ولكن إذا كنت مثلا سائق عربة الترام فى أحد أيام شهر آب الحارقى مدينة كالقاهرة، فكيف يمكنك أن تصبر على الظمأ والجوع من شروق الشمس إلى غروبها وتنهض بأعباء عملك فى الوقت نفسه ؟

ألم نقل إن العدو لن يقف عند حد .

إنه يدعو إلى ترك الشريعة لأنهـــا ليست متطورة كما يظن أو كما يوهمنا ويطلب منا أن نصدقه .

وهو هنا ينتقل إلى العبادة مشفقا على المسلم من صعوبتها .

وهو هنا مضلل

فبالنسبة للصلاة كان عليه أن يسأل اثنين خرجا من عملهما مجهدين وأرادا أن يأخذا فترة من الراحة يعودان بعدها لعملهمـــا أما أحدهما فاتجه إلى مصلاه وتوضأ وأدى فرضه وأما الآخر فلم يؤد الصلاة ورجعا إلى عملهما .

أيهما نال من الراحة حظاً أوفر

ووقت الصلاة ممتد ما بين الوقتين ما عدا الصبح فإنه ما بين الفجر وطلوع الشمس .

وشرطى المرور ليس فى عمل يحول بينه وبين الصلاة ما دام يريد تأديتها ، إن الجيش الإسلامى أدى الصلاة فى الميدان بل وأثناء المعركة وتفصيل ذلك معروف فى الفقه الذى وضع لكل ظرف ما يناسبه فهل شرطى المرور أكثر شغلا من الجندى فى المعركة ؟

وأما بالنسبة للصوم فإنه يبدأ من الفجر لا من شروق الشمس وقد أحل الإسلام للبعض أن يفطر كالمريض والمسافر(١) .

وأما من ذكرهم فان البحث العلمى كان يقتضى أن يقابل واحداً منهم متمسكا بدينه ويعرف أى نعمة يعيش فيها .

ولكن القوم يحثون الخطى نحو هدفهم وهو الحيلولة بين المسلم وبين دينه .

---

(١) الاسلام فى نظر الغرب ص ٢٣ — ٢٤ .

التبشير

إذا استثنينا الدعوة لاستعمال القوة لتنصير المسلمين يمكن القول بأن الطرق التي مرت بنا حتى الآن كانت دعوة للنصرانية بطريق غير مباشر، ثم تمهيداً وإعداداً للجو الذي يعمل فيه المبشرون.

أما التبشير فهو الدعوة السافرة للمسلم كي يترك دينه، ويعتنق النصرانية، ويمكن القول بأن جميع النصارى قد اشتركوا في التبشير، بطريق مباشر أو غير مباشر.

والذي يهمنا الآن هو معرفة بعض الطوائف التي اشتركت في التبشير بالفعل أو عاونت على التبشير.

وهذه الطوائف هي: الأغنياء والساسة، ثم رجال الدين ثم الأطباء ثم المرأة ثم الشباب وإليك البيان.

الأغنياء والسياسيون :

(أ) لم يبخل الأغنياء النصارى بأموالهم، بل بذلوا بسخاء للمبشرين، وكثيراً ما كان هؤلاء الأغنياء يحضرون المؤتمرات التي تقام لتوجيه أعمال التبشير، ولا ينتظرون من يطلب منهم، بل هم الذين يعرضون الأموال.

ونضرب لذلك مثلا بحادثة حصلت إبان انعقاد المؤتمر التبشيري المختلط في (روشستر) [بأمريكا ، اذا انبرى المستر (الفريد مير لنغ) الصيرفي والمثرى الشهير في نيويورك وتقدم الى الحاضرين قائلا أن لدى أمراً أريد أن أبسطه عليكم، وهو أننا أصدقاء قديمون اجتمعنا ورأينا أننا كنا في ضلالة؛ لأن السعي الوحيد وراء اقتناء الأصفر الرنان لا يأتي بفائدة أدبية، ولذلك يجب أن نعمل مجهوداتنا للتأثير على رجال الكنيسة، وعلى الأغنياء الذين يتمتع كل منهم بشيء من ثروة البلاد التي تربو على ١٠٧ مليارات ريثما يستعملون ثروتهم لأغراض

سامية نبيلة ، لأن العالم كلـــه فى حاجة شديدة ليسوع المسيح .

ولذا فإننا نقول للقائمين بأعمال لجان التبشير : سندر عليكم أموالنا بمزيد الدقة، فهل لكم أن تنضموا إلينا وأنتم فى شرخ الشباب ؟ ضحوا[1] حياتكم نظير ما نبذله لكم من الأموال لأننا نحن الآن فى سن الشيخوخة ، وأصبحت أيامنا معدودة ، هل لكم أن تقضوا حياتكم على خدمة يسوع المسيح ؟ نحن نريد جمعية تبشيرية لا يعطلها عن أعمالها غير الموت . ولنبرم اذن هذا العقد بيننا .

ثم اجتمع متمولو أمريكا وأغنياؤها لأول مرة سنة ١٩٠٦ فقرر هؤلاء المتمولون تأليف لجنة منهم للمذاكرة مع رؤساء كل إرساليات التبشير الأمريكية فى الأمور الآتيـــة :

١ — بذل المجهودات لأجل تربية المشرين العلمانيين .

٢ — البحث وأعمال الفكرة لرسم خطة تنصير العالم قاطبة فى مدة ٢٥ سنة .

٣ — تشكيل لجنة هامة مؤلفة من ٦٠ عضواً أو أكثر بأقرب ما يمكن لكى تتعهد وتزور مراكز ارساليات التبشير وتعمل التقارير عنها .

وقد كان من نتيجة هذا الاجـــتماع الذى أقامه المتمولون الأمريكيون رواج فكرة التبشير وتأسيس لجان لهذا الغرض فى كل أرجاء الولايات المتحدة .

وانضم الى أصحاب الأموال

السياسيون

وهنا كانت المنفعة متبادلة فالمبشرون يحتاجون الى معاونة الساسة لهم لأن هؤلاء يملكون المال والسلطان . والساسة مسيحيون يهمهم نجاح المبشرين فى رسالتهم ويعبر عن وجهة نظر الساسة اللورد « بلفور » رئيس شرف اللجنة السابعة من مؤتمر « أدنبرج » التبشيرى المنعقد سنة ١٩١٠ قال اللورد « بلفور » عن المبشرين والساسة :

إن المبشرين هم ساعد لكل الحكومات فى أمور هامة .

ولولا هم لتعـــذر عليها أن تقاوم كثيراً من العقبات . وعلى هذا فنحن فى حاجة الى محبة دائمة يناط بها التوسط والعمل لما فيه مصلحة المبشرين .

---

(١) نفسه ص ١٥١ — ١٥٢ .

« فأجيب اللورد الى اقتراحه ، وتألفت لجنة مختلطة ولجنة لمواصلة العمل[1] ، وسيكون من عمل الساسه مقاومة الإسلام وفتح الطريق أمام المبشرين .

وهذا ماجاء فى قرارات المؤتمر الاستعمارى الألمانى .

فقد أجمع على ضم المقاصد السياسية والاقتصادية الى الاعمال الاخلاقية والدينية فى سياسة الاستعمار الألمانى .

ومما يدعو إلى الدهشة أنه فى فقرة واحدة يقول بالحياد الدينى ، ومقاومة الإسلام ، ومساعدة التبشير ، ولا ندرى أى حياد هذا ؟

يقول القرار :

إن ارتقاء الإسلام يتهدد نمو مستعمراتنا بخطر عظيم .

ولذلك فان المؤتمر الاستعمارى ينصح الحكومة بزياده الإشراف والمراقبة على أدوار هذه الحركة .

والمؤتمر الاستعمارى — مع اعترافه بضرورة المحافظة على خطة الحياد تماما فى الشئون الدينية — يشير على الذين فى أيديهم زمام المستعمرات أن يقاوموا كل عمل من شأنه توسيع نطاق الإسلام ، وأن يزيلوا العراقيل من طريق انتشار النصرانية ، وأن ينتفعوا من أعمال ارساليات التبشير التى تبث مبادئ المدنية خصوصا بخدماتهم التهذيبية والطبية .

ومن رأى المؤتمر أن الخطر الإسلامى يدعو إلى ضرورة انتباه المسيحية الألمانية لاتخاذ التدابير — من غير تسويف — فى كل الأرجاء التى لم يصل إليها الإسلام بعد »[2].

هذا هو دور الأغنياء والساسة وضعوا فى يد المبشرين سلطة الحكم والمال .

---

(١) نفسه ص ٧٨

(٢) نفسه ٨٣

« ب » رجال الدين المسيحى

لانستطيع هنا أن نحيط بجهود رجال الدين المسيحى فى هذا المجال ولذلك سنكتفى ببعض الأمثله فقط .

كان من أوائل من تولى التبشير فى القرون الوسطى « ريمون لول » وقد اتجه إلى التبشير بعد أن رأى فشل الحروب الصليبية فى مهمتها .

وقد تعلم «لول» اللغة العربية وتنقل فى كثير من بلاد العالم الإسلامى والتق بكثير من علماء المسلمين وتناقش معهم .

وتتابع بعد ذلك المبشرون وكانت هناك محاولات كثيرة من أفراد وهيئات وكان من أبرز المبشرين « المستركارى » يقول عنه « أدوين بلس » إنه فاق أسلافه فى مهنة التبشير فدرس لغة اللاتين واليونان والفرنسيس والهولانديين والعبرانيين كما تعلم كثيرا من العلوم .

ولما نشر كتبه فى التحريض على التبشير قوبلت بالاستحسان ، ففتح له باب الاكتتاب وذهب إلى الهند لهذا الغرض ، وصارت الاموال ترسل إليه ، ثم طلب أن يرسل إليه رجال يؤازرونه فى التبشير ، فتأسست سنة ١٧٩٥ جمعية لندن التبشيرية .

وماعتمت أن تأسست جمعيات على شاكلتها فى «اسكوتلانده» و «نيويورك» وانتشرت هذه الفكرة فى « ألمانيا » و « الدانيمارك » و «السويد» و «هولانده» و « النرويج » و « سويسرا » وغيرها .... وتأسست جمعيات فرعية كثيرة مثل «جمعية» التبشير فى أرض التوراة العثمانية » .

وانتشر بعد ذلك المبشرون فى جميع أنحاء العالم وكان لكل ناحية من برز فيها فى التبشير أو فى إيفاد المبشرين والاشراف عليهم .

فنجد مثلا المبشر « هنرى مارتين » المتوفى سنة ١٨١٢ يعمل على إرسال المبشرين إلى بلاد أسيا الغربية ويقيم فى الهند مدة ينتقل بعدها إلى فارس والبلاد

(١) أنظر كتاب الغارة على العالم الاسلامى .

العثمانية ، ومن بعده أخذت بعثات التبشير تنشط متجهة إلى فلسطين والأناضول متخذه لها مراكز فى أزمير والقسطنطينية وبيت المقدس .

وننتقل من الأفراد إلى الجماعات ، ونكتفى بمثل واحد هم .

الآباء البيض :

« أسس هذه الجماعة الكاردنيال (لافيجرى) ومهمتهم هى الطواف فى البلاد الإسلامية بأفريقيا مرتدين للزى الإسلامى وطريقة عملهم أنهم يغشون أماكن التجمع كالنوادى، وكذلك الاتصال بالعائلات ويتلمسون لكل الوسائل للاتصال بالمسلمين وبث دعوتهم بين الأهالى، خاصة بين الناشئة ،وكان يعينهم على هذا نفوذ الحكومة التى أطلقت أيديهم فى العمل، ولم تكتف الحكومة الفرنسية بمجرد التشجيع بل اشتركت عمليا بتميز المتنصرين على غيرهم وفى بعض الأحيان كانت تعفيهم من بعض العقوبات » .

يقول الحاج عبد الله الجزائرى فى وصف الآباء البيض :

« فإنهم يهجمون على الإسلام فى كل مكان ويحولون ، بين الأب وابنه والأخ وأخيه ،ويخربون نظام العائلات ، فيضطر الأب أن ينكر ولده ، والأخ أن يهجر أخاه ، والعشيرة أن تبرأ من بعض أبنائها » .

وغالبا يخرج مثل هؤلاء الذين اجتذبهم الآباء البيض مفسدين ، لامن الجياد لافى الإسلام ، ولا فى النصرانية »(١).

وطريقة الآباء البيض يصفها المسيو « بونه مورى » فى كتاب « الإسلام والنصرانية فى أفريقيا » فيقول ـ مع العلم بأنه من أنصار التبشير ـ.

فرهبانية الآباء البيض تلجأ إلى الوسائل السلمية لا غير ، فهى تؤسس بقرب كل محطة مستوصفا طبيا وصيدلية ، الأول منهما يصف العلاجات ، والثانى يعطيها مجانا ثم مدرسة ودار أيتام .

وليس إلا بعد وقت طويل ، وبأذن أهل الأولاد ، يلقن الآباء هؤلاء الأولاد التعليم الدينى ، أما اليتامى فيعلمون التعليم الدينى فرضا(٢).

---

(١) عن كتاب حاضر العالم الإسلامى ص ٣٥٨ـ٣٥٩ ص نفسه ص ٣٧٤ـ٣٧٥

هذا تصوير رجل غربى لمنهاج الآباء البيض مع الأولاد .

والأولاد ينقسمون إلى قسمين ـ كما يؤخذ من كلامه ـ يتامى وهؤلاء يتعلمون التعليم الدينى فرضا أى يجبرون على اعتناق والنصرانية وما أكثر اليتامى فى بلد يساق فيه الآباء إلى حروب لا ناقة لهم فيها ولا جمل . ومن رجع منهم قتل بيد المستعمرين ، فاذا ما انتهت حياة الأب بهذه الطريق أو تلك كان أولاده عرضة للتنصير بالقوة على يدى الآباء البيض .

والقسم الثانى من الأولاد من له أب وكما يقول ، هؤلاء لايعلمون الدين المسيحى إلا بأذن آبائهم . وهذا أيضا من التمويه لأنه مادام فى مدرسة أجنبية يقف أستاذه فيها كالذئب يتحين الفرصة لالتهامه ، مادام الأمر كذلك فإن الولد بمجرد أن دخل فى هذا المكان فقد أصبح ضحية , وأصبح بعيدا عن النجاة .

ولكن إذا عرف أن مؤسس الآباء البيض ، هو الكاردينال ، لا فيجرى ، الذى كان من رأيه أن سيادة فرنسا على المغرب تبقى معرضة للزوال طالما مسلمو المغرب مسلمين ، وأن فرنسا كى تأمن على نفسها ومستقبلها فى شمال أفريقيا ليس أمامها الا تنصير المسلمين

إذا كانت هذه هى عقيدة مؤسس الآبار البيض هل ينتظر منه أن يراعى الحياد فى المواقف الدينية ؟ إن القوم قد أصابتهم حمى الكره الإسلام ، فكانوا كلما فشلوا فى خطة انتقلوا إلى خطة أخرى، وفى شمال أفريقيا نراهم ينقلون نشاطهم إلى البربر فبنوا المستشفيات والملاجىء والمدارس تحت رعاية رجال دينهم ، وأرسلوا القساوسة فى كل مكان للتبشير بالدين المسيحى .

وكان الإنصاف يقتضى ترك التعليم الإسلامى قائما حتى يختار كل واحد الدين الذى يوافقه ولكن الأسف نراهم يحاربون التعليم الدينى الإسلامى ويصدرون الأوامر بعدم دخول من كان له صلة بالدين كالفقهاء والقراء ومشايخ الطرق ، يمنعون هؤلاء من الدخول إلى بلاد البربر حتى ولو كان تاجرا يعرف شيئا عن دينه .

وأوجبوا على كل من يريد أن يذهب إلى بلاد البربر أن يحصل على رخصة .
كما لم يسمحوا لأى واحد من البربر أن يرسل ولده الى فاس لتعلم الشريعة .

بينما كان هذا هو موقفهم من الاسلام كان القساوسة يجوبون البلاد طولا وعرضا بغية تنصير الأهالى مستعملين فى ذلك سلاح الترغيب والترهيب .

ولقد أظهر البربر أنهم من أشد الناس تمسكا بالدين الإسلامى كما أقر بذلك المهتمون بقضية التبشير يقول المسيو « شاتليه » رئيس تحرير مجلة العالم الإسلامى الفرنسية يقول :[ص١٢ كتاب من الغارة على العالم الإسلامى]: من النادر المستغرب أن تقع حوادث التنصير فى بيوت السادة العلوية وبين الباتان (الأفغانيين) الخاص الموجودين فى بلاد الهند أو مشايخ الهند وجيرانهم الأفغانيين والاتراك والتركمانيين والعرب الحقيقين والبربر » .

« ج » الاطباء :

استطاع أعداء الإسلام أن يسخروا مهنة الطب الإنسانية ويبعدوها عن مهمتها الى تحقيق أغراضهم .

جاء فى كتاب ملخص « تاريخ التبشير » للمستر « ادوين باس » عن تنظم الارساليات التبشيرية فى القرنين الاخيرين :

وبلغ الشغف بهذا العمل الى أن تأسست إرساليات تبشيرية طبية على سبيل التجربة لتلحق بالارساليات العامة فنجحت نجاحا باهرا لذلك أخذت تنمو وتزداد وتألفت لها أقسام نسائية ولأنى المريض ضعيف محتاج كان من السهل التأثير عليه وهو فى هذا الظرف .

وهم يدركون هذا ويستغلونه بالفعل .

ولقد كان من المسائل التى عالجها مؤتمر القاهرة التبشيرى المنعقد سنة ١٩٠٦ مسألة إرساليات التبشير الطبيه

وقام المستر « هاربر » وأبان وجوب الاكثار من الارساليات الطبية لان رجالها يحتكون دائما بالجمهور ، ويكون لهم تأثير على المسلمين أكثر مما للمبشرين الآخرين .

وهنا ذكر المستر « هارير » حكاية طفلة مسلمه عنى المبشرون بتمريضها فى مستشفى مصر القديمة ، ثم ألحقت بمدرسة البنات البروتستانتية فى باب اللوق ، وكانت نهاية أمرها أن عرفت كيف تعتقد بالمسيح بالمعنى المعروف عند النصارى

وذكر أيضا عن رجل مسلم كان يحضر محاضرات المبشرين لاثارة الجلبه والضوضاء واتفق أنه مرض فدخل مستشفى المبشرين ، وبعد أن لبث فيه مدة شفى ، وخرج منه فصار يحضر المحاضرات فى هذه المرة . ولكن بخشوع زائد : وبعد ذلك بقليل تعمد واصبح نصرانيا على مذهب البروتستانت .

ثم قام الدكتور « أراهارس » طبيب ارسالية التبشير فى « طرابلس » الشام فقال : إنه قد مر عليه اثنان وثلاثون عاما وهو فى مهنته فلم يفشل الا مرتين فقط ، وذلك عقب منع الحكومة العثمانية أو أحد الشيوخ لاثنين من زبائنه من الحضور إليه .

وأورد إحصاء لزبائنه فقال : إن ٦٨ ./. منهم مسلمون ونصف هـــؤلاء من النساء وفى أول سنة مجيئه إلى حيث يبشر بلغ عدد زبائنه ١٧٥ وفى آخر سنة كان عددهم ٢٥٠٠ .

وختم كلامه قائلا ؛ يجب على طبيب إرساليات التبشر ألا ينسى ولا فى لحظة واحدة أنه مبشر قبل كل شيء ثم هو طبيب بعد كل ذلك .

وقام بعده الدكتور « تنبانى » وذكر الصعوبات التى يلقاها الطبيب فى التوفيق بين مهنتى التبشير والطب، كما حدث معه هو ، إلا أن ما بذله من المجهودات قد أعانه على النجاح حتى تمكن من تأسيس مستشفى التبشير من طريق الاكتتاب وكان أول مكتتب لهذا المستشفى التبشيرى رجلا مسلماً .

وخطب الأستاذ « سمبسون » بعد ذلك فى بيان فضل الإرساليات الطبية ومما قاله ، إن المرضى والذين ينازعهم الموت بوجه خاص لا بد لهم من مراجعة الطبيب

ومن أن يكون هذا الطبيب « المبشر » فى جانب المريض عندما يكون فى حالة الاحتضار التى لا بد وأن يبلغها كل واحد من أفراد البشر.

ثم خطبت المس « أنا وستن » فتكلمت عن إرسالية التبشير الطبية فى مدينة طنطا قائلة : إن ٣٠ ٪ من الذين يعالجون فى مستشفى هذه الإرسالية هم من الفلاحين المسلمين ، وأكثرهم من النساء .

أما طريقة التبشير فى هذا المستشفى فهى أن يذكر الإنجيل للمرضى بأسلوب بسيط لا يدعو إلى التطرف فى المناقشة . إذ المستشفى يجمع بين جدرانه نساء ورجالا »(١) .

هذه هى مهنة الطب نرى كيف سخرت لأغراض دنيئة وتحالفت مع التبشير والاستعمار فى القضاء على الإسلام .

ونرى الأسلوب الذى لا يتفق مع الإنسانية فى شىء لقد جاء الإسلام بالحرية ومعنى الحرية أن يقف الإنسان بإرادته الكاملة أمام أمرين أو أمور ليختار منها ما يراه صالحاً له ، فأمر الإيمان مبنى على التمكين والاختيار فى الإسلام ، وسار المسلمون على هذا وجاء الغرب ليدعى أنه يقول بحرية الأديان .

فهل من الحرية فى شىء هذه الصور التى ذكرها .

طفلة مريضة تخرج من المستشفى لتلتقطها مدرسة تبشيرية وعلى ما يبدو كانت هذه الطفلة بلا عائل يحدد لها طريقها كما هو ظاهر من رحلة حياتها .

ثم ما معنى قولهم إن الطبيب مبشر أولا وقبل كل شىء ؟ ما أتعس الأمم التى صدقتهم ووثقت بهم مقابل قطعة شاش وشىء من المرهم ، لو لم يأخذوا هذا الدواء ماذا كان يحصل ؟ سيموت هذا الشخص بأجله ؛ أما بعد الدواء فان الخنجر أصبح موجها إلى صدر الأمة بأجمعها .

أما رأى الأستاذ « سمبسون » فأنه رأى لئيم وشيطان ، ما ذنب هذا

---

(١) الغارة على العالم الاسلامي ص ٣ ـ ٣٨

القروى المحتضر الذى لا يدرى من أمره شيئاً حين يجد ذئباً متسلطاً عليه ينتزعه من دينه .

لقد كانت فكرة اشتغال الأطباء كمبشرين مسيطرة على العقول ففى سنة ١٨٨٥ ذهب إلى عدن « إيون كيث فالكونر » وهو الابن الثالث للكونت « كنتور » فأسس هناك إرسالية تبشير اسكوتلاندية سماها باسمه وهى مؤلفة من طبيبين مبشرين وتبعتهما « إرسالية التبشير العربية » التى أسست سنة ١٨٨٩ وهى تابعة لكنيسة الإصلاح الأمريكية فانتشرت فى البصرة والبحرين ، ولها فى البحرين خمسة مبشرين : اثنان منهم طبيبان واثنتان امرأتان .

فهنا نجد أن مهنة الطب كانت رئيسية فى التبشير ، فنجد فى الإرسالية الأولى طبيبين هما كل أعضائها ، وفى الثانية طبيبان وامرأتان من خمسة أعضاء .

ويظهر أن القوم بدءوا يودعون طريقة الوعظ التقليدية لإيمانهم بقلة جدواها . ولم يكن العمل الطبي قاصراً على الإرساليات فحسب بل بطريقتهم الخاصة وصلوا إلى مناصب رئيسية فى الدول الإسلامية .

ففى تركيا - مثلا - نجد القسيس « بيت » التابع لإرسالية التبشير فى الآستانة عين رئيساً للجنة الإسعاف الخيرية التى تأسست تحت رعاية السلطان عقب مذابح « أدنه » .

وإذا ما تولى المبشرون إدارة أى مستشفى حولوه إلى خلية تبشير .

يقول القسيس « تروبريدج » فى تقريره إلى مؤتمر « لكنو » :

والتبشير الدينى جار بلاصعوبة فى المستشفيات التى يدير أعمالها المبشرون »[١] .
وهكذا نجد التبشير على يد الأطباء لا يقتصر على بلد دون بلد بل تراه يغزو الآستانة نفسها عاصمة الخلافة الإسلامية .

---

(١) نفسه ص ١٢٩ .

كما غزاها على يد فئات أخرى من المبشرين .

المرأة مسلمة وغير مسلمة[١].

عرفت الهيئات التبشيرية ما للمرأة من قيمة فى عملية التبشير .

وأنهم إذا اكتسبوا المرأة المسلمة إلى جانبهم فقد أصابوا الهدف ورجحت كفتهم ومن الوسائل التى سلكوها لاصطياد المرأة المسلمة ـ فوق وسائلهم الأخرى هى المرأة غير المسلمة تدخل على المسلمات حاملة معها التبشير .

ولم يكن الأمر يسير ارتجالا ، بل حسب تخطيط بحث فى المؤتمرات التبشيرية ففى مؤتمر « لكنو » التبشيرى سنة ١٩١١ نجده يحدد الطريق الذى يجب أن يسلك هنا فيقول .

ولما كان تنصير النساء المسلمات مع أولادهن ورفع شأنهن يتطلب دخول النساء المسيحيات فى العمل ، فأعضاء المؤتمر يشيرون على إرساليات التبشير بالتشديد على المبشرين والمبشرات بضرورة التحكك بالرجال والنساء عند قيامهم بأعمالهم التبشيرية .

وأن توسع الإرساليات نطاق الأعمال التبشيرية التى يقوم بها النساء فى أفريقيا بوجه خاص .

وأن تعنى بتربية النساء المبشرات(١) .

وأما مؤتمر القاهرة التبشيرى المنعقد سنة ١٩٠٦ فقد عالج بعناية الأعمال النسائية فى التبشير .

---

(١) نفسه ص ٣٩ .
(٢) نفسه ص ١١٤

إذ « كان لهذا الموضوع اهتمام كبير من أعضاء المؤتمر لأنه خاص بنصف مسلمى العالم فقالت المس « ولسون » :

ان النساء المبشرات يستعن فى الهند بالمدارس ، وبالعيادات الطبية وزيارة قرى الفلاحين لينشرن النصرانية بين طبقات الناس .

وخطبت المس « هلداى » فى حث المبشرين على الرفق بالمرأة المسلمة .

وتناولت السيدات المبشرات الخطابة فى أخبار نجاحهن فى المناطق التى انتدبن للتبشير فيها ، فقالت أحداهن :

إن المسلمات الفارسيات يظهرن ميلا شديداً للعلم بالرغم من جهلهن باتساع نطاقه ، وهن يعتقدون أن الذى يعرف جغرافية البلاد نابغه .

ولقصة الابن المسرف فى الأنجيل ، وللمزمور الحادى والخسين تأثير شديد على النفس المسلمة .

وقالت مبشرة أخرى :

إن مدرسة البنات البروتستانتية التى فى الخرطوم فيها من ثمانين إلى تسعين تلميذة مسلمة ، ولأهلهن الحرية فى السماح لهن بقراءة العهد الجديد (الانجيل وذيوله) أو فى منعهن من ذلك . إلا أن المدرسة لم يرد اليها طلب استثناء واحد من التلميذات من قراءة الإنجيل .

. . . .

وانتقل المؤتمر بعد ذلك إلى موضوع النساء اللاتى يتطوعن للتبشير » ومن الكتب التى ألفت لخدمة دعوة المؤتمر كتاب « أخواتنا المسلمات » . (١)

---

(١) ارجع فى ذلك إلى كتاب « الغاره على العالم الإسلامى » .

تعقيب

بذلك نرى إعداد الجيوش لغزو المرأة المسلمة فى معقلها يذهبون إليها فى كل مكان ويتتبعونها أنى وجدت .

ومن الطرق التى كانوا يسلكونها كى ينفذوا إلى المرأة المسلمة هو إقناعها بأنها مظلومة وأن ظلمها ليس من المجتمع بل من الإسلام نفسه .

فمما جاء على لسان « جمعية التبشير الكنسية الانجليزية » :

إن فى الإسلام عيبا فاحشا هو حطه من شأن المرأة .

ودعمت ماعزته إلى الاسلام بذكر نبذة جاء فيها : إن امرأتين فارسيتين سميتا ابنتيهما الأولى (غير مطلوبة) والثانية (كفى بنات) (١)

ولو أنصفوا لعرفوا أن الإسلام رفع شأن المرأة .

وهذا هو الذى يتمشى مع عقائد الإسلام الأساسية .

إن الله سبحانه وتعالى يقول : «يهب لمن يشاء إناثا ويهب لمن يشاء الذكور . أو يزوجهم ذكرانا وإناثا ويجعل من يشاء عقيما

فما دامت البنت خلق الله فهى فى كنفه ، والله الذى خلقها لن يهينها لكونها بنتا لأنها صنعه .

ولذلك كان من إحقاق الحق أن نقول :

إن الإسلام أكرم المرأة وأنقذها مما كانت فيه من ظلم واضطهاد .

فلقد حارب العادة الجاهلية المشئومة التى هى وأد البنات .

وإذا كان من عادة الجاهلية ان لم يئدوا البنت أن يمسكوها على هوان وذل إذا كانت هذه هى حال البنت فإن الاسلام بمنعه الوأد لم ينقذ حياتها فقط بل وكرامتها أيضا .

(١) نفسه ص ١٤ .

ولما كان حب الأب لابنه يدفعه للعناية بولده وقد لا يتوفر ذلك للبنت فإن الاسلام عوض عن ذلك بالثواب الذى أعده لوالديها على تربيتها .

فقد جاء فى تفسير القرطبي لآيات سورة النحل ما يأتى :

عن عائشة رضى الله عنها أنها قالت جاءتنى مسكينة تحمل ابنتين فأطعمتها ثلاث تمرات، فأعطت كل واحدة منهما تمرة ورفعت إلى فيها تمرة لتأكلها ، فاستطعمتها ابنتاها ، فشقت التمرة التى كانت تريد أن تأكلها بينهما ، فأعجبنى شأنها فذكرت الذى صنعت لرسول الله صلى الله عليه وسلم فقال :

« إن الله عز وجل قد أوجب لها بها الجنة أو أعتقها بها من النار » .

وعن أنس بن مالك قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

« من عال جاريتين حتى تبلغا جاء يوم القيامة أنا وهو » وضم أصابعه خرجها مسلم رحمه الله .

وخرج أبو نعيم الحافظ من حديث الأعمش عن أبي وائل عن عبد الله قال ؛ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

« من كانت له بنت فأدبها فأحسن أدبها وعلمها فأحسن تعليمها ، وأسبغ عليها من نعم الله التى أسبغ عليه كانت سترا أو حجابا من النار » .

ويبين القرآن الكريم أن الرجل إنما هو شقيق للمرأة «يأيها الناس اتقوا ربكم الذى خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها وبث منهما رجالا كثيرا ونساء » .

وصلة الزوج بزوجه هى الإلف والمودة والرحمة .

قال تعالى : ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجا لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودة ورحمة » .

وكان موقف الاسلام هذا من المرأة ليوضح حقيقة للفطرة التى فطر الله الناس عليها وحتى يرفع عن المرأة ما أصابها على مر التاريخ من ظلم وحيف فلقد اعتبرت المرأة شيطانا يوسوس بالشر والخطيئة .

وأعطى الرجل لنفسه من الحقوق ما تأباه الفطرة ، لا فرق فى ذلك بين الشرق والغرب ؛ فقد كان من حق الرجل الرومانى قتل وبيع أولاده ولم تأخذ المرأة حقها فى الدولة الرومانية إلا أخيرا .

وفى المسيحية التى يظن أصحابها أنهم جاءوا ليرفعوا الظلم عن المرأة المسلحة فى هذه الديانة ـ المبد له طبعا ـ نرى المرأة سبب المعاصى وأصل الفجور وسلاح إبليس الذى يوجهه إلى خلق الله ، وأنها التى سببت شقاء الانسانية باغوائها آدم .

وكانت نظرتهم إلى العلاقة الجنسية بين الرجل والمرأة ولو بطريق الزواج أنها يجب أن تجتنب فى حق من يريد الكمال ومن هنا كانت الرهبنة التى أخذوها من الفلسفة الإشراقية وأدخلوها فى نظامهم الكنسى ولذلك حرموا على فئة من رجال دينهم الزواج وبعض الطوائف تمنع رجال الدين مطلقا من هذا الحق .

وهذا كله يحط من شأن المرأة ومنزلتها فى المجتمع الذى تعيش فيه ، ولما جاءت المدنية الأوربية الحديثة لم ترفع من شأن المرأة ـ كما يظن البعض ـ بل استغلتها ، وخاصة بعد الحرب حين احتاجت أوروبا أن تبنى نفسها من جديد مع قلة الرجال حيث ذهبت بهم الحرب .

وخرج الرجل من الحرب محطم الأعصاب ، ووجد أمامه المرأة : وجد فيها أصحاب الأعمال العامل الذى يتقاضى الأجر الأقل ووجد فيها أصحاب المتعه مآربهم .

وإنى هنا أنقل رأى(١) جوستاف لوبون ، مع أنه لم يدرك حال المرأة الأوروبية بعد الحرب الثانية وهو هنا يقارن حال المرأة فى الإسلام وحالها فى أوروبا .

يقول « لوبون » مفندا مزاعم بنى جنسه ، وحملتهم على تعدد الزوجات فى الإسلام .. « ولا تذكر نظاما أنحى الأوروبيون عليه باللائمة كمبدأ تعدد الزوجات ، كما أننا لا تذكر نظاما أخطأ الأوربيون فى إدراكه كذلك المبدأ ، وذلك أن أكثر مؤرخى أوروبا اتزانا يرون أن مبدأ تعدد الزوجات حجر الزاوية فى الإسلام ، وأنه سبب انتشار القرآن . وأنه علة انحطاط الشرقيين .

ونشأت عن هذه المزاعم الغريبة ، على العموم ، أصوات سخط رحمة بأولئك البائسات المكدسات فى دوائر الحريم . . . ثم يقول :

ذلك الوصف مخالف للحق ، وأرجو أن يثبت عند القارىء الذى يقرأ هذا الفصل — بعد أن يطرح عنه أوهامه الأوروبية جانبا — أن مبدأ تعدد الزوجات الشرقى نظام طيب ، يرفع المستوى الأخلاقى فى الأمم التى تقول به ، ويزيد الأسرة ارتباطا ، ويمنح المرأة احتراما وسعادة لا تراهما فى غير أوروبا » و « لوبون » عندما يقول بفضل نظام تعدد الزوجات وأنه يزيد الأسرة ارتباطا على غير ما يظنه الاكثرون عندما يقول « لوبون » بهذا يوضح السبب وهو أنه خير للمرأة أن تكون زوجة شرعية ولو مع ضره من أن تكون زوجة سرية « ولا أرى سببا لجعل مبدأ تعدد الزوجات الشرعى عند الشرقيين أدنى مرتبة من مبدأ تعدد الزوجات السرى عند الأوربيين ، وأبصر العكس فأرى ما يجعله أسنى منه وبهذا ندرك مغزى تعجب الشرقيين الذين يزورون مدننا الكبيرة من احتجاجنا عليهم ونظرهم إلى هذا الاحتجاج شزرا » .

ثم يبين أن أوروبا ستقول بتعدد الزوجات فى يوم من الايام وقريبا لأن

---

(١) الفصل الرابع من كتاب حضارة العرب

القوانين عادة تطابق العادات ومادامت أوروبا تعدد سرا فسيأتى اليوم الذى تجعله قانونا يقول :

«وإذا نظرنا إلى أن القوانين لاتلبث أن تطابق العادات كان لنا أن نقول : إن تعدد الزوجات غير الشرعى فى أوروبا لايلبث أن تؤيده القوانين» .

ثم يأخذ فى بيان فضل الإسلام على المرأة ، وأنه رفع شأنها اجتماعيا فيقول :

والاسلام قد رفع حال المرأة الاجتماعية وشأنها رفعا عظيما بدلا من خفضها خلافا للبزاعم المكرره على غير هدى .

والقرآن قد منح المرأة حقوقا إرثيه أحسن مما فى أكثر قوانيننا الأوربية ، كما أثبت ذلك حينما بحثت فى حقوق الارث عند العرب .

أما رأيه فى الارث الذى أشار إليه فهو قولة ص ٣٨٩ من نفس الكتاب .

وتعد مبادىء المواريث التى نص عليها القرآن الكريم بالغة العدل والإنصاف . . . ويظهر من مقابلتى بينها وبين الحقوق الفرنسية والانجليزية أن الشريعة الاسلامية منحت الزوجات اللائى يزعم أن المسلمين لايعاشرونهن بالمعروف حقوقا فى المواريث لانجد مثلها فى قوانيننا ، ثم يذكر آيات المواريث والآيات التى تبين حقوق المرأة عندما يموت زوجها .

أما عن الطلاق فأنه لايرى فيه عجبا فقد أباحته قوانين أوروبا ، ويقول :

أجل ، أباح القرآن الطلاق كما أباحته قوانين أوروبا التى قالت به ولكنه اشترط أن يكون للمطلقات متاع بالمعروف .

وأحسن طريق لإدراك تأثير الإسلام فى أحوال النساء فى الشرق هو أن نبحث فى حالهن قبل القرآن وبعده .

أما حالتهن قبل الاسلام فيصورها بقولة :

وكان الرجال قبل ظهور محمد يعدون منزلة النساء متوسطة بين الأنعام والانسان من بعض الوجوه ، أى أداة للاستيلاد والخدمه ،

وكانوا يعدون ولادة البنت مصيبة وشاعت عادة الوأد وصار لايجادل فيها كما لو كانت البنات جراء يقذف بها فى الماء .

وبعد أن يبين ما كان بين الرسول صلى الله عليه وسلم وبين قيس الذى قال للرسول : والله كان لى بنات كثيرات فوأدتهن من غير أن أشم واحدة منهن . ورد الرسول عليه بأن ذلك عنوان نزع الرحمة من قلبه .

بعد أن بين هذا قال : —

والاسلام اذا لا النصرانية هو الذى رفع المرأة من الدرك الأسفل الذى كانت فيه وذلك خلافا للاعتقاد الشائع .

ثم يبين أنه ليس وحده فى هذا الرأى ، بل معه كثير من المفكرين فيقول :
وهنا نستطيع أن نكرر اذاً قولنا : إن الإسلام الذى رفع المرأة كثيرا بعيد من خفضها .

ولم نكن أول من دافع عن هذا الرأى فقد سبقنا الى مثله كوسان دوبرسفال ثم مسيو « بارتلمى سانت هيلر »

ولم يقتصر فضل الإسلام على رفع شأن المرأة بل نضيف الى هذا أنه أول دين فعل ذلك .

ثم يبين حال المرأة وتعاستها عند الإغريق وفى اسبارطه حيث كانت تقتل اذا لم تلد ولدا قويا صالحا للجندية .

ثم نظرة المجتمع اليها على أنها شيطانة حتى التوراة ـ نفسها كما يقول ـ

أماعن زواج أكثر من واحدة فى الإسلام فيقول عنه،مفضلا له عن الخيانة:
فلا ترى هنا لك - كما يقول «ايزنيرت» - مثل ما يكدر صفوة الحياة الزوجية
فى أوربا من الخيانة التى هى أعظم إفساداً للأخلاق من تعدد الزوجات على مايحتمل
ثم يروى فى الهامش قول الدكتور «ايزنيرت» إن الخيانة الزوجية فى الأمم القائلة
بالاقتصار على زوجة واحده تزيد باطراد » .

ثم يقارن بين حقوق الزوجة فى الاسلام وحقوقها فى أوربا .

فيرى أن حقوقها فى الاسلام ، أفضل كثيرا من حقوق الزوجة الأوربية .

ويقول :

فالزوجة المسلمة تتمتع بأموالها الخاصة فضلا عن مهرها وعن أنه لايطالب منها
أن تشترك فى الانفاق على أمور المنزل .

وتعامل المرأة المسلمة باحترام عظيم فضلا عن تلك الامتيازات .

وتنال بذلك حالا أجمع الباحثون المنصفون ومنهم من ناصب بعاطفته مبدأ
تعدد الزوجات العداء على الاعتراف بحسنها .

ويختم كلامه فى الموضوع بقوله :

وإننى أطمع أن يعتقد القارىء - بعـــد وقوفه على ماتقدم - أن مبدأ تعدد
الزوجات أمر طيب ، وأن حب الأسرة ، وحسن الادب ، وجميل الطبائع أكثر
نموا فى الأمم القائلة به مما فى غيرها على العموم .

وأن الإسلام حسن حال المراة كثيرا ، وأنه أول من رفع شأنها ، وأن المرأة
فى الشرق أكثر احتراما وثقافة وسعادة منها فى أوروبا على العموم تقريبا » .

هذا هو رأى لوبون والكتاب مؤلف سنة ١٨٨٤ .

ومؤتمرات التبشير عقدت بعد ذلك التاريخ ، فمؤتمر القاهره التبشيرى كان سنة ١٩٠٦ ومؤتمر لكنو عقد سنه ١٩١١ ، ومؤتمر أدنبرج التبشيرى كان سنة ١٩١٠ . هذه وغيرها هى المؤتمرات التبشيرية التى دعت إلى استغلال المرأة وإيهامها أنها مظلومه ، وأنها لكى تلحق بأختها الاوروبية يجب أن تدين بالنصرانية .

ووقعت المرأة المسلمة فى يد أعدائها ، وأحاط بها الاخطبوط التبشيرى ماذا عملنا نحن لإنقاذها .

للأسف حتى الآن لاشىء .

وكانت الوسائل التى توهمنا أنها تنقذ المرأة إما غير مجديه وإما ضاره بالقضية التى نعالجها .

وإليك مانقوم به من أجل المرأة .

أولا دروس الوعظ والإرشاد فى المساجد قامت إداره الوعظ بالأزهر بتنظيم هذه الدروس وبالطبع هى تتفق مع إمكاناتها .

ولكن إذا كان المتحاربون يجددون أسلحتهم كما وكيفا ، وكل واحد يحاول أن يفوق خصمه . وقد تقدم لنا بعض وسائل التبشير التى يتعرض لها المسلم رجلا وامرأة وسيأتى بعض وسائل أخرى .

إذا كان ذلك كذلك كان لنا أن نسأل هذا السؤال .

هل نحن درسنا وسائل عدونا ، وحاولنا أن نحول بينه وبين جمهورنا وخاصة المرأة ؟ إن القسيس (فلبينغ) فى كتابه « وسائل لتبشير المسلمين بالنصرانية » .

فى الفصل الثانى والثالث بحث فى الصعوبات التى تحول دون تبشير المسلمين العوام ، وذكر الوسائل التى يمكن استجلابهم بها وتحبيب المبشرين إليهم .

وأهم هذه الوسائل العزف بالموسيقى الذى يميل إليه الشرقيون كثيرا ، وعرض

منـاظر الفانوس السحرى عليهم ،وتأسيس الإرساليات الطبية بينهم ، وأن يتعلم المبشرون لهجاتهم العامية واصطلاحاتهم نظريا وعمليا ، وأن يدرسوا القرآن ليقفوا على ما يحتوية ، وأن يخاطبوا العوام المسلمين على قدر عقولهم ومستوى علمهم . ، وأن يكون ـ المبشر ـ واقفا على آيات القرآن والانجيل عارفا بمحل المناقشة . . . هذه بعض النصائح لتبشير العوام وختم المؤلف هذين الفصلين بأن أكثر المسلمين الذين تنصروا إنما هم من العامة والأميين .

أى أن المقدمات أدت إلى نتائج ،

هل المرأة ـ بدروس الوعظ الحالية ـ وجدت اليد التى تنقذها من الأخطبوط؟ الاجابة تـكون بزيارة هذه الدروس لمعرفة من يحضرنها .

إن اللاتى يذهبن إليها بعض من انقطعت بهن سبل الحياة ، ولا شىء غير ذلك ومع ذلك فقد أدى الوعظ كل ما فى امكانه ، ولو زادت إمكاناته لاتسع تأثيره فإذا ما انتقلنا من ميدان الوعظ إلى ميدان المحاضرات العامه وجدنا العجب فقد أصبحت المرأة موضوع مزايدات :

هناك من يترضى الجمهور بالهجوم على المرأة، وماوصلت إليه الحالة من الفجور و . . . و . . . و أخ ولو درس لعرف أن غرس المبشرين الذى غرس منذ حوالى قرنين وآتى ثماره ، هذا الغرس لا يمـكن أن يقلع بمحاضرة إلا فى عالم الأحلام .

إن الميكروب قد تحايل حتى دخل الجسم فهل تحايل الطبيب للقضاء على هذا الميكروب؟وإذا كان المحاضر يعلم أن هناك من يستعد للرد عليه قبل أن يعرف ما يقول فهل ينتظر نتيجة بعد ذلك .

أليس من العجب أن تدور المناقشات حتى الان حول موضوع ذهاب المرأة الى المسجد ، وتختلف هل تذهب إلى المسجد أولا تذهب ؟

- والمانعون يعلمون الأماكن الأخرى التى غشيتها المرأة .

ومثل المسجد ذهابها إلى المقابر هل يجوز أو لا يجوز ؟

وإذا كان الرأى الذى يبيح لها الذهاب إلى المسجد هو الذى تغلب الآن فأين المكان الذى أعد لها .

ما موقف البنت المسلمة حين تقول لها زميلتها المسيحية كنت أمس فى الكنيسة وسمعت كذا وكذا؟ ، ماذا سيكون حديث المسلمة لنفسها وهى لا تعرف عن مكان عبادتها الذى هو المسجد شيئا ؟

وكم رجلا استطاع أن يعلم زوجته أمور دينها حتى على فرض أنه يعرف دينه؟ وطالما ساءلت نفسى :

ما المانع أن نتركها تذهب إلى المقابر ، ثم نعــد لها هناك أماكن المحاضرات الخفيفة التى يقوم بها الإخصائيون ؟

والمقابر عادة تغشاها كل الأسر لأن الموت لا يفرق .

والجو المحيط بما فيه من شبح الفناء يساعد على تقبل الموعظة ، والانتفاع بها وبذلك ترجع المرأة وهى تشعر بأنها بعثت لميتها رحمه .

وما المانع أن يكون هذا أول طريق لعقد صلح بينها وبين الدين .

وأما الداعى فأنه يرجع وهو على يقين أنه وجد نوعا من الناس ليس من الممكن أن يجده ويلتقى به فى غير هذا المكان .

ومما يحزن فى قضية المرأه ـ كغيرها من القضايا التى واجهتنا مع حركة الاستغراب ـ أننا لا نعرف فيها ماذا نريد أن نوصله إلى فكر المرأة ولا المنهج الذى نسير عليه فمنا من قام يدافع عن المرأة وأن الإسلام جعلها كالرجل وأعطاها وأعطاها. ولا يقف بالمعطيات عند حد فإذا ما التقى بآية أو حديث فسرها بهواه ومنا من جعل المجتمع حكما على الشرع مادام المجتمع يسير على هذا المنهج وعاداته أصبحت هــكذا فأن الواجب هو مسايرة المجتمع .

وليس من العجب أن تجد المرأة من يعطيها كل هذا باسم الغرب ومدنية الغرب ، ولـكن العجب أن يعطيها هذا من يتكلم باسم الدين .

وإذا كان المبشرون قبل أن يوجهوا الحرب ضد المرأة قد اجتمعوا وعقدوا العديد من المؤتمرات،إما علنية كالمؤتمرات التى تعقد باسم التبشير وإما تحت أسماء أخرى كالمؤتمرات الصحية والتعليمة . إلخ .

إذا كان المبشرون قد فعلوا هذا قبل أن يوجهوا الحرب ضد المرأة فهل فعلنا نحن مثلهم واتفقنا على رأى قبل أن تقوم بالدفاع أو الهجوم ؟

الواقع أن بعضنا أخذ يهدم بعضا ، وهنا حارت المرأة التى تريد الصواب أما التى لا تريد الصواب فقد تركت القوم يتقاتلون ومشت فى طريقها .

ومن المحاولات التى تمت لإنقاذ المرأة المسلمة إنشاء كلية البنات الإسلامية التابعة لجامعةالأزهر والتى ستصبح جامعة قريبا .

ولكن للأسف لايظهر أنها ستقوم بما هو مفروض أن تقوم به من خدمة الدين وليس هذا مكان بيان الأسباب .

ولكن الواقع أن شبح الفشل يبدو واضحا وأن هؤلاء الطالبات ليست لهن ميزة تميزهن عن قريناتهن فى الكليات والمعاهد الأخرى .

وإنه لأمل كل مسلم أن يتحقق لهذا المشروع كل نجاح .

الشباب :

اهتم المبشرون بالشباب اهتماما كبيرا وكان اهتمامهم بالشباب المسيحى والمسلم على السواء .

فبالنسبة للشباب المسلم نجدهم يحرصون على إرضائهم ولو أدى الأمر إلى تعديل خطتهم .

ومثال ذلك ماجاء فى كتاب « وسائل لتبشير المسلمين بالنصرانية » تأليف القسيس(فلمينغ) : فى الفصل الرابع من هذا الكتاب يأتى ذكر الصعوبات التى تقف فى سبيل تبشير المسلمين المتنورين .

وهذه الصعوبات هى التى جعلت المؤتمر يترك المذاكرة فى بادىء الأمر بمسألة

التنصير تخاض فى البحث عن الوسائل التى يكون لها تأثير ـ ولو قليلا ـ على الناشئة الإسلامية لتدرك الأمور الاجتماعية والخلقية والأدبية .

وهنا قال سكرتير المؤتمر إن الخطة العدائية التى اتبعها الشبان المسلمون المتعلمون اضطرت المبشرين فى القطر المصرى إلى محاولة إعادة ثقة الشبان المسلمين بهم ، فصار هؤلاء المبشرون يلقون محاضرات فى موضوعات اجتماعية وخلقية وتاريخية لا يستطردون فيها إلى مباحث الدين رغبة فى جلب قلوب المسلمين إليهم ،

وإظهار الود للمسلمين جاء ـ كما يقول المبشرون ـ بنتائج طيبة .

« وبناء على هذا ساعد المبشرون الشبان المسلمين فى تأسيس جمعية الغرض منها إيجاد صلة وتقرب بين الطبقة المتعلمة والطبقات المتعددة التى تتألف منها الأمة وإنماء روح الاتفاق » .

وهنا نجدهم يخططون لصيد الشباب ثم لاتخاذ الصيد كشباك لصيد غيره من طبقات الأمة .

ثم يبين الاهتمام بأمر الشباب وخاصة الذين تعلموا على الطريقة الأوربية ، وأن الهدف الحقيقى هو تنصيرهم فيقول :

وكل ماخاض فيه المؤتمر من هذه المباحث يختص بالمجهودات التى يبذلها المبشرون لتبشير الشبيبة الإسلامية التى تعلمت على الطريقة الأوربية وفى المدارس الحكومية . وما يلقونه من الصعوبات والفشل فى تنصيرها ، فنجد أن فكرة التنصير تتجه أولا إلى الذين تعلموا على الطريقة الأوربية وفى مدارس الحكومة .

إنهم وجدوا أن تنصير الشباب صعب إلا إذا مر بعدة أدوار .

لقد حاولوا أولا أن ينقلوا الشباب من الإسلام إلى النصرانية وفشلوا وهنا أنشأت أمريكا معهدها فى مصر وكان الغرض منه أن ينقل الشباب المسلم إلى مرحلة متوسطة بين الإسلام والنصرانية بتمييع العقيدة عند الشباب حتى يسهل بعد ذلك تنصيرهم .

وهم هنا يتواصون بالصبر والانتقال بالمسلمين من حالة إلى حالة حتى يصلوا بهم ـ وخاصة الشباب ـ إلى ما يريدون .

جاء فى تقرير « استورد كروفورد » إلى مؤتمر « لكنو » ما يلى « وأما الواجب الثانى فهو الصبر الذى يعرفه من عرف حكمة الإنجيل فى النمو التدريجى ، وهى تبتدئ بالعشب ثم بالسنبلة ثم يتبعها انتظار طويل ريثما ينضج الحب .

إلا أن النمو الأخلاقى طويل العهد خصوصا إذا كان متعلقا بأمة ، ثم قال :

إن المسلمين يقبسون من حيث لا يشعرون شطرا من المدنية النصرانية ويدخلونه فى ارتقائهم الاجتماعى .

ومادامت الشعوب الإسلامية تتدرج إلى غايات ونزعات ذات علاقة بالإنجيل ، فأن الاستعداد لاقتباس النصرانية يتولد فيها على غير قصد منها .

وقد علقت مجلة العالم الإسلامى الفرنساوية على هذا القول بأنها تكتفى فى بيان أهمية ما يقوله « استورد كروفورد » بتذكير القراء بالجملة التى اتخذتها جمعية الطلاب المتطوعين للتبشير شعارا لها منذ سنة ١٩٠٥ وهى « تنصير العالم قاطبة فى هذا العصر » .

فان فى هذا الشعار ما يدل على أن أقوال المبشرين تتدرج نحو الحقيقة » .

وأما بالنسبة للشباب المسيحى من الطلاب :

فاننا نجده هنا يتخذه لنفسه شعارا « هو تنصير العالم قاطبة فى هذا العصر » .

ومن هنا ندرك سر الاهتمام بانشاء الجمعيات للشباب .

ففى سنة ١٨٥٥ أسست جمعية الشبان المسيحيين ، من الإنجليز والأمريكان ووظيفتها ادخال ملكوت المسيح بين الشبان .

وعقد تلاميذ المدارس النصرانية فى « نور ثفيلد » مؤتمرا اجتمع فيه مائتان وخمسون مندوبا عن ثمانين مدرسة تكفلت بتقديم مائة شاب للتطوع فى نشر الدين المسيحى .

ومن هؤلاء تألفت « جمعية الشبان المتطوعين للتبشير فى البلاد الأجنبية » ويقول المؤلف أنها لعبت دورا مهما فى تبشير المسلمين على الخصوص لأن شعارها كان نشر الإنجيل بين أبناء الجيل الحاضر . . . .

وفى سنة ١٨٩٥ تأسست « جمعية اتحاد الطلبة المسيحيين فى العالم ، وهى تهتم بدرس أحوال التلاميذ فى كل الأقطار وبث روح « المحبة » بينهم فالتحق بها مائة ألف طالب وأستاذ يمثلون أربعين قوما فنشأ عن وجود هذا العدد العظيم ميل إلى الانتفاع به .

لذلك تأسست سنة ١٩٠٢ « جمعية تبشير الشبان » .

ومن وظائف هذه الجمعيات الأخيرة استمالة النساء والبنات والطلبة إلى استماع صوت المبشرين » .

بهذا نجد الشباك تنصب للشباب الإسلامى على يد زميله النصرانى ، وماهى النتيجة إذا كانت جمعية مثل « جمعية اتحاد الطلبه المسيحيين فى العالم يبلغ عدد أعضائها مائة ألف طالب ثم ينتفع بهذا العدد الضخم فى التبشير؟ وبالطبع هؤلاء الطلبه المسيحيون أصبح منهم علماء احتلوا مركز علمية فى العشرينات تقريبا وهى الفترة التى اتجه فيها شبابنا إلى أوروبا بكثرة للتتلمذ على يد الغرب .

لقد كانت النتيجة مارأيناه من تخلخل العقيدة عند من تعلموا فى أوروبا وشغلوا الأمة فترة طويلة ولازالوا .

تعقيب

الشباب المسلم فى ضياع. هذا الأمر لايشك فيه عاقل .

المبشرون هم كل السبب أو بعض السبب . هذا أمر لاشك فيه كذلك

ولكن على من يقع اللوم ؟

هل هم الشباب ؟ لا اعتقد أن منصفا يقول هذا إلا إذا قلنا إن الشاة تلام لأن الذئب أكلها .

إن الشباب وجد نفسه كالكرة تخرج من يد الوالد لتتناولها يد المبشر فأى اختيار له فى هذه العملية ؟ فلما بلغ دور الرشد وجد نفسه فى وسط معين ولايد تمتد إليه فهل تلومه على أنه لم يخرج .

هل نلوم المبشرين ؟ اعتقد أن هذا ممكن إذا كان من الممكن لوم الذئب على أنه أكل الشاة .

إن المبشر حمل أمانة فأداها سواء كان ذلك لعقيدته أم لمنفعته

على من يقع اللوم إذ إذا لم يقع على الذئب ولا على الشاة ؟

اللوم يقع على الحارس الذى تشاغل ولهى عن الشاة حتى وصلها الذئب

من هم الحراس ؟

العلماء والأمراء

ومن السهل جدا أن تبدى عذرك للناس وستجدهم يسكتون إما لتصديقهم لك وإما لأن عندهم مايشغلهم ، وهذه القضية لاتهمهم .

إن إقناع الناس هنا ممكن ، ولكنه ليس المطلوب .

إن المطلوب هو كيف سيكون الجواب أمام الله تعالى ؟

إن هذا هو المشكل حقيقة .

ولا أظن أن العلماء فى نجاة من هذا .

إن شبابنا وقع فريسة فى يد من أوهموه بأن الدين خداع .

يقول : «ك.ك. برج » والعلم بما فى طبيعته من روح النقد ومن عدم اختصاصه بجماعة ما أظهر إلا تدونوس على نقائص الإسلام وكثرة خداعه الدينى .

ومن ثم كان تمسكهم ببعض التقاليد الإسلامية لا يعدو كثيرا مجرد عادات باقية ، وأنا لا أنكر أن علماء أفاضل قد ردوا على كل هذه الافتراءات .

ولكن الشباب هل يمكن القول بأنه رجع إلينا ، أو لا زال نافرا منا وإذا كانت الثانية فهل عرفنا السبب الذى أدى إلى هذه الظاهرة ؟

محاولة زرع الفرقة بين المسلمين

أهم شيء يحرص عليه الإسلام هو الوحدة بين المسلمين ، وسد أي ثغرة يمكن أن تؤدي إلى تفرقهم ، قال تعالى « إنما المؤمنون إخوة »(١) .

ولو تتبعنا ما جاء في الإسلام لتوحيد الأمة لخرجنا عن منهج هذا البحث ؛ ولكن نكتفي ببعض قليل مما جاء في هذا ، فالله سبحانه وتعالى يخبرنا بأن تأليف القلوب نعمة من الله لا يستطيعها الإنسان مهما أنفق في سبيلها قال تعالى « وألف بين قلوبهم لو أنفقت ما في الأرض جميعاً ما ألفت بين قلوبهم ولكن الله ألف بينهم إنه عزيز حكيم(٢) » ، والرسول صلى الله عليه وسلم يرينا أن الشحناء تمنع الإنسان من رحمة ربه يقول صلى الله عليه وسلم « تفتح أبواب الجنة يوم الإثنين ويوم الخميس فيغفر لكل عبد لا يشرك بالله شيئاً إلا رجلا كانت بينه وبين أخيه شحناء فيقال : أنظروا هذين حتى يصطلحا ، أنظروا هذين يصطلحا »(٣) وعن أبي هريرة رضي الله عنه ، قال صلى الله عليه وسلم : « لا تحاسدوا ولا تباغضوا ولا تجسسوا ولا تحسسوا ولا تناجشوا وكونوا عباد الله إخواناً » ، وفي رواية « لا تحاسدوا ولا تناجشوا ولا تباغضوا ولا تدابروا ولا يبع بعضكم على بيع بعض ، وكونوا عباد الله إخوانا ؛ المسلم أخو المسلم لا يسلمه ، ولا يخذله ولا يحقره . التقوى ها هنا ـ ويشير إلى صدره ثلاث مرات ـ بحسب امرىء من الشر أن يحقر أخاه المسلم ، كل المسلم على المسلم حرام : دمه وماله وعرضه(٤) / ، وقال صلى الله عليه وسلم :

---

(١) الحجرات آية ١٠

(٢) الأنفال آية ٦٣ .

(٣) رواه مسلم .

(٤) رواه مسلم .

« إن الله تعالى يقول يوم القيامة : أين المتحابون بجلالى ؟ اليوم أظلهم فى ظلى يوم لاظل إلا ظلى(١) » .

وليست الأخوة التى يريدها الإسلام معنى سلبيا بل هى أخوة إيجابية توجب على المسلمين التعاون يقول صلى الله عليه وسلم :

« من كان فى حاجة أخيه كان الله فى حاجته ، ومن فرج عن مسلم كربة فرج الله عنه بها كربة من كرب يوم القيامة ، ومن ستر مسلما ستره الله يوم القيامة(٢) »

والإسلام يحرس هذه الأخوة ، فيأمر بالتعاون على البر والتقوى والإنفاق فى سبيل الله وملاطفة اليتيم والإصلاح بين الناس وقضاء حوائج المسلمين ويحرم الظلم والغيبة والنميمة وأكل أموال الناس بالباطل ، ويوصى بالجار وتوقير الكبير ورحمة الصغير وزيارة المسلم أخاه فى الله .

وهكذا نجد الإسلام يحمى هذة الأخوة من كل ما يوذيها وكانت النتيجة ما أقربه الأعداء وأدهشهم فى الوقت نفسه من تلك الرابطة التى لاتوجد فى أمة أخرى .

لقد جاء الإسلام إذا لينقذ العالم مما تردى فيه من خلافات كادت تقضى عليه .

وأصبحت ترى العربى والعجمى قد انصهروا فى المجتمع الإسلامى الجديد وامتزجوا متعاونين فيما بينهم ، ولم يكن الخوف من سلطان هو الذى يجمعهم بل كان يجمعهم الحب الحقيقى على نحو فريد لم ينعم به مجتمع من قبل .

وأضحى العربى والمصرى والفارسى والرومى والهندى والصينى أضحوا وقد نسى كل واحد منهم عصبيته ولم يذكر إلا شيئا واحداً هى عقيدته .

---

(١) رواه مسلم .

(٢) متفق عليه .

وبعد أن كان الواحد قبل الإسلام يحب ويبغض لعصبية جاهلية أصبح يحب ويبغض لله .

واذا أخذنا الأمر من وجهة نظر أعداء الإسلام وجدناهم يعرفون هذه الحقيقة وأنها من أهم أسباب نصرهم يقول فيليب حتى فى هذا :

ولا نزاع فى أن الإسلام ألف بين المسلمين ووحد أهدافهم ، وخلق لهم شعاراً جديداً فكان نبراسا لأمانيهم القومية . فزالت المشاحنة والبغضاء ، والتحمت العناصر المتنافرة ، فنشأت بين العرب قوة محركة فعالة(١) .

ويصور « جوستاف لوبون » الإسلام وجمعه بين الشعوب التى تدين به .

فيقول « ويدين بالإسلام فى الوقت الحاضر أكثر من مائة مليون شخص واعتنقته جزيرة العرب ، ومصر وسورية وفلسطين وآسيا الصغرى ، وجزء كبير من الهند وروسيا والصين ، ثم جميع أفريقيا الى ما تحت خط الاستواء تقريبا .

وتجمع بين مختلف الشعوب التى اتخذت القرآن دستوراً لها وحدة اللغة والصلات التى يسفر عنها مجىء الحجيج الى مكة من جميع بلاد العالم الإسلامى .

وتجب على جميع أتباع محمد تلاوة القرآن باللغة العربية بقدر الإمكان ، واللغة العربية هى لذلك أكثر لغات العالم انتشارا على ما يحتمل . وعلى ما بين الشعوب الاسلامية من الفروق العنصرية ترى بينها من التضامن الكبير ما يمكن جمعها به تحت علم واحد فى أحد الأيام »(١) .

وفى مؤتمر لكنو التبشيرى سنة ١٩١١ قال القسيس (ويتبرخت) فى تقريره

« ولنتذكر أيضا أنه وان يكن الاسلام بقى دين الشعوب التى هى دوننا فى

---

(١) تاريخ العرب ص ١٩٥ .

(٢) حضارة العرب ص ١٢٦ ولا شك أنه أخطأ فى جعل عدد المسلمين مائة مليون فقط

المدنية فإن أنصاره نجحوا أكثر من المسيحيين بإزالة الحواجز التى تفصل بين الأجناس(١) » .

هذا هو رأى الأعداء فى الرابطة التى أنشأها الاسلام بين شعوبه .

ويرى الأعداء أن هذه الرابطة تقوم على أسس ثابتة من العقيدة الاسلامية .

وأن هناك عوامل لها الفضل فى توطيد هذه الوحدة ودوامها .

هذه العوامل ـ بعد عقيدة التوحيد ـ كثيرة .

تأخذ منها الحج الى بيت الله الحرام واللغة العربية .

---

(١) عن كتاب الغارة على العالم الاسلامى ص ١٢٣

الحج إلى بيت الله الحرام

يعطى أعداء الاسلام اهتماما كبيرا للحج ويجمعون على أنه من أكبر العوامل في جمع المسلمين .

ثم بعد ذلك يتدارسون فيما بينهم ماذا يجب أن يعملوا ليمنعوا تأثيره عليهم فالحج — كما يقول د . ج كامبفماير — يلعب دوره فى المزج الروحى بين مختلف شعوب الاسلام (٢) .

ويتناول « جب » الحج فى أكثر من موضع مبينا فضله على الأمة الاسلامية فى اختلاطها ووحدتها فهو - كما يرى - أقوى عامل فى توثيق عرى هذا الاختلاط لأنه فرض محتم مرة على الأقل فى العمر على كل مسلم يستطيع إليه السبيل » .

ثم قد يظن البعض أن الحج فقد ميزته فى العصور الحديثة

لهؤلاء يقول «جب» : إن الحج لايزال حافظا ميزته الأولى عاملا على إحياء الحمية الدينية وتقوية الإيمان بالوحدة الاسلامية (٢) .

ثم بين « جب » أن الحج أعظم فروض الإسلام تأثيرا فى تغذية روح الوحدة الإسلامية ، ولا يمكن لمسلم أخذت روحه حظا فى تعظيم عبادة يشارك فيها عشرات الألوف من إخوانه المؤمنين من كل جنس وطائفة (ففى مكة - كما يقول تهدأ أشد العداوات الطائفية حدة . وإن بدا تعصب أحيانا) أن ينسى تلك اللذة العليا التى ذاقها ، وما تميط عنه اللثام من قوة باطنة لدينه ، ومن انتشاره العظيم فى الآفاق وكل من رجع من الحج يشهد لدى جماعته بالوحدة العامة التى تترفع على القوميات الصغيرة ، ويصير مركزا تشع منه حماسة دينية لمثل الإسلام العليا التى تسمو على القومية » .

---

(١) وجهة الاسلام ص ٦٩ .

(٢) نفسه ص ١٤ ، ٢ نفسه ص ٢٢٩

هذا هو رأى (جب) فى الحج يذوق المسلم من اللذة مالا يمكن أن ينساه والأهم أنه بمجرد أن يجد نفسه فى وسط هذه الأجناس المتعددةوقد جمعهم الحج فى مكان واحد دون تمييز، بمجرد هذا ينسى المسلم ماقد يكون فى نفسه من عصبية لجنس أو لون أو لغة ويترفع على القوميات الصغيرة منتقلا إلى الوحدة العامة التى يمثلها هذا الموقف .

ونفس المعنى شعر به « ك . ك . برج » عند كتابته عن أندونيسيا ولكنه يضيف للحج مزايا أخرى هى ميزة التعليم يقول .

« والحج المفروض على كل مسلم أن يقوم به مرة فى حياته- إن استطاع إليه السبيل- والذى أداه ملايين من الأندونوس - رغم أن الشريعة تعفيهم منه لعدم قدرتهم عليه - واستيطان عدد عظيم من الأندونوس أو « الجاوى » - كما يقول أهل جزيرة العرب - فى مكة التى هى المركز المشاع للعلوم الإسلامية والتى جمل الأندونوس إليها حماستهم للحج .

وأثر اللغة العربية فى العمل على الوحدة ، وتشابه طريق التعليم فى كل العالم الاسلامى

كل هذه العوامل جعلت فكرة الوحدة الإسلامية باقية فى المكان الأول حتى بعد أن تم تمزق إمبراطورية الخلفاء إلى ولايات مختلفة (١) .

إن «برج» هنا يذهب - بحق - إلى أن الوحدة الروحية حفظت للعالم الإسلامى وحدته رغم انعدام الوحدة السياسية بتمزق الامبراطورية الإسلامية وعلى رأس عوامل الوحدة الروحية الحج واللغة .

ولكنه يضيف للحج فائدة أخرى لا تقل عما سبق إن لم تفق ، وهو أن الحاج يرجع مزودا بمعرفة أساليب المبشرين؛فلم يعد الحاج ذلك الشخص الذى يضحكون عليه بقطعة شاش أو بعض الهدايا ، إنه أصبح يعرف كل الحيل التى يحتال بها عليه

---

(١) نفسه ص ١٦١

لاخراجه عن دينه ، ولن يضحك عليه أحد بعد اليوم ومن ناحية أخرى سيحذر قومه .

وبذلك يصبح الذى أدى فريضة الحج - كما يقول « ك . ك . برج » راسخ القدم فى معرفة الأساليب الماكرة التى تجرى عليها حكومة هولندا ، وهو يعرف كيف يحذر أبناء وطنه من الخطر المسيحى حينما يرجع إلى أندونيسيا (١) .

بذلك وجد المبشرون أنفسهم أمام عقبات سببها لهم الحج بعد أن كانوا يظنون أنفسهم بدون رقيب على أكاذيبهم .

ويأتى « ستودارد » يبين أن المسلمين تجمعهم الخلافة،والحج، وأن البعض يظن أن الخلافة أبعد أثرا فى وحدة المسلمين من الحج ، ثم بين أنه ضد هذا الرأى ويميل إلى أن الأمر على الضد، وأن الحج أبعد أثرا ، ثم يأخذ فى بيان أسباب حكمه هذا فيقول .

« إن الوحدة الاسلامية إنما هى قائمة على ركنين هما أساساها ولا ثالث لهما : الحج إلى بيت الله الحرام فى مكة المكرمة ،والخلافة .

وقد غلب على وهم الكثيرين من رجال الغرب وهم فى هذا الموضوع ، فهم ما برحوا يخالون الخلافة لا الحج العامل الأكبر والأشد الذى بسببه يتشارك المسلمون ميولا وعواطف ، تشاركا مؤديا إلى اعتزاز الوحدة ، وازدياد منعتها وامتدادها وانتشارها .

على أن هذا لمن الوهم الصرف ، فالأمر حقا على الضد منه .

إن محمدا صلى الله عليه وسلم قد فرض الحج على من استطاعه ، فرضا مقدسا ولذلك مازالت مكة المكرمة حتى اليوم مجتمعا يجتمع فيه كل عام أكثر من مائة ألف حاج وافدين من كل رقعة من رقاع العالم الإسلامى .

---

(١) نفسه ص ١٩٨

وهناك أمام الكعبة المقدسة فى مكة المكرمة يتعارف المسلمون على اختلاف الألسنه والأجناس ، ويتباثون العواطف الدينية ، ويتباحثون فى الشئون الإسلامية ، ثم ينقلبون إلى أوطانهم نائلين لقب « الحاج » لقبا يعرف صاحبه بالتقوى فيجله إخوانه المسلمون ، ويعلون منزلته بينهم ما دام حيا .

فالمقاصد والأغراض السياسيه التى ينالها المسلمون على يدالحج الممهد لها السبيل إنما هى معلومة ،لاتحتاج إلى كبير إيضاح .

بل يكفى أن نقول : إن الحج إنما هو المؤتمر الإسلامى السنوى العلم . فيه تتباحث الوفود الاسلامية ، والنواب المسلمون الطارئون من أقطار المعمور الإسلامى كافة ، فى مصالح الإسلام ، وفيه يقوم هؤلاء بوضع الخطط ورسم الطرائق للدفاع عن بيضة الإسلام ، والذب عن حياض المسلمين ، ونشر الدعوة فى سبيل الرسالة .

وفى هذا المؤتمر العظيم كانت قلوب قادة اليقظة الإسلامية وأبطالها ، تشعر بجلال الواجب الإسلامى المقدس ، وتتقد من خطورة المشهد وروع المحفل غيرة على الإسلام والمسلمين (١) » .

هذه ابعض الفوائد التى ينالها المسلمون من الحج .

إن الحج إلى بيت الله الحرام يفيد العامة من الناس كما يفيد الزعماء حول الكعبة التقى الزعماء فازدادوا معرفة بواجبهم الملقى على عاتقهم والتقى العامةفعرفوا من أنباء العالم الاسلامى ما كان ممنوعا عنهم وهم فى بلادهم ، حيث تقييدالحريات ، ومراقبة الكلمة .

وإذا ما جلس المسلم وسمع حكايات النصر قديما وحديثا تفاءل بنصر قريب من هنا نجد الأعداء يصرحون علنا بأن الواجب إنما هو منع الحج إلى بيت الله الحرام حتى يضمنوا عدم القلاقل فى مستعمراتهم .

---

(١) حاضر العالم الاسلامى ص ٣٨٩ ج ٣ .

ومن أصحاب هذا الرأى « روجر لابون » يقول مناديا بمنع الحج مبينا السبب : « ولا تنس حج مكة ، فإنه فى الآونة الحاضرة يؤثر تأثيرا مضرا بين رعايانا المسلمين »

ومع هذا فالبعض غافلون عن منع حج رعايانا إلى مكة ، وعما يحدثه هذا السفر من أسباب تشويش أذهانهم ، لما يستمعون فيه من الأخبار الملفقة عن وقائع البلاد الاسلامية .

فتى آبوا إلى ديارهم عادوا أقل ميلا إلينا .

فإن الحاج يسمع فى الحجاز أنباء عن جميع العالم لم تطبع فى صحيفة ، والأوربى مصور فيها بشكل ظالم غاضب (نستغفر الله . . .) لاتحصى سيئاته .

والمسلم مصور بشكل غالب ظافر ، لابد أن يأخذ بثأره ،

كما أن الطوائل التى أحرزها بعض الشرقيين تروى هناك بالمبالغة والغلو .

ويتفاءلون فيها بعودة الأيام التى كان فيها العلم الأخضر منصورا خفاقا فوق رءوس الأمم المغلوبة . .

وكل هذه الوقائع تبرز فيها قوتها المخيلة الشرقية بشكل رائق رائع .

فيذهب الحاج من مستعمراتنا أمينا لنا ، ويعود غير ما ذهب : بل تتبدل نفسه ويصير مبتهجا بنصرة أبناء ملته ، وتقوى فيه روح التضامن الإسلامى فيفرح بفوز أتباع محمد ، ويتمنى لهم الظفر النهائى .

وبعد إيابه إلى وطنه يستحيل ألا يلقى الى بعض أهل بلده — ولو نجيا — ما سمعه فى مكة .

وحيث يكون نال لقب حاج فلا بد له من الاجتهاد فى اثبات أهليته لهذا اللقب،هذا عدا ما يحمله من القصائد ، والجرائد والحماسيات التى يوزعها على أبناء وطنه ، وان كان يعرف الكتابة راسل من تعرف بهم من الحجاج مكرراً لهم

آيات الكتاب المقدس حول الحجر الأسود »[1] .

هذه ـ في رأيه ـ هي الفوائد التي توجب منع المسلمين من الحج الى بيت الله الحرام.

ونحن قد لا نلقي اليها بالا ، بل ربما شاركنا في الحملة ضد حجاج بيت الله الحرام مسندين اليهم من الصفات السيئة ما هم براء منه

والفوائد التي تعود على المسلمين بعد الحج هي نفسها سيئات في نظر (لابون) وبني جنسه ، ولذلك تراه يعاتب قومه على عدم منع الحج ؛

ويبدو من كلامه أن المعظم يوافقه على رأية ولا يخالفه إلا البعض الذين يقول عنهم :

(ومع هذا فالبعض غافلون عن منع حج رعايانا إلى مكة) .

وإذا كان رأى الأجانب في الحج هكذا فإن الإنسان تأخذه الدهشة عندما يرى تلاميذ الغرب يهاجمون الحج .

وسبب الدهشة ليس لأنهم هاجموا ركنا من أركان الاسلام فقد سمعنا منهم في هذا الكثير ، ولكن سبب الدهشة أنه بينما يحاول أسيادهم منع الحج لفوائده على المسلمين وإضراره بأعدائهم بينما يحاول الأعداء هذا نرى تلامذتهم من بني جلدتنا يوافقونهم وإذا سألت ما هو السبب الحقيقي نجد : لا جواب : وإذا فالسبب الحقيقي أنهم مأجورون للاضرار بدينهم عن عمد إرضاء لأسيادهم أي ليتهم كفروا بالأصالة

---

(١) نفسه ص ٣١٩ ج ٢ .

اللغة العربية

قبل الإسلام كانت اللغة العربية تكاد تكون محصورة فى الجزيرة العربية ، ولما جاء الإسلام وكتابه القرآن الكريم ـ وجدنا اللغة العربية تنتشر مع انتشار الإسلام حتى أصبحت الآن وقد تجاوزت مابين المحيط والخليج وأصبحت شعوب هذه المنطقة تتفاهم بلسان واحد .

فالمغربى والعراقى إذا التقيا لايجدان صعوبة فى التفاهم ولا يحتاج أحدهما إلى لغة أخرى كى يتفاهم مع صاحبه .

وهذه ميزة كان الفضل فيها للقرآن الكريم . فالمسلم الجديد يريد أن يكون على صلة بقرآنه ، ويجد من دينه دافعا على ترك لغته الأولى ، وتعلم اللغة العربية لغة القرآن الكريم . مهما كانت أصالة هذا المسلم فى حضارته . وقد أقر الأعداء بهذا معترفين بفضل الإسلام فى هذه الناحية وميزة العرب الذين أنشأوا — كما يقول « جوستاف لوبون » ـ بسرعة حضارة جديدة كثيرة الاختلاف عن الحضارات التى ظهرت قبلها ، والذين تمكنوا من اجتذاب أمم كثيرة إلى دينهم ولغتهم فضلا عن حضارتهم الجديدة »(١)

وحتى بعد أن تخلى العرب عن مركز الصدارة وخلفهم غير عرب وجدنا هؤلاء الخلفاء يعينون « على نشر نفوذ العرب وأن أمما قديمة قدم العالم كالمصريين والهنود اعتنقت ماجاءها به العرب أو ورثتهم من الحضارة والدين واللغة(٢)» .

ولما كانت اللغة هى وسيلة نقل الأفكار وجدنا الأعداء يعترفون بسهولة وسرعة انتشار الأفكار فى العالم الإسلامى، وأن سبب هذه السهولة هو «أن العربية — وهى لسان الإسلام غير مدافع — كما يقول الدكتور « ج . كامبفماير » — تدرس وتعرف حق المعرفة فى العالم الإسلامى كله ، من المحيط الأطلسى إلى الهند

(١) حضارة العرب ص ١٣٥ (٢) نفسه ص ١٨٠ .

وجاوة ، وبذلك تسهل انتشار الحركات الروحية انتشارا يتجاوز بكثير حدود البلاد التى تنشأ فيها »(١).

فابن العراق اليوم مثلا وإن لاقى بعض الصعوبة فى فهم لغة المراكشى العامية فهو لا يجد شيئا من الصعوبة فى فهم لغة مراكش المكتوبة لأن اللغة التى يكتبها القوم سواء فى العراق أوفى مراكش — أوفى الشام والجزيرة ومصر أيضا — هى اللغة الأدبية نفسها التى سن طريقها القرآن ، وسار عليها الكتاب العرب فى كل مكان »(٢).

إن هؤلاء الاعداء يدركون أن المسلم من العراق حين يلتقى بمسلم مراكش يستطيع أن يتفاهم معه ، صحيح قد يصعب التفاهم بالعامية ولكن هذه الصعوبة تزول باستعمال الفصحى ، وإذا كان انتشار اللغة العربية هو سبب التقاء المسلمين وسهولة التفاهم هكذا فإن القرآن الكريم هو سبب انتشار اللغة العربية إذ بفضله وحده — كما يقول « فيليب حتى » — اتحدت اللهجات المختلفة للشعوب التى تتكلم العربية ، فهو الذى حال دون تطورها إلى لغات قومية مختلفة كما جرى للغات الرومانية المتحدرة من اللاتينية .

وفيليب حتى وأمثاله يدركون ما أصاب أوروبا من تعدد لغاتها إلى فرنسية وإنجليزية وألمانية .إلخ . فقد أصبح لأوروبا لغات بعدد دولها ، وقد سبب لها هذا مصاعب لا حصر لها فالألمانى إذا مشى بضعة أميال ودخل فرنسا عجز عن التفاهم مع الفرنسى إن لم يكن أحدهما يعرف لغتين على الأقل لغته ولغة صاحبه .

والذين اضطرتهم ظروفهم إلى الهجرة من دولة أوربية إلى دولة أوربية أخرى يشكون مر الشكوى من اختلاف اللغات ، فلغتهم تختلف مع لغة الدولة التى هاجروا إليها وعليهم أن يتعلموا لغة جديدة وهناك عقبات دون اتقان اللغة الجديدة كأهلها ، والأولاد الصغار ينشئون بين لغة آبائهم فى المنزل ولغة إخوانهم

---

(١) وجهه الإسلام ص ٦٩ .

(٢) تاريخ العرب ص ١٧٥ جـ ١

فى المدرسة ، يذهبون إلى المدرسة ليتلقوا علومهم بلغة المهجر فاذا ما رجعوا إلى المنزل تكلموا بلغة آبائهم .

وبمرور الزمن يبتعد المهاجر — وخاصة أولاده — عن لغته الأصلية فإذا ما أراد أن يرجع إلى وطنه الأصلى وجد نفسه ابتعد عن لغة قومة ، أما أولاده فقلما يستطيعون التفاهم مع أهليهم فى الوطن الأصلى وكالمهاجر السائح ، ومن هنا نجد الدول الأوربية تحاول التغلب على صعوبات تعدد اللغة بطبع مجلات إرشادية بعدة لغات تخاطب بها شعوبا أوربية.

ونقول إن الدول العربية قد كفيت شر تعدد اللغات ، هذه نعمة من الله شعر بها عدوها قبل أن تشعر هى بها .

محاولة القضاء على اللغة العربية

تقدم لنا أن الأعداء يعرفون الفائدة التي تعود على العرب باستعمالهم جميعا لغة واحدة ، وأن هذه اللغة سبب وحدتهم ، قد لا تكون السبب الوحيد ولكنها من أهم الأسباب .

واجتماع العرب هكذا أمر لا يرضى الأعداء ، إنهم يريدونها أمة مفرقة ولا يريدونها واحدة ، وهم أنفسهم يصرحون بهذا .

يقول الأستاذ « دومنير » :

« من الخطر أن نترك كتلة ملتحمة من المغاربة تتكون ولغتها واحدة وأنظمتها واحدة .

لابد أن نستغل لفائدتنا العبارة القديمة « فرق تسد » .

أما كيف يستطيع تطبيق مبدأ « فرق تسد » فهو نفسه يشرح هذا بقوله : « إن وجود العنصر البربرى آلة مفيدة لموازنة العنصر العربى ويمكننا أن نستعمله ضد (المخزن) نفسه .

ويعترف هذا المؤلف نفسه بأن اللغة العربية هى اللغة الاقتصادية والدينية والإدارية بالمغرب ، وأما البربرى فيعتبرها لغة عليا ولذلك يجب أن تقوم اللغة الفرنسية لا البربرية مقام اللغة العربية كلغة مشتركة وكلغة للمدنية »(١).

إنهم هنا يعرفون قيمة اللغة فى حياة الأمم وأن بقاء اللغة العربيه لغة للعرب والبربر معناه بقاء كيانهما محفوظا تحت وحدة جامعة هى وحدة اللغة .

من هنا نجد « الفرنسيين - كما يقول الدكتور « ج . كامبفماير » - لايحبون نهضة اللغة العربية فى مراكش ولا سيما بين البربر ، هؤلاء البربر الذين يخالفون

---

(١) دفاع عن الشريعة - علال الفاسى ص ١٦٣ — ١٦٤

العرب جنسا ولغة ،ويكونون كتلة قوية من السكان تبلغ سبعة ملايين يسكنون الأقاليم الجبلية من البلاد وهم مسلمون بالطبع ، بل قد كسبوا دوراها مافى التاريخ الإسلامى فى العصور الوسطى »(١).

وهم يعتبرون أن محاربة اللغة العربية أمر له وزنه إنه بالنسبة لهم مسألة حياة أو موت .فاذا مانجحوا فى قتل اللغة العربية فقد نجحوا فى إزالة الخطر الذى يتهدد وجودهم .

يقول : « روجر لابون » بعد أن عدد المخاوف التى تتهدد وجود الفرنسيين يقول :

هذه على وجه الإجمال العوامل المضره التى سلطنتنا الإفريقية معرضة لها . ولا تقاء ضررها وصف الناس أدوية كثيرة منها علاج جمع كل الآراء وهو : نشر اللغة الفرنسوية ، فهو أمر ضرورى وهو رأى « لوشاتليه » الذى يقول: يوم لا يبقى اللسان العربى هو لغة التجارة فى أفريقيا لايبقى خطر من جهة الإسلام لأن مدارسة تصير قفرة »(٢) .

انه هنا يرى أن نشر اللغة الفرنسية مكان العربية هو عامل الأمان والعجب أنه يخبرنا بأن هذا الدواء - كما سماه - حصل على جميع الآراء .

إننى أسوق هذا لهؤلاء الذين يريدون منا ترك لغتنا إلى اللغات الأوربية بحجة أن هذا يتفق والمدنية ، وإذا كان الدعاة إلى هذا الرأى منا فإنهم ليسوا إلا أبواقا لسادتهم - كما سيأتى - .

أما كيف تحل الفرنسية محل العربية فالاقتراحات كثيرة منها :

انتهاز فرصة وجود الجنود المغاربة فى المعسكرات وهى - كما يقول «لابون» - « أحسن فرصة من كل المعلمين الذين يريد « بيتغر » ارسالهم إلى غربى أفريقيا ،

---

(١) وجهه الإسلام ص ٨١ والمراد بالمخزن الحكومة

(٢) حاضر العالم الاسلامي ص ٣٢٩ ج ٢

والذى حصل اليوم امن النجاح - كما يقول - فى هذا الباب ليس بالقليل »(١).

هذا فى جانب العسكريين ، أما فى جانب المدنيين فيخبرنا « علال الفاسى » عن ذلك بقوله :

« فيما يختص باللغة العربية فقد صدرت المنشورات « المقيميه » التى تفرض على أعضاء المحاكم العرفية استعمال اللغة الفرنسية فى جميع الوثائق والمستندات وقد صرح المحامى «بيكار» فى جلسة عقدتها اللجنة المكلفة بدرس نظام العدلية البربرية بتاريخ ٢٦ فبراير سنة ١٩٣٠ : أن أعضاء هذه اللجنة متفقون جميعا على عدم تسجيل أحكام المحاكم العرفية باللغة العربية .

وقد وقع فى ذلك الحين أن المراقب المدنى (بنوط) وخليفته (كورنبى) فى ناحية « تازه » أخذا يمزقان الرسوم العدلية المكتوبة باللغة العربية إذا أدلى بها المتداعيان أو أحدهما ، وقيل ذلك وقع فى عدة جهات أخرى حتى أصبحت رسوم الزواج نفسها تسجل باللغة الفرنسية)(٢).

وبذلك يجد المدنيون أنفسهم مضطرين لتعلم اللغة الفرنسية لأن شئونهم أصبحت معلقة بهذه اللغة ولم تعد هناك حاجة للغة العربية .

أى أن الحرب كانت تسير ضد اللغة العربية فى الوقت الذى يفسح فيه المجال للغة الفرنسية لتحتل أماكن جديدة لتخلى بالتالى اللغة العربية مكانها .

وتوثيق عقد الزواج بالفرنسية يدل على أن هذه اللغة دخلت أخص شئون المسلمين ، والتى لا يستطيع أحد أن يستغنى عنها .

وإذا كان القرآن الكريم هو الذى يحفظ اللغة العربية من الضياع ويزيد فى انتشارها ، إذا كان ذلك كذلك فان العدو قد وجه حربه ضد القرآن الكريم بترجمته من العربية إلى الفرنسية وليس لأهل فرنسا بل لأهل المغرب .

---

(١) نفسه ص ٣٢٣

(٢) دفاع عن الشريعة ص ١٦٣

يقول (لويس ماسنيون) وهو يتكلم عن حركات إصلاحية فى المغرب :
« وهناك مثال آخر هام يدل على هذه المحاولة التى ترمى إلى جعل اللغة الفرنسية أداة الفكر الإسلامى لا فى الناحية السياسية فقط بل فى الناحية الدينية أيضا .

ذلك هو ترجمة القرآن إلى الفرنسية التى قام بها حديثا (أحمد لميش) هذه الترجمة وإن لم تبلغ الذروة فى الجوده تمتاز بترجمة للقرآن يحوطها التقديس ، وبشعور إسلامى صادق ينطقان بالفرنسية)(١) ،

وبذلك تكون اللغة العربية قد غزيت فى معقلها وأصبح من الممكن أن نقول ماذا بقى لها ؟

وكل هذا لم يكف أعداء العربية لأنهم وجدوا أن الباقى منها لازال محافظا على جوهره لذلك فكروا فى تغيير طريقة الكتابة من الحروف العربية إلى الحروف اللاتينية ، إلا أنهم فشلوا هنا فشلا يعبر عنه (لويس ماسينيون) :

(إن روح المحافظة بها — مراكش — بمالها من صلابة ومن سلطان مطلق يسيطر على الفكر الإسلامى فى المغرب ، تجعل أحدا لا يفكر فى مسألة استعمال الحروف اللاتينية ، على أن هذه المسألة تعتبر فى المشرق بل فى الشرق العربى مسألة فيها نظر)(٢).

هذا بالنسبة للمغرب .

وأما فى بقية العالم الإسلامى فقد كانت تحارب اللغة العربية بطرق مختلفة تختلف باختلاف الأماكن .

ففى تركيا وجدنا المناداة باللغة التركية لتحل محل العربية فى كل شىء .
حتى فى الآذان والقرآن يقول الشاعر (ضيا التركى) :

(إن الأرض التى يجلجل فيها صوت المؤذن للصلاة باللغة التركية ، والتى يدرك فيها المصلون معنى مايتلون فى صلواتهم .

---

(١) وجهة الاسلام ص ٦٠ (٢) نفسه ص ٦٦ .

والأرض التى يعلم فيها القرآن باللغة التركية .

وحيث يفهم كل إنسان فهما واضحا . كبيرا كان أو صغيرا . أوامر الله يا ابن تركيا هذه الأرض هى وطنك(١).

وكانت الدعوة إلى اللغة التركية وإحيائها شديدة إلى درجة أن أصحاب هذه الدعوة لايطيقون أن يروا فى لغتهم كلمة عربية ويدعون إلى تصفية اللغة التركية من هذه الكلمات والاعتياض عنها بألفاظ تركية مهملة لعدم استعمالها بين الأتراك العثمانيين .

وفى مصر كانت اللغة تحارب بايجاد منافس لها وهو اللغة العاميه وكانت فى نفس الاتجاه تسير الدعوة لاستعمال الحروف اللاتينية بدل العربية وما دامت الغاية للعدو محاربة الوحدة فأنه باتخاذ اللغة العامية تصبح البلاد العربية عاجزة عن التفاهم مع بعضها لأن لكل شعب عاميته .

والدعاة إلى العامية فى مصر لم يكن فيهم صراحة الفرنسيين فى المغرب ، فلم يصرحوا بأن دعوتهم من أجل تفكيك وحدة المسلمين كما قال الفرنسيون، بل كانت حجتهم أنه باستعمال العامية يمكن مسايرة النهضة .

وقد بدأ الدعاة إلى العامية فعلا فى تنفيذ مايرون ، وإبراز المسألة فى قالب علمى.

فقد وضع الدكتور (ولهلم سبيتا) كتاب (قواعد العربية العامية فى مصر ، وفى هذا الكتاب انبعثت الشكوى من صعوبة العربية الفصحى .

وفى هذا الكتاب أيضا وضع اقتراح اتخاذ الحروف اللاتينية لكتابة العامية ، تلك الحروف التى تودى باستخدامها فيما بعد لكتابة العربية الفصحى)(٢).

وأراد المؤلف أن يبين إمكان هذا لجأ. بعبارات عربية مكتوبة بحروف لاتينية وقد وضع جدولا يبين فيه الحروف اللاتينية التى اقترحها لكتابة

---

(١) عن تجديد الفكر الدينى محمد اقبال

(٢) تاريخ الدعوة الى العامية وآثارها فى مصر ص ١٨

العامية(١) ويدافع عن فكرته بحرارة ويدعى أن ذلك من أجل مصر فيقول :

(وأخيرا سأجازف بالتصريح عن الأمل الذى راودنى على الدوام طول مدة جمع هذا الكتاب .

وهو أمل يتعلق بمصر نفسها ويمس أمرا هو بالنسبة إليها وإلى شعبها يكاد أن يكون مسألة حياه أو موت .

فكل من عاش فترة طويلة فى بلاد تتكلم العربية يعرف إلى أى حد كبير تتأثر كل نواحى النشاط فيها بسبب الاختلاف الواسع بين لغة الحديث ولغة الكتابة)(٢).

وبعد أن يبين عذاب طالب الابتدائى والثانوى فى اللغة يقول :

(وطريقة الكتابة العقيمة أى بحروف الهجاء المعقدة يقع عليها بالطبع أكبر قسط من اللوم فى هذا)(٣)

وبالطبع هو يتظاهر بالعطف على طلبة الابتدائى والثانوى وفى الحقيقة هو لم يقصد إلا القضاء على الفصحى ، وما ذكره من أسباب نوع من الخداع .

وفى نفس الطريق سار ميخائيل الصباغ الذى كان يقوم بتدريس العربية ولهجاتها بباريس وقام هذا بتأليف كتاب : (الرسالة التامة فى كلام العامة ، والمناهج فى أحوال الكلام الدارج)

فقد (استعان الأوربيون أولا بمن يعملون فى بلادهم من المصريين أو السوريين الذين عاشوا فى مصر للتأليف فى اللهجة المصرية)(٤) .

وقام (ولكوكس) - وهو مهندس انجليزى - يدور محموم فى الدعوة الى العامية فألقى محاضرة سنة ١٨٩٣ بناها على أن المصريين لم يتقدموا فى الاختراع والسبب هو تمسكهم بالفصحى وأنهم لو تركوا الفصحى لأمكنهم التقدم مثل أجدادهم

---

(١) بتصرف هامش الصفحة المذكورة
(٢) نفس المصدر ص ٢٠
(٣) نفسه ص ١٠
(٤) نفسه ص ١٢

وفى سنة ١٩٢٦ نشر (ولـكوكس) رسالة بعنوان سوريا ومصر وشمال أفريقيا ومالطة تتكلم اليونانية لا العربية) زعم فيها أن اللغه التى يتكلمها الناس من حلب الى مراكش بما فى ذلك مالطه هى اللغة الـكنعانية الفينيقية أو البونية وخص مصر بالبونية لأن كلمة Punic تشبه كلمة Fenek التى كان يطلقها قدماء المصريين على الفينيقيين .

كما زعم أن اللغة البونية التى هى أساس لغة الحديث عندنا لا صلة لها بالعربية الفصحى ، فقد دخلت مصر قبل أن تدخلها الفصحى بألفى سنة وأنها انحدرت الينا من الهـكسوس الذين أقاموا فى مصر نحو خمسمائة سنة والذين انتشرت لغتهم فى أقطار عديدة حول مصر حتى بلغت مالطة ، وأخذ يتلمس الوسائل والشواهد لتدعيم زعمه هذا(١).

---

(١) نفس المصدر ص ٣٨ ـ ٣٩ ووليم ولـكوكس هو الذى أشرف على عمل خزان أسوان سنة ١٨٩٨ ـ ٢ ٩ [عن تاريخ الشعوب الاسلامية بردكلمان ص ٧١٤]

ثانيا

مستغربون :

تقدم أن الأجانب لا يرضون أن يقفوا وحدهم فى أى عمل ضدنا بل يجدون - وينجحون - فى العثور على أصدقاء لهم من بيننا يتكلمون نيابة عنهم بما يريدون وهذه القاعدة لم تتخلف هنا .

فقد وجدنا أن الدعوة إلى القضاء على اللغة العربية لم تكن خاصة بالأجانب بل عاونهم الكثير منا .

ونضرب مثلا لهذا .

سلامه موسى وعبد العزيز فهمى :

أقام سلامة دعوته على أسس أراد منها أن تكون جسوراً على الخندق الموجود بين الغرب والشرق .

من هذه الأسس .

(ا) أن المستعمر ليس كل الغرب وإنما هناك من الغربيين من يكره الاستعمار وأن « فى هذه الأمم الأوربية طوائف تعرف ولا تنكر أن الاستعمار جريمة .

وقد كتبت - كما يقول - عن الطلبة الذين احتفلوا فى باريس بيوم ٢١ فبراير وهو يوم نهوض الطلبة المصريين ، وانضمام العمال المصريين إليهم حين هبوا فى مظاهرة تستنكر الاستعمار وتطالب بالاستقلال إلى أن وصلوا إلى ميدان قصر النيل فخرج إليهم الجنود الإنجليز فقتلوا منهم وجرحوا .

وقد أصبح هذا اليوم - كما يقول - عيداً عالمياً . هو رمز الكفاح من أجل الحرية ، والاستقلال ضد الأمم الاستعمارية .

ثم يقول : إن فى أوربا أناساً طيبين يستنكرون الاستعمار » .

(ب) التشكيك فى القائمين على اللغة العربية وكان فى تعليقاته هنا بعيداً عن عما يليق بكاتب يرعى المنهج العلمى ، بل كان بعيدا عما يليق به، وهو المسيحى الذى يخاطب مسلمين ، فعندما أراد أن يعترض على القدامى تعرض للدميرى فى حياة الحيوان ووجه عدة اعتراضات منها :

« إنه ـ أى الدميرى ـ يرى أن الغاية الوحيدة للمعارف هى خدمة الدين ، ولذلك لا ينسى عندما يتكلم عن البرغوث أو الصرصور أن يقول : هل أكلهما حلال أو حرام » .

ثم يقول « إن المعرفة عنده ليست ثقافه يقصد منها إلى غاية معينة وإنما هى حقائق تحتشد فى ذهنه بلا نظام أو قصد . حتى لقد أدمج فى حياة الحيوان تراجم الخلفاء ، وتكلم فيه عن الطب والشريعة والصرف والنحو والفلك » .

ومما يضايق سلامة موسى أن الدميرى « ينظر إلى السلف كأنهم المثل الأعلى ويعتمد فى معارفة على رواية الكتب القديمة » .

ثم يصفه بالجرى وراء الخرافات لأنه (يتكلم أحيانا عن السحر والعفاريت كأنها حقائق ملموسة [1]) .

وأعتقد أن أى نظرة إنصاف تبين أن سلامة موسى يضحك على العقول فى كلامه ـ ولا داعى لاستعمال ألفاظ لا تليق بالبحث العلمى كما فعل —

---

(١) ما هى النهضة ص ٢٤ وهو يتناقض مع نفسه لانه حينما يتعرض لكتب المطالعة التى يجب أن تكون بأيدى التلاميذ يقول : « يجب أن تتناول كتب المطالعة فى المدرسة والبيت موضوعات البيولوجيا والاجتماع والتراجم والكيمياء والفلكيات والاقتصاد والصناعة .

وهذا مايحويه — على الأقل ـ كتاب الحيوان للدميرى ، فلماذا كل هذه الحملة ولكنه متضايق من ارتباط اللغة بالدين ويرى أن قصر دار العلوم علي المسلمين دليل على أن الحكومة المصرية رأت ارتباط اللغة بالدين نفسه ص ٧٣ .

لأن كتاب الدميرى والجاحظ مثلا كانت أشبه بدوائر المعارف الآن نتناول الموضوع من جميع نواحيه ، وهناك الكتب المتجهيه التى لا تخرج عن المنهج فلم لم يذكرها ككتب عبد القاهر فى البلاغة وسيبويه فى النحو وأمثال ذلك كثير ؟

ثم النظرة إلى السلف على أنهم المثل الأعلى أمر يشرف ونعتز به .

أما قوله ويعتمد فى معارفه على رواية الكتب القديمة فهو مخطئ فقد اعتمدوا على الوسائل العلمية التى كانت ميسرة لهم، والباقى اعتمدوا فيه على الغير مع الحرص الشديد فهل يريد أن يقارنهم بباحثى القرن العشرين .

وأما قوله : إنه يتكلم أحيانا عن السحر والعفاريت كأنها حقائق ملموسة . فإننى أقول له : إنه لم يصل إليه مافى أوربا الآن من خرافات فى هذا الموضوع أو وصل وكتمة عنا .

فإذا ما انتقل إلى القائمين على اللغة العربية فى العصر الحديث فانه يستعمل العبارات التى أترك للقارىء الحكم بأنها هل تليق ببحث علمى ؟

إنه يرى أن هناك طبقة تحاول بعث اللغة العربية على (حين كان يجب عليهم لو كانوا على وجدان بالعصر الحديث أن يدفنوها . ومعظم هذه الطبقة يتألف من معلمى اللغة العربية فى مدارسنا[١] .

ثم يبين أننا تركنا القفطان والملابس الفضفاضة إلى البنطلون ولكن (كما أن عندنا ناسا لا يزالون يتعلقون بالملابس الشرقية الفضفاضة لأنهم يحبون حياة الدعة ولا يحتاجون إلى نشاط كذلك عندنا ناس يكرهون الحروف اللاتينية لأنهم لم يقرءوا كتابا واحدا فى العلم طيلة حياتهم فلا يفهمون معنى الدقة العلمية فى التعبير .

---

(١) البلاغة المصرية ص ٨

وهؤلاء أيضا عبء علينا ، وحجر طاحون معلق بأعناقنا يعوق ارتقاءنا[1])
وهكذا إما أن يوافقوه على ترك لغتهم واما أن يرميهم بهذه الأوصاف ثم يقول
« ولأننا نجهل العلم نجد ناسا فارغين يتحدثون عن الأدب كما لو كان شعوذة ولهوا
بل إن منهم من يجد العلم فى تصغير محطه إلى (محيططه) . وقلب الواو ياء .
ووصف الخادمة بأنها خادم فقط بلا تاء .

وكأن هذه الشعوذة هى رسالة حياتهم فى هذه المدنية .

أما صنع طائر تستولى على السماء ، أو الاستعداد لغزو القمر ، أو إطالة
عمر الانسان الى مائتى سنة أو إلغاء حرارة الصيف وبرودة الشتاء من المدن
أو زراعة البحار . أو صنع اللحم من الخشب ، كل هذا عندهم هراء صبيان ،
وانما الجو الخطير فى حياتنا أن تعرف أن تصغير محطة هو محيططة[2]) .

والرد على هذا الكلام ببساطة : كل عالم يبحث فى تخصصه ولم نر مدرسى
اللغة العربية يقولون لمدرسى العلوم ان عملكم هراء .

وأما الباقى : هل يريدها لغة بلا قواعد فى الوقت الذى يقولون فيه ان كل
شىء له قواعد حتى الرقص وتناول الطعام ومقابلة الضيف . الخ .

إنه يريد أن يلغى النحو فلا داعى اليه ويقول : يجب أن نقتصر من تعليم
اللغة العربية فى مدارسنا الابتدائية على تمكين التلميذ من المطالعة والفهم بلا حاجة
الى أية قواعد خاصة بالنحو ، وليس عليه من حرج أن يقرأ فيرفع المفعول
وينصب الفاعل ما دام يفهم ما يقرأ ، حسبه أن يسكن آخر الكلمات كما نفعل
نحن حين نقرأ ، وبدلا من هذه القواعد اللغوية يجب أن يتعلم الصبى أكبر مقدار
مستطاع من الكلمات التى ترد فى الجريدة والمجلة والمتجر والمصنع والدكان والمنزل
أما فى المدارس الثانوية فنشرع فى تعلم أقل ما يستطاع من قواعد النحو ، ولا

---

(١) نفسه ص ١٥٩ .
(٢) نفسه ص ١٦٢ — ١٦٣

ولا تبالى بالأعراب الذى أثبت الاختبار أنه لا فائدة منه بتاتا . (١)

وأى انسان يقوم بمحاولة لإحياء اللغة العربية هو متهم « من سلامة موسى » وحيثيات الاتهام تتلف فاذا كان المجمع اللغوى يتجه الى ترجمة الكلمات العلمية الى عربية فهو مجهود ضائع بل اتهم من يحاول هذه الترجمة بأنه يعمل من حيث لا يدرى على تأخير نهضتنا العلمية .

وهذا ما يفعله المجمع اللغوى .

ألم ينشأ المجمع اللغوى فى عصرنا الزراعى الاقطاعى (٢) .

ثم يقول عن المجمع أيضاً :

(نحن فى نهضه كبيرة أو صغيرة فى كل شىء الا فى العلم ، لأن مجمع اللغة العربية يقاطع الكلمات العلمية ، ويصر على الترجمة دون التعريب وأيضا يعارض فى جعل الهجاء العربى بالحروف اللاتينية .
ثم يقول إن قلبى يبكى لهذه الحال (٣) .

فاذا ما انتقل من المجمع اللغوى الى مدرسى اللغة العربية فهم ـ على رأيه ـ قد وقفوا فى أماكنهم وأخذوا يدافعون عن اللغة على وضعها ، لا لأنهم أصحاب مبدأ ، بل دفاعا عن وضعهم الاقتصادى يقول فى ذلك :

« وأعظم المعاكسين هم الذين تخصصوا فى درس اللغة العربية ، مثل خريجى دار العلوم فان تخصصهم هذا قدحال بينهم وبين دراسات بشرية عديدة ، فضاقت آفاقهم ، وصاروا ينظرون الى لغتنا كما لو كانت احدى اللغات المتحجرة فى المعابد لا ينبغى تغيير كلمة أو حتى أسلوب التعبير فيها ، أو خطها .

---

(١) نفسه ص ١٣٨ (٢) نفسه ص ١٦٤
(٣) نفسه ص ١٦٨

زِد على هذا أنهم قد أصبحوا طبقة لهم وضع اقتصادى ، ووجدان طبقى ، ينهضان على استبقاء اللغة العربية فى جمودها الحاضر ، ولذلك يخشون التغيير ، ويرون فيه هجوماً على مصالحهم الإقتصادية .

ولكن يجب أن نذكر أن مصلحة الأمة يجب أن تعلو على مصالح أية طبقة فيها(١) .

والآن .

ماذا يريد سلامه موسى ؟

والجواب : أنه يريد أشياء لو تمت لكان فيها إنهاء وجود مصر كدولة عربية إسلامية .

ولكن الذى يهمنا هنا ـ ونحن نبحث فى محاربة الأعداء للغة العربية ـ هو محاولته القضاء على اللغة العربية الفصحى .

وهو يصرح بأغراضه صراحة .

ومنها .

ترك اللغة العربية إلى اللغة الأجنبية .

فإذا لم يكن هذا ممكنا فلتكن اللغة العامية مع كتابتها بالحروف اللاتينية .

وإليك توضيح رأيه :

أنه يسوق الأدلة على أن اللغة العربية لا تفى بالحاجات العلمية ويستشهد بأن إيطاليا استدعت المهندس المصرى (إسماعيل سرى باشا) والد (حسين سرى)

---

(١) نفسه ص ١١ ـ ١٢ .

ليكتب تقريراً عن الممكنات المائية لنهر البو ، وقد ألف المهندس المصرى كتاباً علميا عن الزراعة والرى لوادى البو ، وكان هذا الكتاب باللغة الإنجليزية(١) .

ويقول أيضا إنه « لن يمكن التأليف العلمى باللغة العربية بحروفها الحاضرة ثقوا أن هذا محال .

ومن يقل غير ذلك إما ضال، وإما أنه مضلل .

.. اسألوا كلية الطب ، اسألوا كلية الهندسة ، اسألوا كلية الزراعة ، اسألوا كليات العلوم جميعها .

أنها جميعا تدرس علومها بالإنجليزية . لماذا ؟

لأن لغتنا العربية بوضعها الحاضر ، واعتمادها على الحروف العربية لا يمكنها أن تؤدى هذه الخدمة(٢) .

ويقول فى مقدمة الكتاب عن منهجه وأكثرت من المقارنات بين لغتنا واللغة الإنجليزية لكى أبرز للقارىء عيوب لغتنا وإرهاقها للمتعلمين بقواعد وتقاليد لم تعد لها فائدة(٣) .

ثم يرى أن العقبة الوحيدة فى سبيل النهضة هى اللغة بوضعها الحالى فنحن — كما يقول — « عندنا الرجال ، عندنا الكفاءة ، عندنا الحاجة إلى التأليف . ولكننا لا نعرف كيف نكتب سطراً واحداً من الطب وغير الطب باللغة العربية .

نفس المصدر أنظر ١٦٧—١٦٨ .

(١) من ضمن مايدعو إليه أن نترس فى أذهان جميع العرب أنهم أوربيون وأن إطلاق اسم الشرق على مصر خطأ فاحش « لسنا فى حاجة الى رابطة تربطنا باهل جاوة بل نحن فى حاجة إلى رابطة غربية ، لا أمل فى أن نشرب اللغة العربية لانها بعيدة عن مزاجنا ، يجب أن نولى وجهنا شطره أوربا .. الى غير ذلك مما وقف حياته للدعوة إليه وموجود فى كتبه .

(٢) نفسه ص ١٦٥ .

(٣) نفسه ص ١٠—١١ .

ثم يوضح أن استعمال الحروف اللاتينية ينقلنا الى الأمام فيقول : اننا نستطيع أن نترجم بمتوسط كتاب فى العلوم كل يوم (١) .

وهو لا يقف أمام اللغة الفصحى فى الكتابة فقط، بل أيضا يقف ضد الفصحى ذاتها ، انه يدعو الى الغائها واللجوء الى العامية ، اذا لم تكن الأوربية ممكنة .

فعندما يعترض العقاد على الإشتراكيين الذين يدعون الى العامية يقول له :

« وقد حسب عليهم ـ أى العقاد ـ هذه الدعوة فى قائمة رذائلهم لأنه هو يعتز بفضيلة اللغة الفصحى ، ويؤلف عن خالد بن الوليد . أو حسان بن ثابت ، ولكنه غفل عن التفسير لهذه الظاهرة الإجتماعية ، وهى أن الاشتراكيين شعبيون يمتازون بالروح الشعبي : ويعملون لتكوينه .

وهم لهذا السبب أيضا مستقبليون ! وليسو سلفيين .

ولذلك يحملهم احترامهم للشعب على إيثار لغته الحاضرة على لغة السلف ، فى حين هو سلفى الذهن ، فى لغته . وأسلوبه ، وتفكيره ؛ وسلوكه »(٢) .

ويستشهد على كلامه بأوربا حين اتجهت إلى اللغة العامية تاركة اللغة اللاتينية.

وذلك أنه عندما وجدت الأمم الأوربية أن اللغة اللاتينية التى كانت وسيلتها الثقافية مدة القرون الوسطى ، قد أصبحت لا تتفاعل مع المجتمع الأوربى فى نهضته الجديدة ولا تسايره تأثراً وتأثيراً ، عمدت إلى نبذها ؛ واتخاذ لغاتها العامية(٣)» .

---

(١) نفس المصدر ص ١٦٠ .

(٢) نفسه ص ٩ .

(٣) ما هى النهضة جـ ١٨ :

ونقول له :

وهل عندما اتخذت أوربا اللغة العامية حلت المشكلة ؟ إن اللغة العامية نفسها تنقسم إلى لهجات ، وإن الاختـــلاف بين لهجات المتكلمين بالفرنسية فى فرنسا نفسها أكبر من الاختلاف بين لهجات المتكلمين بالعربية فى الوطن العـــربى على اتساعه .

وذلك بشهادة الفرنسيين أنفسهم يقول « جوستاف لوبون »

« واللغة العربية من أكثر اللغات انسجاماً ، وهى لا ريب مختلفة اللهجات فى سورية ، وجزيرة العرب ، ومصر ، والجـــزائر ، وغيرها ، ولم يكن هذا الاختلاف فى غير الأشكال ، فترى المراكشى يفهـــم بسهولة لهجة المصريين ، أو لهجة سكان جزيرة العرب مثلا ، وأن سكان القرى الشمالية الفرنسية لا يفهمون كلمة من لهجات سكان القرى الجنوبية فى فرنسا[١] » .

هل تنقسم اللغة الفرنسية إلى شمالية وجنوبية وتترك الكتابة باللغة الأم حتى يمكن لهذه اللغة أن تتفاعل مع المجتمع ؟

أعتقد أن « سلامه موسى » قد نفس عما فى صدره ، وعما يكنه فقط .

وإذا سألته لماذا لم يتبعك الكثير ما دمت تريد المصلحة وغيرك لا ينقصه التفكير ولا حب الوطن ؟

أجاب بما تقدم ، وهو أنهم يدافعون عن العربية ، إما لأنهم يدافعون عن مصالحهم ، الإقتصادية لأن رزقهم من هذا الطريق وأما لجبنهم ويقول : « والقلق عام ، ولكن الجبن عن الابتكار أعم .

ولذلك قلما نجد الشجاعة للدعوة إلى الإصلاح الجرىء إلا فى رجال نابهـــين

---

(١) حضارة العرب ص ٤٣٩ .

لا يبالون الجهلة والحمق مثل قاسم أمين ، أو أحمد أمين ، حين يدعو كلاهما إلى إلغاء الإعراب ، أو مثل عبد العزيز فهمي حين يدعو إلى الخط اللاتيني »[١] .

وتقول له بهدوء لقد قمت بدعوتك واستعملت من الألفاظ ما استعملت ، ماذا أصابك ؟

هل اعتقلت هل اعتدى عليك أحد ، هل ضيق عليك فى رزقك ؟

الجواب بالنفى طبعاً .

ثم بحث عن عيب آخر للغة العربية فوجده كما يزعم - فى أنها مدينة لليونانية واللاتينية واللغات تأخذ من بعضها[٢] وأن كلمة أوربا نفسها - كما يقول - سامية . أروبا أى غروب » .

ولكنه عند المقارنة من الإنصاف ، لأنه أتانا بكلمات فى اللغة العربية وزعم أننا أخذناها من الإغريقية واللاتينية ولم يأتينا بالكلمات التى أخذتها أوربا عن العربية ولو رجـــع إلى ما قاله جوستاف لوبون فى كتابه حضارة العرب[٣] يغير رأيه وعرف أننا أعطينا لأوربا الكثير من إصطلاحات العلوم وأغلب الظن أنه أطلع على هذا وإذا كانت اللغة العربية قد اتسعت لهذه الإصطلاحات - كما يقر الغرب — عندما كانت النهضة العلمية العربية ، إذا كان ذلك كذلك ، فأنه لم تعد له حجة عندما يقول « أن العلوم تحتاج إلى الدقة . وقبل كل شىء الدقة ولغتنا بنقص حروف العلة وأيضاً بخلوها من الزوائد والأصول المشتقة بين اللغتين اللاتينية

---

(١) البلاغة المصرية ص ١٤٣ وفى حقيقة الأمر لم يكن سلامه موسى يبغى الإصلاح ولكنه كان يسعى - كما يقول فيليب حتى - إلى أثاره « شبح القبطية المصرية القديمة فى مصر » الاسلام فى نظر الغرب ص ١٩ .

ومن أقباط مصر حين لايزال يحافظ على اللغة القبطية . يقول جوستاف لوبون ص٨٢ . ومع نص كثير من المؤلفات على أنه لا يتكلم أحد اللغة القبطية فى الوقت الحاضر فقد سمعت أقباطا يتكلمون بهـا فيما بينهم ، ويكتب الأقبـاط لغتهم بالحروف اليونانية فى الزمن الحاضر .

(٢) ص٦٣ — ٩٧ ماهى النهضة.

(٣) ص ٤٤١ ، ٤٤٢ .

والأغريقية لا يمكنها أن تفى بحاجتنا فى التعبير العلمى »[١] .

هذا من ناحية ومن ناحية أخـــرى يرى أنه بالعلاقة التى كانت بين العرب والأغريق والرومان » صار العرب يصطنعون مئات الكلمات الأغريقية اللاتينية [٢] .

ثم أخذ يرجع كلمات كثيرة عربية إلى أصلها اللاتينى الاغريقى من هذه الكلمات التى ذكرها «الميراث» المشتق من الأصل «إرت» وهى الكلمة الإغريقية « أريس » والقاضى التى هى لفظاً ومعنى لاتينية »

وأنا هنا بدورى أسأل إذا كان ذلك كذلك وكما قال كانت هناك صلات بين العرب واليونان والرومان قديماً .

ما المانع أن تكون هذه الكلمات عربية الأصل ووجودها فى الأغريقية أو اللاتينية لا يدل على أننا أخذناها بل يدل على أنها أخذت من عندنا خاصة وأن هذه الكلمات تخضع للاشتقاق العربى فكلمة القاضى التى ذكرها نجد أصالتها فى العربية لا تحتاج إلى دليل ، فالقضاء الحكم ، وقضى يقضى قضاء حكم ، وهكذا .

هل بمجرد أن نجد هذه الكلمة فى اللاتينية نقول إننا أخذناها منها ؟ ولماذا لا تكون الأخرى ، أى أنهم أخذوها عن العربية ؟ ولماذا لا يكون الأمر كما حصل عندما اتصل العرب بفرنسا مثلا بعد الإسلام فقد أخذت الفرنسية والأسبانية والبرتغالية كثيراً عن العربية ، وقد ألف دوزى وانجلمن معجما فى الكلمات الأسبانية والبرتغالية المشتقة من اللغه العربية »[٣] .

هل يأتى سلامه موسى لمجرد أنه يجد كلمة فى الفرنسيه والعربية ليقول إن الأخرى أخذت من الأولى ؟

---

(١) ص ١٦٥ البلاغة العصرية .

(٢) نفسه ص ١٧٦ .

(٣) حضارة العرب ص ٤٤١ .

عبد العزيز فهمى :

وأما الذى وصفه سلامه موسى بأنه وأحمد أمين وقاسم أمين من الرجال النابهين الذين لا يبالون الجهلة والحمقى .

تقول إن عبد العزيز فهمى كانت دعوته إلى الخط اللاتينى ، وقد عقب سلامه موسى على هذه الدعوة بقوله . والواقع أن الخط اللاتينى هو وثبة إلى المستقبل لو أننا عملنا به لاستطعنا أن ننقل مصر إلى مقام تركيا التى أغلق عليها هذا الخط أبواب ماضيها ، وفتح لها أبواب المستقبل »(١) .

وتقدم عبد العزيز فهمى بمشروعه إلى مجمع اللغة العربية فى جلسة ٣ مايو سنة ١٩٤٣ .

وإذا كانت هذه الطريقة — وهى اتخاذ الحروف اللاتينية ستقطع الصلة بيننا وبين الإنتاج العلمى للسلف ، فإن عبد العزيز فهمى يقترح طبع أمهات الكتب بالرسم الجديد .

ويهمنا هنا أن ننقل ما قاله فى نقد الفصحى ، لنرى كيف يردد كلاماً سبقه به الأجانب .

فبعد أن بين الصعوبات التى تتعلق بالنحو والصرف وغيرهما يقول : « وهذه المشقة تحملنى على الاعتقاد بأن اللغة العربية من أسباب تأخـــر الشرقيين ، لأن قواعدها عسيرة ورسمها مضلل ، فمن تحدث فى نفسه فكرة مفيدة للناس ويحب نشرها فيهم بالكتابة أو الخطابة ، يأخذه خوف انتقاد عبارته فيكتم فكرته فى نفسه ويميتها ، أو هو ينشرها بلغة من اللغات الأجنبية التى أصبحت عند كثير

---

(١) البلاغة العصرية ص ١٤٣ ، ١٤٤ .

من الشرقيين أيسر عليهم من لغتهم العربية (١) .

وهكذا كان اتهامه للفصحى ولكنه كالسابق لم يستطع أن يقنع نفسه وضاعت كل دعوة ضد الفصحى لأنها قائمة على غير أساس ، وانتصرت الفصحى ، لا لأنها وجدت من يدافع عنها ، بل لأنها تحمل فى ذاتها عناصر النجاح مع حفظ الله لها بكتابه الذى نزل بلسان عربى مبين

ولا زالت الفصحى تكسب أنصاراً حتى اليوم .

---

(١) من كتاب تاريخ الدعوة إلى العامية س ٢٠٩ ، ٢١٠ .

محاولة إحياء القوميات
والعدوات القديمة

جاء الإسلام ليقضى على كل عصبية جاهلية[١] واستجاب المسلمون ونسوا كل ما كان لهم من عصبية قبل الإسلام وأصبحوا أمة واحدة بفضل دينهم ولكن المتتبع لتاريخ الإسلام يجد أن التمسك بالدين[٢] سلاح ذو حدين قد يكون عامل جمع كما قد يكون عامل تفريق .

إن الدين إذا فهم على حقيقته كان عامل جمع وهذا ما كان فى عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم والمدة التى تلت ، قبل الخلافات التى أصابت المسلمين فى أواخر عهد عثمان رضى الله تبارك وتعالى عنه .

وأما إذا لم يفهم الدين على حقيقته ، وأخذ كتعصب لرأى معين، دون النظر فى هذا الرأى أهو حق أم باطل .
إذا أخذ الدين على هذا الوجه فأنه يصبح عامل تفريق . .

وعلى هذا فلكى يبقى الرباط قويا بين المسلمين لابد أن يحتفظوا بنزعة دينية واحدة ولو فى إطارها العام .

أما إذا أثرت الأفكار الدخيله ـ كما حصل بالفعل ـ فى إيجاد نزعات مختلفة فإن الدين ـ كما يظنونه ـ يصبح مساعدا على الانقسام .
وهذا الأمر الأخير هو ما حصل للمسلمين كما حصل لغيرهم من أصحاب الديانات الأخرى . وهنا كانت مأساة المسلمين .

خذ منطقة من العالم الإسلامى ولتكن شبه الجزيرة العربية نجد الوهابية فى

---

(١) ارجع إلى ماقلناه عند الكلام على محاولة زرع الفرقة بين المسلمين ص ٧ ،ص ١٤٧
(٢) يقصد بالدين مايعتقده الإنسان دينا وأما الدين الحقيقى فهو دائما عامل جمع قال تعالى. « أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه » .

السعودية والزيدية فى اليمن والأباضية فى الجنوب ، وفى الشمال الهاشميون فى الأردن والعلويون والسنيون والدروز فى سوريا ولبنان .

وما من أتباع مذهب من هذه المذاهب إلا كان لهم مع أتباع المذهب الآخر معارك دموية فى بعض الأحيان وجدلية فى كل الأحيان ، وإن كانت تختلف شدة وضعفا من فرقة لأخرى ومن وقت لآخر .

وهذه الفرق لم ينشئها العدو الحديث بل جاء ليجد سلفه فى عداوة الإسلام قد مهد له الطريق .

وجاء العدو الحديث ليدرس أولا دراسة متأنية ثم يجد أن مما يوصل إلى إضعاف المسلمين — علاوة ماتقدم — إحياء الخلافات القديمة مع الدعوة إلى القوميات . مع ماجد من تابعين للغرب ومعادين له .

فإذا مااعتز كل مسلم بفرقته الدينية وبقوميته فلن يبق للمسلمين وحدة تجمعهم .

والآن مع العدو وأفكاره التى دعا إلى العمل بها .

وهذه الأفكار - رغم اختلافها فى الظاهر - هدفها واحد وهو القضاء على الوحدة الإسلامية .

وأما الاختلاف فقد كان بسبب أن مايصلح لمنطقة قد لايصلح للأخرى .

فإذا كان فى العراق التفرقة بين السنة والشيعة فان هذا لايصلح فى مصر حيث لايوجد الاختلاف الدينى وإذا فلتكن التفرقة بين المسلمين والمسيحيين وهكذا .

وتبدأ بشمال أفريقيا

قدمنا بعض المحاولات التى بذلها العدو للقضاء على الوحدة بين العرب والبربر من ناحية اللغة . بإماتة اللغة العربية وإحياء البربرية أو الفرنسية وهنا ستكون المحاولة باحياء القومية البربرية .

ومادام الهدف هو تثبيت الفرنسيين فى المغرب .

فان « لويس ماسينيون » يقول عن الحلول التى كانت تقترح :

« أما الحل الثانى فهو بعث أمه مغربية تقوم على فكرة جنس أصلى هو الجنس البربرى »(١).

ثم يأخذ فى عرض العوامل التى تقف مع أو ضد فكرته فيقول :

« ولا يؤيد هذا الحل الآن فى الدوائر الإسلامية إلا شرذمة قليلون متفرقون بين البربر .

وما سيكون حظ هذه الفكرة من النجاح ؟

إن البربر يكونون تسعة وعشرين فى المائة من الجزائر ، ولكنهم لا يزيدون عن خمسة فى المائة فى ليبيا ، وعن واحد ونصف فى تونس .

والبربر والجزائريون -كما يدعى- يفخرون أشد الفخر بأنهم ليسوا من الجنس العربى » ثم يقول :

« ونستطيع أن نجد حل المسألة فى مراكش حيث يبلغ البربر ستين فى المائة من السكان ولكن السيادة العربية فيهم لا تلوح عليها علامات الضعف .

ولما كان البربر تعوزهم لغة بربرية ثابتة يرجع إليها فانهم لم يشعروا - بعد - بمثل أعلى بجمعهم(٢)

ولكن عدم ثبات اللغة البربرية وبالتالى عدم شعور البربر بمثل أعلى يجمعهم نقول إن هذا لم يثن الفرنسيين عن عزمهم بل حاولوا وكانت محاولتهم - كما يقول لويس ماسينيون - « إن الإدارة الفرنسية حاولت أخيرا أن تشد أزر الروح الجنسية بين بربر مراكش باستصدار الظهير السلطانى (١٦ مايو سنة ١٩٣٠) الذى قضى بتنفيذ القانون العرفى البربرى ، وقانون الأحوال الشخصية فى تلك الناحية بدل الشريعة الإسلامية .

(١) وجهة الاسلام ص ٦٢ .

(٢) نفسه ص ٦٢ — ٦٣

ولهذا السبب أثار الظهير احتجاجا صارخا ووجهت إليه حملات عنيفة فى كل بقعة من العالم الإسلامى .

وربما يذيع المثل الأعلى البربرى بين مسلمى المغرب بعد ثلاثين عاما »(١).

ويبين أن الكتاب الاوربيين يعملون جهدهم لتشجيع هذا المبدأ . ثم انظر إلى الفقرة الأخيرة من كلامه وحى (وبما يذيع المثل الأعلى البربرى بين مسلمى المغرب بعد ثلاثين عاما) .

أنهم يضعون البذره ولتكن الثمره بعد مدة طالت أم قصرت لكن المهم أن تكون ثمرة .

ومعنى الثلاثين سنة أنهم يرون أن الجيل الحالى له قيم معينة وبعد هذه المدة ينتهى الجيل ويخرج جيل آخر له قيم جديدة هى هنا القومية البربرية التى تعتمد على الجنسية البربرية والشرع البربرى وإن كان قد فاتها وجود لغة تعتز بها .

وعن موضوع فصل البربر عن العالم الإسلامى يقول الدكتور (ج. كامبفماير) عن البربر أنهم مسلمون بالطبع ، بل قد لعبوا دورا هاما فى التاريخ الإسلامى فى العصور الوسطى .

ولكنهم الى جانب لغتهم البربرية احتفظوا بقوانين عرفية خاصة بهم .

وقد حاولت فرنسا سنة ١٩٣٠ تذرعا بهذه القوانين أن تدخل بين البربر قوانين جديدة تشمل كل المسائل المدنية والتجارية ، وتشمل خاصة كل المسائل الاجتماعية القانونية فى الأحوال الشخصية وفى حقوق الميراث فلم يكن بد من الغاء الشريعة الإسلامية .

وصار رئيس القبيله هو الذى يمارس السلطة القضائية بدلا من القاضى .

وجعل تنظيم القضاء من حق السلطات السياسية ، أى من حق فرنسا ، هذا

---

(١) نفسه ص ٦٣

المشروع الذى وضع فى صورة (ظهير) فى ١٦ مايو سنة ١٩٣٠ هو الذى أثار سخطا عم بلاد الإسلام كلها لأنه فضح ما تنويه فرنسا من فصل بربر مراكش - وهم جماعة إسلامية لها خطرها - عن العالم الإسلامى ومما زاد السخط ورود أنباء الوسائل التى اتخذت فى نفس الوقت لتنصير البربر »(١)

والفرنسيون كانوا « لا يكتمون أنهم يتخذون التنصير وسيلة للتجنيس »(٢). هذا بالنسبة للمغرب كان من ظروفه - بوجود العرب والبربر - أن يكون العمل بإحياء القومية البربرية لتجعل من البربر ندا للعرب .

أما فى مصر وسوريا ولبنان فإن العمل يتخذ شكلا يتفق مع ما فى المغرب فى النتيجة ولكنه يختلف عنه فى الوسيله .

النتيجة المطلوبة هى إيجاد الفرقة .

وأما الوسيله فهى إحياء قوميات قديمة وثقافات تتجه ناحية الغرب ونظرا لأن الغزو الفكرى فى هذه المناطق كان مبكراً فان تلاميذ الغرب كانوا على درجة من النضج تمكنهم من القيام بهذه الدعوة ، وأغلبهم كانوا ينفسون عما فى صدورهم من حقد .

يقولون فيليب حتى فى هذه المجموعة .

« وفى القرن الثامن عشر - وهو الذى ابتدأت الحديث عنه - أخذ كلا السبيلين - أى سبيل الغرب المتحرك علميا وسبيل الشرق الراكد - يدنوا من الآخر وقد عاش فى لبنان الشاعر « شارل قرم » ، والشاعر « سعيد عقل » والمحامى « يوسف السودا » ، والأديب (فيكتور خلاط) الدين ظلوا يعلنون سنوات أن الثقافة اللبنانية لا تنتمى إلى أسيا ، بل لا تنتمى إلى العالم العربى وإنما هى جزء من ثقافة الأبيض المتوسط .

وقد أثاروا شبح الفينيقية .

كما أثار سلامه موسى شبح القبطية المصرية القديمة فى مصر .

---

(١) نفسه ص ٨٢ — ٠٧
(٢) دفاع عن الشريعة ص ٣١

على أنه لم يحدث الا سنة ١٩٣٨ أن ظهر مسلم مشهور - وأولئك كانوا جميعا مسيحيين - وأديب ممتاز هو « طه حسين » وزير معارف مصر الآن ، ونشر كتابه « مستقبل الثقافة فى مصر » موضحا أن الثقافة المصرية ليست جزءا من الثقافة الأسيوية ، بل جزءا من ثقافة الأبيض المتوسط .

ومنذ ذلك الحين لاحظت عددا كبيرا من المقالات بقلم باحثين مصريين يعلنون فيها : إننا لنشعر بألفة حين تجتمع بانجليزى أو فرنسى أو أمريكى أكثر من الألفة التى نشعر بها حين نجتمع بهندى أو صينى أو يابانى (١) .

وزادت الدعوة إلى القومية المصرية خاصة بعد اكتشاف مقبرة توت عنخ آمون ، إذ شجع كشف هذه المقبرة - كما يقول جب - بعض الدوائر الأدبية فى مصر على احياء الحضارة الفرعونية ، وهى حركة لم تمت بعد (١) .

فالغرب حينما كان يكشف بعض الآثار ، كان يتبع ذلك بدعايات للدنيات

---

(١) الاسلام فى نظر الغرب ص ١٩ ـ ٢٠

ويقول فيليب حتى : ـ مساعدا على ايجاد فرقة بين المسلمين ـ « وعبارة » الدول الاسيويه والعربية » التى تشيع فى مناقشات الأمم المتحدة هى لغو .

فالدول العربية ليست جزءا من آسيا . وهذا لا يمس ثقافة أسيا والهند والصين بحال من الاحوال فالدول العربية — تلك الدول التي نبحث شئونها هذا الصباح — كانت فى جميع أدوارها التاريخية تقريبا عدا مراحل قصيره جدا ضمن الحدود الثقافية الاوربية .

والآن على الغرب أن يقنع تلك الدول التى ترغب فى توطيـــد التفاهم مع الغرب أنها تنتسب إلى تلك الثقافة التى كانت تنتسب إليها على الدوام » [الاسلام فى نظر الغرب ص ٢٠

وكان مما عمله جورست الذى خلف كرومر فى مصر للوقيعة بن المسلمين والاقباط فى مصر أن عمل « إلى تحريك الاقباط عليه ـ الحزب الوطنى — بحجة أن موسسة [مصطفى كامل] كان يقول بالجامعة الاسلامية التى عمل لها السلطان العثمانى فما استقال رئيس مجلس النظار مصطفى فهمى حمل جورست الخديوى على على اسناد هذا المنصب الى رجل قبطى هو بطرس غالى باشا ناظر الماليه السابق فما كان من الوطنين إلا أن شنوا عليه حملة شعواء أدت إلى مصرعة فى ٢٠ شباط (فبراير) سنة ١٩١٠ ، وإلى قطيعة بين المسلمين والاقلية النصرانية تهددت البلاد بنشوب حرب أهلية دامية » .

كارل بروكلمان تاريخ الشعوب الاسلامية ص ٧١٩

(٢) وجهة الاسلام ص ٢٢٢

القديمة وأصالتها ، وعندئذ لا يلبث أهل هذا الأقليم أن يتخذوا من هؤلاء القدماء قدوة لهم، مدافعين عن هذه الحضارات ، معتزين بالانتساب اليها .

وإذا كان الاعتزاز بالحضارات القديمة أثرا من آثار الغرب والغرب لا يؤثرا إلا فى الطبقات المثقفة غالبا وهى التى بيدها الأمور إذا كان كل هذا عرفنا أى ضرر يعود على المسلمين من هذا التأثير .

وليس التأثر بالاكتشافات الجديدة خاصا بمصر ، بل حدثت مثل هذه النتائج أيضا — كما يقول جب — فى أوندونيسيا بسبب العثور على الحضارة الهندوكية — الجاوية .

وربما تحدث الحضارة السومرية أو البابلية تأثيرا كهذا فى العراق كما فعل ذلك — لاريب — العثور على الحضارة الفارسية القديمة فى فارس (١) .

وإن أحتفال إيران منذ عامين بذكرى الملك « قورش » هذا الاحتفال العالمى الذى كان فريدا فى نوعه ، إن هذا الاحتفال يعتبر دليلا على ما للمدنية القديمة من تأثير فى فارس وعلى اعتزازهم بهذه المدنية وهم المسلمون .

ومن المفيد هنا أن ننقل رأى . « ك . ك . برج » فى الكشوف التى قام بها الغرب فى أندونيسيا وأثرها فى احياء القوميات القديمة وانصراف كثير من الاندونيسيين — بسبب هذا — عن تقاليد دينهم .

إنه يرى (٢) : أن بعض التقاليد الهندوكية وجدت ما يؤيدها من نتائج البحث العلمى الأوربى العلمى الأوربى .

وتكوين تاريخ امبراطورية « ماجا باهت » أحيى لهم مجدا قديما يفخرون به وإن غلوا أحيانا فى تقدير ذلك المجد .

---

(١) نفسه ص ٢٢٢

(٢) ارجع الى البحث الذى كتبه فى هذا فى كتاب وجهة الاسلام خاصة ص ١٩٢ — ١٩٤

والضرر الذى عاد على مسلمى أندونيسيا أنهم كانوا أولا يأخذون مثلهم العليا من المسلمين وبذلك كانوا يقتدون بالمسلم سواء كان صحابيا أو غيره فى كل ما يتعلق بالاسلام وهـــذا يربطهم دائما بدينهم أما بعد هذه الاكتشافات فقد تغير الأمر ، واتخذ الشبان الجاويون — كما يقول — مثلا عليا فى البطوله من شخصيات التاريخ الغابر العظيمة ، كالملك « ارلانجا » والملك (أيام ووروك) و (جاجا مادا) الوزير الأكبر لامبراطورية (ما جاباهت) الذين بعثهم علماء اللغات من ثرى التاريخ بعد أن كادوا يصبحون نسيا منسيا »

ولم يقتصر الأمر على هذا بل إن بعض المدارس التى نشأت فى ظل الاستعمار أرادت أن ترضى سادتها برفع شأن المدنيات القديمة فوجدنا (مدارس) (تامان سسوا) التى أنشأها (كى أجارديو انتارا) تلقن الطلبة ايثار المدنية الجاوية القديمة . أعنى المدنية الهندوكية الجاوية على الاسلام .

أنشئت هذه المدارس أولا فى الإمارات الوطنية . وهى محاولة نادرة — كما يقول — تستلفت النظر للقبض على ناصية التعليم .

وأخيرا فلا عجب أن تفلح الصوفية بما فيها من نزعة هندوكية قويه — كما يقول — فى تثبيت قدمها الى حد ما فى جاوة الوسطى .

ونظرا لـكثرة طلبة جاوة الوسطى بين طلبة الجامعات تسربت هذه الأفـكار المناصره للهندوكية الجاوية الى جمعيات الطلبة أيضا وأثرت فى شعورهم بالجامعة الأندونيسية التى يمثلونها » .

وبذلك يسرى تأثير القومية المحلية بين المسلمين .

وبالطبع لو أن الدرس فى دور التعليم يقوم على أسس دينية لما استطاعت أى مدنية قديمة أن تغزو الفـكر الإسلامى .

ولـكن مساعدة الأجنبى على نشر الفـكرة العقلية التى لا تتقيد بالدين ساعد على هذا .

كل هذه العوامل أدت الى أن يعلن المثقفون حيادهم فى الأمور الدينية ، كما أكد ذلك أخيراً (١) رئيس حزب (جمعية أندونيسيا) فى اجتماع للطلبة الهولنديين فى ليدن تأكيداً شديداً .

وبالطبع كانت هذه النتيجة متوقعة من هذه الجمعية حيث أسست فى هولندا وحيث كان هذا الاجتماع فى هولندا أيضا .

وبينما كان اشعال نار الفرقة يسير فى الجانب الفكرى هكذا نجد كذلك العسكرية المسيحية تسعى من جانبها لإيجاد هذه الفرقة عمليا .

ونضرب الآن مثالين أحدهما من فرنسا والآخر من انجلترا عما كانت تتبعه هاتان الدولتان مع جنود المسلمين الذين أصبحوا تابعين لهما أما فرنسا فقد أخبرنا (روجر لايون) عما كانت تتبعه فيقول : (ومما جرت عليه القيادة اجتناب تكتيب الكتائب على صورة يكون فيها العنصر الاسلامى غالبا .

فنجد السنغاليين مشتتين بين الجماعات « الفيتشية » و « المسيحية » .

وهاك على ذلك مثالا : فى فليفيل بالجزائر يرابط الآلاى الخامس عشر السينغالى الذى عدده / ١٧٠٩ جنود ؛ فنجد فيه ٥٤٢ مسلما و ١٣٢ مسيحيا الباقى فتيشيا أو غير تابع لمذهب خاص .

والتابور ١٢٦ الذى بمدينة الجزائر الذى عدده / ٤٨٩ جنديا فيه ١٤٥ مسلما و ١٨٢ مسيحيا والباقى فتيشيا ثم يقول :

فازدياد عدد المسيحيين من يوم إلى آخر هو ثمرة مساعى المبشرين والمؤسسات الخيرية (١) .

وأما انجلترا فيقول اللفتنانت كولونيل « م . ل . فرار » عما فعلته بالهند

---

(١) حاضر العالم الاسلامى ص ٣٢٣ جـ ٢ .

« دهش مسلموا الهندستان أشد الدهشة حينما رأوا أنهم مضطرون أن يسجلوا أنفسهم :

« ساده » أو (مغلل) أو (باتان) أو (مشايخ) وما كان يجرؤ أحد على أن يسمى نفسه (سيدا) إلا إذا كان سيدا بحكم ميلاده .

وكثيرا ما يلقى الإنسان كثيرا من المغل الذين لا يعرف بأى طائفة يلحقهم .

وكانت مئات من طوائف (الأهير) و (الجوجار) تحتار أشد الحيرة متردده بين أن تسمى نفسها (باتان) أو (مشايخ)[1] .

وبهذا نجد الإنجليز يحاولون تعميق الفوارق - إن كانت موجـــوده بين المسلمين - وإيجادها إن لم تـكن موجودة .

إن الإنجليز لما نزلوا الهند وجدوا السكان ينقسمون إلى مسلمين وغير مسلمين أما غير المسلمين فقد كانوا مقسمين - تبعا للديانة البراهمانية - إلى طبقات أربع

الطبقة الأولى طبقة رجال الدين والبراهمة وعلى زعمهم خلقوا من رأس الإله براهما .

الطبقة الثانية الجند (كشتر) وعلى زعمهم خلقوا من مناكب براهما .

الثالثة طبقة الزراع والتجار (بيش) وعلى زعمهم خلقوا من ركبتى براهما .

الرابعة طبقة الخدم والأسارى (شودر) وعلى زعمهم خلقوا من قدمى براهما هذه هى حال الهندوكيين .

أما المسلمون فان الإسلام قد قضى على نظام الطبقات أيا كان لونه ، فعندما يدين الإنسان بالإسلام يجد نفسه أخا لجميع المسلمين بغض النظر عن لونهم وجنسهم وبلدهم .

---

(١) وجهه الإسلام ص ٢١٥

والسادة سلالة النبى صلى الله عليه وسلم و « المغل » سلالة المغول المسلمين و « الباتان » سلالة الأفغانيين و «المشايخ» سلالة الصحابة ».

ولكن هل هذا يرضى الإنجليز ؟

إنهم لابد أن يبحثوا عن ثغرة ينفذون منها هذه الثغرة هى إيجاد نظام الطبقات كما أخبرنا الكولونيل (م. ل. فرار) وكان هذا مفاجئا للمسلمين كما قال:

وبالطبع اعتمد الإنجليز على ماجرت به العادة من مناداة المسلمين لمن هم من سلالة الرسول صلى الله عليه وسلم من ابنته فاطمة بكلمة (السيد) .

كما يقال السيد أحمد البدوى .

وهكذا بالنسبة لأولاد الصحابة وغيرهم كما قال :

والغرض الحقيقى هو تفريق المسلمين .

مستغربون

على عادة الأعداء لايمكن أن ينجحوا فى أى عمل إلا إذا كان لهم من يساعدهم على هذا من أبناء المسلمين .

وهذا ماوقع هنا .

إذ نجد أن هذه الأفكار التى ماقامت إلا لتفكيك الوحدة الإسلامية ، قد وجدت لها من بعض المسلمين سندا ومشجعا ، وكان هذا البعض حربا على الأمة وعامل هدم فى بنائها .

يبدأ الأمر بأفكار واردة من خارج فتجد لها مستقبلين من العالم الإسلامى فاذا بهذه الأفكار بعد اعتناقها تفكك المسلمين .

يقول (ك. ك. برج) :

(إن أفكارا أوربية مخالفة فى جوهرها للأفكار التى كانت سائدة قبل ذلك وجدت لها مكانا خفيا فى مراكز العالم الإسلامى ، ونبتت فى زعماء المسلمين ، وأحدثت عملية انحلال انتهت فى ميدان السياسة بتكوين ممالك صغرى مشربه بالروح الأوربية ، تعترف بالإسلام دينا بل تعترف فى بعض الأحيان أنه أكبر الأديان شأنا ، ولكنها لا تزيد على ذلك .

وأصبحت الأمه الإسلامية التى تتسامى على القوميات على وشك التمزق إلى قوميات تعتز بقوميتها .

ولابد لأفراد هذه الأمة أن يفصحوا عما سيؤثرونه فى المستقبل الإسلام : أم القومية .

وهناك علامات تدل أنهم سيؤثرون الطرف الثانى فى المستقبل القريب)(١).

---

(١) وجهة الإسلام ص ٣٠٠

هذا هو رأى الغير فينا ولابد أن نواجه أنفسنا بالواقع حتى نقف على أبواب العلاج مادمنا قد عرفنا الداء .

واعتقد أن الغير يعرفنـــا أكثر مما نعرف أنفسنا لأننا فى كثير من الأحيان نتناسى حتى نبلغ درجة النسيان .

والتناسى إنما يكون لغرض فقد فتح الشرقيون أعينهم على ماجاء من الغرب وظنوا أن الإصلاح إنما يكون بهذا الوارد ، ولم يكن بد من ترك الدين جانبا لأنهم أصبحوا من ضعف الشخصية الى درجة الإنهيار أمام سادتهم وهنا قبلوا ما جاءهم عن هؤلاء السادة من (آراء الغرب السياسية الحديثة وأهم ما فيها مبدأ السيادة القومية .

واضطروا فوق هذا أن يقبلوا أصول هذه السيادة ، ولواحقها فيما يختص بتكوين الدولة وماهيـــة القانون ووظيفته ، وحقوق المشتركين فى الوطن وواجباتهم)(١).

وهكذا ماداموا قد قبلوا عن الغرب فكرة معينه عليهم أن يقبلوا توابعها وهنا ينسلخون عن الإسلام شيئا فشيئا . وقد لا يسكتون عند حد الإنسلاخ اذا قد يرجعون الى الإسلام ليكيفوه ويخضعوه للوارد من الأفكار بدل أن يخضعوا الوارد لحكم الإسلام .

والآن الى تلاميذ الغرب فى بعض المناطق الإسلامية كمثال لتعرف اتجاههم فى المغرب العربى نرى مجموعة تحاول فصل الدين عن الدولة (ويقود هذه الحركة ـ كما يقول لويس ماسينيون ـ طلبة من المدارس الفرنسية ومعلمون فى المدارس الابتدائية ، وموظفون يحذقون الفرنسية أيما حذق ، ويجيدون استعمالها وسيلة لتنظيم حركتهم عن طريق الصحف التى ينشرونها بالفرنسيه)(٢).

---

(١) جب : وجهة الإسلام ٥٠ ـ ٥١

(٢) نفسه ص ٦٠

ونجد هذا الفريق التابع لفرنسا ثقافيا جاء بالحل الذى يراه صالحا .

هذا الحل لو اتبع لـكان فيه القضاء على الأمة، اذ يرى هذا الحزب ـ كما يقول ماسينيون أيضا ـ « حل المسألة فى اتخاذ الجنسية الفرنسية اتخاذا تاما بما فى ذلك استعمال كل الحقوق المدنية استعمالا كاملا »(١).

وماذا كانت ستكون النتيجة لو اتبعنا هذا الفريق ؟ اذا لانتهت الأمة الإسلامية اذ لو اتخذ المغربى جنسية فرنسية، والليبى جنسية ايطالية، والمصرى جنسية انجليزية وهكذا كل بلد تأخذ جنسية المستعمر لها مع السير على قوانينه حتى فى الأحوال الشخصية طبعا ، أقول لو اتبعنا هذا هل يبقى مسلم على وجه الأرض ؟ خاصة وأن هذا الذى اتخذ جنسية مستعمره سيعامل بقانونه وستكون أحواله الشخصية على غير الشريعة الإسلامية .

وأما فى تركيا فقد كان اتجاه كثير من المثقفين ـ خاصة رجال الحزب الوطنى ـ الى الأخذ عن أوروبا سببا فى نمو فكرة الفصل بين الدين والدولة ثم توجيه الاهتمام الى الدولة لا الى الدين وبمرور الأيام وتحت وطأة الحاقدين على الإسلام بدأ المثل الأعلى الإسلامى يتوارى ويظهر مكانه المثل الأعلى المحلى (التركى)

وبالطبع خسرت تركيا كما خسر العالم الاسلامى من هذا .

أما تركيا فقد أصبحت كما يقول (بروكلمان) دولة قومية منكمشة على نفسها(٢)

ومن الحق القول بأن تركيا ليست كلها كذلك لأن الشعب التركى مسلم ولازال فيه من يرى أن الترك مسلمون أولا ، وترك ثانيا .

الا أن الفئة المتغلبه هى التى تدعو الى القومية التركية وتنزع من اللغة التركية كل لفظ عربى واحلال آخر محله اما من اللغة التركية القديمة أو اللغة اللاتينية .

والواقع أن القومية بلغت ـ كما يقول (جب) ـ (أقصى حد فى تركيا حيث حلت

(١) نفسه ص ٦٢

(٢) تاريخ الشعوب الاسلامية ص ٦٠٢

أثناء السنوات القليلة قبل الحرب فكرة تتريك الشعوب المختلفة فى الامبراطورية العثمانية على خطة الجامعة الإسلامية ، وأيقظت شعورا معاديا لها من القومية العربية فى سوريا والعراق بل فى جزيرة العرب)(١)

أليس من العجب أن ينشغل المسلمون قبل الحرب العالمية الأولى وأثناءها وبعدها بقضايا أقل مايقال عنها : إن فيها هلاكهم مثل هل ينضوون تحت القومية التركية أو القومية العربية ويطول النقاش واذا بالحرب تعلن ، واذا بهم يقاتلون بعضهم ، والعدو يغذى نار العداوة بينهم ، وتنتهى الحرب ، ويجد المسلمون أنفسهم، وقد خسروا كل شيء ، وقدموا بلادهم هدية لعدوهم .

وفى الوقت الذى كانوا مختلفين فيه ويسفكون دماءهم بأيديهم ، كان اليهود يؤسسون لهم وطنا فى بلاد اسلامية .

ويضيق المسلمون - ان كانوا قد أفاقوا — ليجدوا اليهود يذبحون من بقى منهم ذبح الشاه .

واذا كان المسلمون يريدون أن يخفوا واقعهم عن عدوهم فهم مخطئون لأن عدوهم يعرف أنهم أصبحوا يفضلون القومية بمفهومها الضيق .

يقول (بايرد دودج) :

(واليوم أصبحت القومية ذات الصبغة المادية عنصرا قويا فى الفكر الاسلامى وهذا يؤدى بالطبع الى مناهضة فكرة الوحدة الإسلامية أو الخلافة وكون الاسلام وحدة منظمة .

فالقومية قد حلت محل المظهر الدينى للوحدة الاسلامية الى حد كبير)(٢)

---

(١) وجهة الاسلام ٥٢

(٢) الاسلام فى نظر الغرب ٣١

ويصور « جب » عمل الإسلام البناء ، ثم محاولة بعض المسلمين الاتجاه إلى القوميات فيقول :

كان الشعور الإسلامى ينزع على الدوام إلى هـــدم الفوارق الجنسية حتى ليصعب التصديق أن هذه الفوارق ستسهل الآن إقامتها من جديد ، ولـكن هناك شرذمة من المفكرين فى بعض البلاد استهواهم التعصب الجنسى(١) »

ثم يعدد الآثار السيئة التى جرتها هذه الشرذمة على المسلمين فى تركيا والمغرب وغيرهما ، وأما « ولفرد كانتول سمث » .

فإنه يرى أن الشرق لا ينهض بدون دين فيقول :

« وتاريخ الشرق الأدنى الحديث يدل على أن القومية المجردة ليست القاعدة الملائمة للنهوض بالواجب الشاق البناء »

ثم يقول :

ومالم يكن المثل الأعلى إسلامياً على وجه من الوجوه لن تثمر الجهـــود ألبته »(٢).

وعندما سلك المسلمون هذا المسلك من تفتيت وحدتهم ، وراء عنصرية قاتلة ، لم يكونوا فى ذلك . كما تقدم أكثر من مرة — إلا منفذين لأفكار أجنبية عنهم ؛ وردت إليهم من عدوهم ، فاستقبلوها بالرضا ، ودافعوا عنها وكانت النتيجة أن الغرب الذى كان يظن أن المسلمين أمة واحدة أصبح يجد نفسه أمام أمم متنافرة متقاتلة تحاول كل أمة أن تنقض على الأخرى .

ولم يضيع العدو الفرصة التى رآها ذهبية بالنسبة له ، إذا أنشأت الدول الغربية الواحدة تلو الأخرى تنقض — كما يقول ستودارد — عندما تلوح لها

(١) وجهة الإسلام ص ٢٢٢
(٢) الاسلام فى نظر الغرب ص ٥٧

سانحة الشقاق بين أمة وأمة شرقية فتنتاش بلادا ثم تجعلها حانية عنقها الى نير الاستعمار »(١)

وعلى الرغم مما وجد المسلمون من نتيجة الجرى وراء القوميات وأنهم أصبحوا من المهانة إلى حد أن عدوهم أصبح يلعب بمقاديرهم على الرغم من هذا لازال يمكن توجيه هذا السؤال :

هل أفاق المسلمون ؟

(١) حاضر العالم الإسلامى ص ١٣ — ١٤ ج ٤

تعقيب

إن المسلمين أدركوا ما أصابهم وعرفوا أن السبب هو تفرقهم وليس يفصلهم عن طريق النجاة إلا خطوة واحدة نحو دينهم فاذا ما رجعوا إلى دينهم فلن يجدوا ليبيا ولا مصريا ولا فارسيا وإنما سيجدون مسلما .

عند ذلك ستجمعهم عقيدتهم ، وسيكونون الأمة التى مثلها الأعلى مجلس رسول الله صلى الله عليه وسلم عندما كان يضم — بدون فرق — أبا بكر العربى وصهيبا الرومى ، وسلمان الفارسى ، وبلالا الحبشى .

وأنهم لا جنسية لهم إلا دينهم ولا وطن لهم إلا دار الإسلام وقلوبهم لا تعلق بالجنس ولا بالأرض ، ولا بقرابة النسب وإنما تعلق بالإسلام فقط .

ويقينى أنه ليس من الإنصاف وصف المسلمين بأنهم تركوا وحدتهم الدينية نهائيا ، إذ أن الدين لا زال يربط بين المسلمين ؛ والحادثة تنزل بإحدى البلاد الإسلامية فإذا بجميع البلاد الإسلامية تهتز لهذه الحادثة .

حقا إن العدو قد استطاع أن يشغل كل بلد إسلامى بشئونه الخاصة ، وأن هناك فريقا من المسلمين — خاصة أصحاب الثقافات الأجنبية — أصبح لا يهتم بالقضايا الإسلامية .

ولكن على الرغم من هذا لا زالت الوحدة الاسلامية موجودة . وأن هذه الوحدة لازالت تعبر عن نفسها بوضوح فى المواقف التى تتطلبها .

وكل ما هو مطلوب من المسلمين أن يعلموا أن هذه الوحدة كالشجرة التى تحتاج إلى من يتعهدها بالسقى والرعاية وعندئذ يجنون من شجرة الوحدة أطيب الثمار .

يقول « جب » فى أن الحياة لازالت تسرى فى جسم العالم الاسلامى :

وليس عهدنا بعيدا بالجزء الأكبر من العالم الإسلامى حينما يخيل لمن يراه أنه فى سبات عميق حتى حسبه البعض قد فقد الحياة .

فأما اليوم فان حادثة صغيرة مثل قتل الشهيد « عمر المختار » تهز ما بين مراكش وجاوه كأنها صدمة كهربائية ، وتولد تيارا من السخط الملتهب .

حقا إن ذلك الشعور المتولد يخمد سريعا ، ولكن ترا كم أثر تلك الصدمات سيجعل رد الفعل أكثر قوة وسيزيد العالم الاسلامى شعورا بوجوده .

(١) وجهة الاسلام ص ٢٠٨

الفصل الرابع

طعنهم فى القرآن

فى هذا الفصل ستعالج أحد المطاعن التى توجه إلى الإسلام فى أساسه وهو قولهم : إن القرآن ليس وحياً .

وقبل أن تبدأ فى الموضوع نقول :

إن طعن الأجانب فى الإسلام كدين شىء لا يوجب الدهشة لأنهم لو آمنوا به كدين لكانوا مسلمين :

وأما ذكرنا لما قالوا فلأمور .

أولا : هل كانوا على مستوى البحث العلمى فى هذه النقطة ، أو أن التعصب أعماهم عن اتباع المنهج العلمى فى هذه النقطة أيضاً كغيرها مما تقدم .

ثانياً . كى يعرف المسلم رأى عدوه فيستطيع أن يدافع عن دينه .

ثالثاً . كى يعرف المسلم أن هذه الفئة التى تنتسب إلى الإسلام ثم تهاجم الدين ليست لها أصالة فكر ، وإنما هى مقلدة .

وأنهم حين ينادون بحرية الفكر ليسوا أحراراً وإنما هم عبيد ساداتهم من الأجانب .

وأنهم كى يقبضوا الثمن مالا ومناصب وشهرة لا بد أن يصفوا المدافعين عن الدين بعدم الفهم وبالرجعية وبالدفاع عن كراسى الوظيفة[1] ألخ .

---

(١) قال الأستاذ أمين الخولى فى تقديم كتاب « الفن القصصى فى القرآن للدكتور محمد أحمد خلف الله والذى كان مفروضاً أن يكون رسالة دكتوراه ثم اعترض عليه لمخالفته للدين قال الأستاذ الخولى يهاجم من هاجم الرسالة ويدعو لحرية الرأى : « ان ملاحدة اليوم هم قديسو الغد . ويدعه الحاضر هى تقوى المستقبل وإلا فلا تقدم ولا تطور «

والآن إليك ما يردده أعداء الإسلام .

يقول « جولو تسيهر »:

« فتبشير النبي العربي ليس إلا مزيجاً منتخباً من معارف وآراء دينية ، عرفها أو استقاها بسبب اتصاله بالعناصر اليهودية والمسيحية وغيرها التي تأثر بها تأثراً عميقاً ، والتي رآها جديرة بأن توقظ عاطفة دينية حقيقية عند بني وطنه[1] »

ويأتي كارل برو كلمان ، بعد « جولد تسهير » ليكرر نفس الدعوى - أي أخذ الرسول صلى الله عليه وسلم عن أصحاب الديانات السابقة - فيقول .

وتذهب الروايات إلى أنه اتصل في رحلاته ببعض اليهود والنصارى أما في مكة نفسها ، فلعله اتصل بجماعات من النصارى كانت معرفتهم بالتوراة والأنجيل هزيلة إلى حد بعيد .

هذه هي الدعوى التي يوجهونها ضد الإسلام : إن ما فيه ليس وحيا وإنما هو مأخوذ عن اليهود والنصارى .

ولكننا نلاحظ في نص بركلمان ، عدم الجزم بشيء ، فيقول في بدء النص :

أيها المحققون حكمة الناموس : امضوا قدما على قدم الأبرار الذين عبروا الطريق الحق أمامكم . امضوا فقد أضاءوا لكم الطريق باحتراقهم بالنار المقدسة ، لقد ألقوا فيها جحيما مسعرة ، وقودها الأبدان والأوراق والحطام ، لكنها كانت على أرواحهم برداً وسلاماً »
هذا ما قاله الأستاذ أمين الخولي وأنا أقول : أي جحيم ؟ إن الأستاذ كان يستطيع أن يقارن بين حياة المدافعين عن الدين وحياة المهاجمين ونحن نرضى حكمه أي حكم في الموضوع .
يقول محمد أحمد خلف الله - وهو ما يظن أنه تجديد - « إن الاحداث والاشخاص في القصص القرآني من المواد التي يكون بها البناء . وهي مواد قد تكون تاريخيه ، وقد تكون خيالية ، وقد تكون صوراً لما في الاذهان أي معتقدات ومسلمات » هذا ما ظنه تجديداً .
وأنا أقول له لم تات بجديد ، فقد قيل هذا الكلام في البيئة الاسلامية ورد عليه العلماء ولكن الاجانب تلقفوه وأخذته أنت من الاجانب وظننت نفسك مجدداً فما جئت به ليس من الدين ولا من الاصالة في شيء .

(١) العقيدة والشريعة ص ٥-٦ .

وتذهب الروايات ، وفى وسطه : فلعله اتصل بجماعات من النصارى ، ولم يتحمل نتيجة الجزم برأى .

وأما فيليب حتى ، فينص على أنه لا يمكن القطع برأى فى هذا المـــوضوع فيقول :

ولأخبار القرآن التاريخية أمثلة تقابلها فى التوراة ، خلا بعض الأنباء التى هى عربية محضة ، كذكر عاد وثمود ولقمان وأصحاب الفيل . وخلا قصتين ترمزان إلى الإسكندر ، وإلى أصحاب الفيل »(١) .

ثم ـ بعد أن يعقد مقارنة بين ما فى القرآن وما فى التوراة ـ يقول :

« وإن دراسه القصص القرآنية السابقة ، ومعارضة آياتها بما فى التوراة ، لا تثبت أن هنالك اقتباساً صريحاً(٢) .

ثم يقول : واليك العبارات التى تتوازى فى الكتابين المقدسين » .

ويعقد مقارنة بين أكثر من عشرين آية وما يشابهها ـ كما يرى ـ فى التوراة أو الأناجيل .

وقد يكون التشابه ـ كما يقول ـ فى اللفظ مثل « سم الخياط »

ثم ينتهى من الموازنة إلى أن هذا لا يدل على أن القرآن مأخوذ من التوراة أو الأناجيل ويقول عن هذا التشابه :

« فالظاهر أنها من الأمثال السامية القديمـــة ، وجوامع الكلم المألوفة فى العبرانية والعربيه معا (٣) .

---

(١) تاريخ الشعوب الإسلامية ص ٣٤ .

(٢) تاريخ العرب ص١٧١ جـ ١ .

(٣) نفسه ص ١٧٢ .

وبذلك نرى الأجانب لا يتفقون على التهمة فيما بينهم .

إن الأعداء فى الحديث يشبهون الأعداء فى القديم من أهل مكة ، حين وقفوا حيارى يقلبون الرأى ، ويبحثون عن وصف يصفون به القرآن الكريم ، وكلما وصلوا إلى رأى انتقلوا منه إلى غيره حيث لا يجدون لهم سنداً من واقع ، ولا دليلا من عقل .

وإننا هنا نترك أحد الأجانب ليبين لنا تناقض بنى قومه فى موقفهم من محمد صلى الله عليه وسلم والحكم عليه .

يقول « أميل درمنغهم » فى تناقض المستشرقين فى حكمهم على الرسول صلى الله عليه وسلم :

« وقد وجدت مع الأسف تدقيقات المحدثين ناقصة إلى الآن .

وكثيرا ما وجدتها سلبية محضه ومتناقضة .

فالمستشرق الفلانى يحكم بأن محمدا كان أعلى من أبناء عصره . والآخر يقول : إنه كان شبيها بهم من كل وجه .

وهذا يقول إنه توفى على أثر تخمة .

وآخر يقول : إنه أصابته حمى منشؤها كثرة الصوم .

وقال «لامارتين» إنه لم يكن إلها ، ولكنه كان أكثر من رجل أى كان نبيا

وزعم « سبرنغر » هناك وجود هستيريا شديدة .

ولكن « بايئسكى » هدم هذه النظرية تماما .

و « ماسينيون » نفسه صرح بأن محمدا كان على تمام الاعتدال فى مزاجه وأما الأب «لامنس» وهو وإن كان من أحدث المستشرقين العصريين ، وأكثرهم اطلاعا ، فلا ينكر أنه من أشدهم تعصبا ، وقد ذهبت بهجة كثير من تحقيقاته بشدة تحامله على الإسلام ونبيه »(١).

---

(١) حاضر العالم الاسلامي ص ٤٥ ـ ٤٦ ج ١

إن الغرب توارث هذه الأكاذيب ، وأن البغضاء قد استمرت من قديم .

ولكن الملاحظ أن هؤلاء كلما مر بهم الزمن كلما اقتربوا من الحقيقة .

وتستطيع أن تقارن بين القديم والحديث ، فتراهم فى القديم يذهبون إلى « أن محمدا كان صنما من ذهب وأن مساجد المسلمين هى هيا كل ملأى بالتماثيل . وقد ورد فى أغنية اسمها « أغنية أنطاكية » مايفيد أن ناظم تلك الأغنية قد رآى فى تلك الهيا كل محمدا بشكل صنم من ذهب وفضة ، راكبا على فيل . . . ثم إن الأغنية المسماه بأغنية «رولان» والتى تمثل فرسان شرلمان ، وهم يحطمون أصنام المسلمين، فيها أن المسلمين يعبدون ثالوثا مؤلفا من « ترفاغانت » و « محمد » و « وأبولون » هكذا كان تفكير القوم كما يصوره واحد منهم هو (در منغهم) .

وبمرور الزمن ، وتكشف الحقائق وجدنا منهم من يثوب إلى رشده وينسى عصبيته ويقترب من الحق ويرد على بنى قومه .

يقول (در منغهم) :

(ولما كان لكل نبى معجزة كانت معجزة محمد القرآن .

ومما لايقبل المراء أن فى القرآن من سحر البيان مالا يوجد فى كلام غيره على الإطلاق ، وأن فيه من قوة التأثير ، والعمل فى القلوب ما لايبرح إلى اليوم سرا مغلقا ، حتى إنه ليقذف بالخشوع فى قلب أقل الناس خشية وأبعدهم عن التقوى . وكان محمد يتحدى عبقرية العرب أن يأتوا بسورة من مثله .

ولم يكن إعجاز القرآن فى مزيته اللغوية من جهة مايسمى اليوم بالأدب ، بل كان هذا الضرب مما يحتقره محمد : وكان يكره الشعراء ، ويبرأ أن يكون منهم .

وإنما كان إعجاز القرآن فى شدة التأثير وعجز الناس عن الاتيان بمثله) .

---

(١) نفسه ص ٨٤ .

(٢) نفسه ص ٩٤ هذا هو رأى « در منغهم » ولكنه فى مواضع أخرى يردد بعض مايردده بنو قومه ولم نأت به اكتفاء بما ذكرناه مما عاالله .

وليس (در منغهم) وحده هو الذى يرد على بنى قومه .

بل نجد غيره يرى العار فى الإنصات لتقولات الغرب على محمد صلى الله عليه وسلم يقول (كارلايل) :

لقد أصبح من أكبر العار على كل فرد ممدن فى هذا العصر أن يصغى إلى مايظن من أن دين الإسلام كذب ، وأن محمدا خداع مزور ، وآن لنا أن نحارب مايشاع من مثل هذه الأقوال السخيفه المخجلة .

فإن الرسالة التى أداها ذلك الرسول مازالت السراج المنير مدة اثنى عشر قرنا لنحو مائتى مليون من الناس أمثالنا ، خلقهم الله الذى خلقنا .

أكان أحدكم يظن أن هذه الرسالة التى عاش بها ومات عليها هذه الملايين الفائقة الحصر والإحصاء أكذوبة وخدعة ؟

أما أنا فلا أستطيع أن أرى هذا الرأى أبدا .

فلو أن الكذب والغش يروجان عند خلق الله هذا الرواج ، ويصادفان منهم ذلك التصديق والقبول ، فما الناس إلا بله ومجانين ، وما الحيــاة إلا سخف وعبث وأضاوله ، كان الأولى بها ألا تخلق »

هذا هو رأى غربى فى بنى قومه .

هل يقال بعد ذلك إن القوم كانوا يتبعون منهجا علميا فى معالجتهم للقضايا الفكرية والعقائديه ؟ .

إن بدء البحث عندهم كان من أجل باطل . فما أنشئت أقسام اللغة العربية فى جامعاتهم من أجل العلم ، بل من أجل معارضة القرآن وتفنيده لقد بدأت دراساتهم من خطأ وهو اعتقادهم أن القرآن ليس سماويا ثم بعد ذلك كان البحث عن مصدر للقرآن ، ومن المصادر التى توهموها اليهودية والنصرانية .

وككل باطل بدأت فكرتهم تنهار بمرور الأيام ، وبدأ المنصفون منهم

(١) الاسلام والحضارة العربية ص ٦٥ — ٦٦ جـ ١ .

يرون من العار ترديد هـــذه الأباطيل .

* * *

وبعد أن تقدم لنا رد الأجانب بعضهم على بعض نبدأ فى الرد عليهم .

ومن أجل هذا هذا سنحاول معرفة حال اليهودية والنصرانية وقت البعثة .

لقد كانت الديانتان وقت بعثة المصطفى صلى الله عليه وسلم قد حرفتا ، وأصبحتا بعيدتين عن أصلهما السماوى ، بحيث يمكن القول بأنهما أصبحتا ديانتين وضعيتين لجاء القرآن لتبيين الدين الحق

وإليك البيـــان .

اليهودية

يقول « ول ديورانت » :

إن العلماء مجمعون على أن أقدم ما كتب من أسفار التوراه هما القصتان المتشابهتان ، المنفصلة كلتاهما عن الآخرى فى « سفر التكوين » تتحدث إحداهما عن الخالق باسم « يهوه » على حين تتحدث الأخرى عنه باسم « الوهيم ».

ويعتقد هؤلاء العلماء أن القصص الخاصة بيهوه كتبت فى « يهوذا » وأن القصص الخاصة بالوهيم كتبت فى « إفرايم »

وأن هذه وتلك قد امتزجتا فى قصة واحدة ، بعد سقوط السامرة ثم يقول يقول عن سفر الشريعة : —

« وفى هذه الشرائع عنصر ثالث يعرف بالتثنية ، أكبر الظن أن كاتبه أو كتابه غير كتاب الأسفار سالفة الذكر .

وثمة عنصر رابع يتألف من فصول أضافها الكهنة فيما بعد .

والرأى الغالب أن هذهالفصول تكون الجزء الأكبر من سفر الشريعة الذى أذاعة « عزرا » .

ويبدو أن هذه الأجزاء الأربعة قد اتخذت صورتها الحاضرة حوالى عام « ٣٠٠ ق . م [١] »

وقد عقد « ول ديورانت » مقارنة بين فيها أن سفر الشريعة الذى قرأه « يوشيا » الملك فى القرن السابع قبل الميلاد ، غير الذى قرأه (عزرا) الكاهن سنة ٤٤٤ ق . م

(١) قصة الحضارة ص ٢٦٧ — ٢٦٨ من الجزء الثانى المجلد الأول .

فالأول أبلغ عنه الكاهن « حلقيا » أنه وجده فى سجلات الهيكل ، وأن ما فيه هو قضاء موسى نفسه .

والثانى قرأه «عزرا» « وشرع يقرأ عليهم من مطلع النهار إلى منتصفه « سفر شريعة موسى) .

وظل هو وزملاؤه اللاويون سبعة أيام كاملة يقرءون عليهم ما تحتويه ملفات هذا السفر(١)) .

ثم يقول فى المقارنة : (لاشـــك أن الذى قرأه (يوشيا) غير الذى قرأه (عزرا) ؛ لأنه جاء صريحا بالنسبة للأول أنه قرىء على اليهود مرتين كاملتين فى يوم واحد . على حين أن قراءة الكتاب الآخر قد احتاجت إلى أسبوع(٢))

وهكذا يشهد واحد من غير المسلمين بأن التوراة الموجوده ليست هى المنزلة على موسى .

وكان من أثر تعدد الواضعين وجود تناقضات صريحة فى داخل التوراةويعدد (رحمة الله) الهندى هذه التناقضات ، ثم ينقل عن علماء اليهود سببها فيقول :

(وعلماء اليهود يقولون : إن عزرا عليه السلام الذى كتب هذا السفر - التكوين - ما كان له علم بأن بعض هؤلاء بنون أم بنو الأبناء) .

ويقولون أيضاً : أن أوراق النسب التى نقل عنها (عزرا) عليه السلام كان أكثرها ناقصة(٣)

اتضح لنا بهذا أن التوراة الموجودة الآن ليست هى التوراة المنزلة على موسى عليه السلام وبذلك لاتكون الشرائع الموجودة فيها من الشرائع السماوية .

وبعد التغيير نجد اليهود وقد آمنوا بعقائد لايمكن أن تتفق وأى دين سماوى .

---

١ ، ٢ نفسه ص ٣٦٦

(٣) اظهار الحق ص ١٣٢ ج١

لقد جعلوا الإله (يهوه) خاصا بهم وهم شعبه المختار ففى الإصحاح الرابع ـ خروج ـ يقول الإله لموسى (فتقول لفرعون : هـكذا يقول الرب (اسرائيل ابنى البكر)

وفى الإصحاح الخامس ـ خروج ـ عن طلب موسى وهارون من فرعون أن يطلق بنى اسرائيل :

(وبعد ذلك دخل موسى وهارون ، وقالا لفرعون : هكذا يقول الرب إله اسرائيل أطلق شعبي ليعبدوا لى فى البريه .

فقال فرعون : من هو الرب حتى أسمع لقوله فأطلق إسرائيل ؟

لا أعرف الرب ، واسرائيل لا أطلقه .

فقالوا : إله العبرانيين .

وفى الاصحاح السادس ـ خروج ـ يقول الرب لموسى :

(لذلك قل لبنى اسرائيل : أنا الرب ، وأنا أخرجكم من تحت أثقال المصريين ، وأنقذكم من عبوديتهم ، وأخلصكم بذراع ممدودة ، وبأحكام عظيمة ، وأتخذكم لى شعبا ، وأكون لكم إلها)

وكانت نظرة بنى إسرائيل لأنفسهم على أنهم شعب الله المختار ، كانت هذه النظرة سببا فى كثير من المشاكل بالنسبة لهم ، وللإنسانية .

فنعت من قلبهم الرحمة بالشعوب ، وأصبحوا يسارعون فى الحروب

ومن الناحية النفسية سببت لهم عقدة شعب الله المختار ازديادا فى الكبرياء واعتزال غيرهم من بنى الإنسان .

وبالتالى لم ينظروا إلى الأمور نظرة تعممهم وجميع الأمم ، بل نظروا إليها من زاوية خاصة بهم .

وقد أضافوا ـ بزعمهم ـ صفات للإله لاتليق بذاته .

فهو ـ كما يزعمون ـ إذا حكم حكما يمكن أن يرجع فيه ، نادما على ما فعل .

فبعد أن فكر الإله فى اهلاك اليهود كلهم لعبادة العجل ، راجعه موسى ، قائلا (إرجع عن حمو غضبك ، واندم على الشر بشعبك) .

فندم الرب على الشر الذى قال أنه يفعله لشعبه .

وهكذا نجد عقيدة مبدله لا يمكن أن تسعد العالم ، بل كانت سببا فى أشقائه فقد قابل العالم فعل اليهود بالمثل فكانت المذابح التى خضبت التاريخ بالدماء .

المسيحية

لم تكن المسيحية أسعد حالا من اليهودية فقد كانت الظروف التى مرت بالنصارى أسوأ ظروف مرت بأمة واجتمعت عليهم عوامل أفسدت عليهم دينهم وبدلته من دين سماوى يعتمد فى أصوله وأحكامه على الله إلى دين وضعى أرضى نبت وغذى من أفكار بشرية وثنية .

أى أنه بدل أن يرتفع بالبشر ويأخذ بيدهم إلى السماء ، نزل هو إلى البشر يأخذ منهم .

وبعد أن كان البشر وثنيين باسم الوثنية أصبحوا وثنيين باسم المسيحية .

وأهم العوامل التى انحرفت بهذا الدين هكذا هى :

أولا : الاضطهادات التى نزلت بالمسيحيين فأدت إلى ضياع الإنجيل الصحيح

ثانيا : الوثنيات والفلسفات التى كانت تملأ العالم فى ذلك الوقت والتى كان يمكن أن يقل أو ينعدم تأثيرها لو كان هناك الإنجيل الصحيح .

ثالثا : أهواء رجال الدين الذين كانوا دائما يعطون على حساب الدين ليأخذوا هم دنيا .

وإليك التفصيل :

أولا : الاضطهادات

جاء المسيح عليه السلام رسولا إلى بنى إسرائيل بعد أن حرفوا شريعة الله التى جاءهم بها موسى - كما تقدم - يقول المسيح « لم أرسل إلا إلى خراف بنى إسرائيل الضالة » ص ١٥ : ٢٤ وبعد أن رفض بنو إسرائيل رسالة المسيح اتجه بها إلى غيرهم .

ولكن دعوة المسيح قوبلت بعداء شديد كان سببه الأول هم اليهود الذين حرضوا عليه وعلى أتباعه .

وإن نهاية المسيح بمحاولة صلبه — لولا أن نجاه الله — لتدل دلالة قاطعة على الجو العدائى الذى كان يعيش فيه ، ومقدار المؤامرات التى كانت تحاك ضده سواء من اليهود أم من الوثنيين .

وبعد المسيح لم تهدأ هذه الاضطهادات بل زادت ، بحيث يمكن القول بأن أشنع أنواع التعذيب والوحشية قد جربت فيهم .

فقد تركوا الكلاب تنهشهم وللحيوانات تدوسهم ، ودهنوا بالمواد الملتهبة ثم أشعلت فيهم النيران وأضيئت بهم الطرق .

واستمر التعذيب مدة تجاوزت الثلاثمائة سنة .

وقد فكر عدد من ملوك الروم فى هـــذه المدة استئصال المسيحيين نهائيا وبدءوا فعلا فى تنفيذ الفكرة ، وساروا فيها شوطا بعيدا .

وبالطبع كانت الكتب أول شىء تمتد إليه يد المخربين .

وفى عهد أحد هؤلاء الملوك (مكسيمن سنة ٢٣٧) صدر الأمر بقتل العلماء لأنه قدر أنه لو قتل العلماء فإن أمر العامة يصبح سهلا .

وقلده غيره فى قتل رجال الدين وهدم الكنائس . . الخ .

فى هذا الجو لايمكن المحافظة على الكتب ولا التحقق من صحتها .

وبذلك فقد الكتاب الدينى سنده المتصل الذى هو الأساس فيه .

« إنه لابد لكون الكتاب سماويا واجب التسليم ، أن يثبت — كما يقول رحمة الله الهندى — أولا بدليل تام أن هذا الكتاب كتب بواسطة النبي الفلانى ووصل بعد ذلك إلينا بالسند المتصل ، بلا تغيير ولا تبديل .

والاستناد إلى شخص ذى إلهام بمجرد الظن والوهم لا يكفى فى إثبات أنه من تصنيف ذلك الشخص ، وكذلك مجرد ادعاء فرقة أو فرق لا يكفى فيه . . . فإذا كان الأمر كذلك فلا نعتقد — كما يقول — بمجرد استناد كتاب من الكتب إلى نبى أو حوارى أنه إلهامى أو واجب التسليم ، وكذلك لا نعتقد بمجرد ادعائهم بل نحتاج إلى دليل .

ولذلك طلبنا مرارا من علمائهم الفحول السند المتصل فما قدروا عليه .

واعتذر بعض القسيسين فى محفل المناظرة التى كانت بينى وبينهم — كما يقول أيضا — فقال إن سبب فقدان السند عندنا وقوع المصائب والفتن على المسيحيين إلى سنة ثلاثمائة وثلاث عشرة .

وتفحصنا فى كتب الإسناد لهم فما أبنا فيها شيئا غير الظن والتخمين .

يقولون بالظن ويتمسكون ببعض القرائن وقد قلت إن الظن فى هذا الباب لا يغنى شيئا (١) .

لقد عاش القوم وسط الإضطهادات ، فكانت التعاليم سرية ، ولا يستطيع إنسان أن يتأكد مما يسمع .

إن الواحد منهم — بلا شك — كان يعتقد أن كل من حوله جاسوس عليه ورقيب يحصى حركاته وسكناته .

وإذا كانت هذه حاله فكيف يتمكن من سؤال غيره عن شىء فى دينه المحظور ؟ :

لعله من يسأله يكون جاسوسا جاء يعرف سره .

---

(١) إظهار الحق ص ٣٣ ج ١

وفى وسط هذا الجو دست على الدين كتب تحوى عقائد لم يتكلم بها المسيح ولا تمت إلى شريعته بصلة .

ومن هنا تطرق الشك إلى كتبهم بما فيها الأناجيل المعتمدة عندهم .

ومن هذه الأناجيل التى تطرق إليها الشك إنجيل « متى » .

يقول الشيخ رحمه الله الهندى .

« قال « فاستس » الذى كان من علماء فرقة مانى كيز فى القرن الرابع : —

إن الإنجيل المنسوب إلى « متى » ليس من تصنيفه « وبروفسر الجرمنى » قال :

إن هذا الإنجيل كله كاذب .

وهذا الإنجيل كان عند فرقة مارسيونى ولم يكن البابان الأولان فيه ، فهما عندهم الحاقيان :

وتردهما فرقة « يونى تيرين » « والقسيس « أوليمس » .

وأنكرهما وأكثر مواضع هذا الإنجيل نورتن (١) .

وينص علماؤهم على أن هذا الإنجيل ما كان متواترا فى القرن الأول ، وأن التحريف كان شائعا فى هذا القرن(٢) .

وهكذا نجد الشك يتطرق إلى الكتب التى هى الأساس ، فكيف يمكن أخذ عقيدة من كتب هذا شأنها ؟

---

(١) نفسه ص ١٦٤ .

(٢) نفسه نفس الصفحة

ثانيا : **الوثنيات والفلسفات** التى كانت تملأ العالم فى ذلك الوقت .

استطاعت الأفكار الوثنية التى كانت موجودة فى ذلك الحين أن تدخل المسيحية لتزيح غيرها من الافكار الدينية الصحيحة .

وساعدها على ذلك أن المسيحى ـ كما تقدم ـ ما كان يستطيع أن يميز بين ماهو مسيحى وماهو وثنى .

وهذا التأثير الوثنية فى المسيحية لم يستطع منصف إنكاره .

يقول (ول ديورانت) عن عبادة المصريين وأثرها فى المسيحية :

(ومن أعمق الأساطير اسطورة « إيزيس » الأم العظمى . . . ذلك أن إيزيس ، (كما تقول الأسطورة) هى التى عثرت على القمح والشعير حين كانا ينموان نموا بريا فى أرض مصر وكشفت عنهما لأوزير .

وكان المصريون يعبدونها عبادة قائمة على الحب والإخلاص ، فصوروا لها صورا من الجواهر لأنها فى اعتقادهم أم الإله .

وكان كهنتها الحليقون ينشدون لها الأناشيد ويسبحون بحمدها فى العشى والإبكار .

وكانت صورة قدسية لها تمثلها وهى ترضع فى ربية طفلها الذى حملت به بمعجزة من المعجزات ، توضع فى معبد ابنها المقدس «حورس» «إله الشمس» فى منتصف فصل الشتاء فى كل عام ، أى فى الوقت الذى يتفق ومولد الشمس السنوى فى أواخر شهر ديسمبر .

ولقد كان لهذه الأساطير والرموز الشعرية الفلسفية أعمق الأثر فى الطقوس المسيحية ، وفى الدين المسيحى ، حتى أن المسيحيين الأولين كانوا أحيانا يصلون أمام تمثال « ايزيس » الذى يصورها وهى ترضع طفلها « حورس » .

وكانوا يرون فيهما صورة أخرى للأسطورة القديمة النبيلة ؛ أسطورة المرأة

(أى العنصر النسوى) الخالقة لكل شيء ، والتى تصبح آخر الأمر أم الإله .

وكانت هذه الآلهة — رع (أو آمون كما يسميه أهل الجنوب) وأوزير ، وايزيس وحورس — أعظم أرباب مصر .

ولما تقادم العهد امتزج (رع) و (آمون) وإله آخر هو (فتاح) ، فأصبحت ثلاث صور لإله واحد أعلى يجمعها هى الثلاثة)(١)

وهكذا يظهر تأثير الوثنية المصرية فى الديانه المسيحية .

وكما أخذت المسيحية التثليث عن المصرية القديمة أخذت كذلك عن الهندية التى كانت كذلك تقول بالثالوث .

يقرر الأستاذ (مالفير) وجود تشابه كبير بين الثالوث الهندى والثالوث المسيحى

ويضيف أنه ذكر فى الكتب الهندية القديمة التى ترجمت الى الانجليزيه شارحة عقيدة الهنود القدماء مانصه :

نؤمن بسافترى أى الشمس اله واحد ضابط الكل ، خالق السموات والأرض وبابنه الوحيد (آنى) أى النار ، نور من نور ، مولود غير مخلوق ، تجسد من (فايو) أى الروح فى بطن (مايا) العذراء ونؤمن بفايو الروح الحى المنبثق من الآب والإبن الذى هو مع الآب والإبن يسجد له ويمجد)

ومن هنا نجد أن الثالوث الهندى دخل الى المسيحية كما دخل الثالوث المصرى وللأسف لم يهتم دعاة المسيحية بتطهيرها من الوثنيات بل جعلوا همهم انتساب الناس الى المسيحية ولو لم يتركوا عبادتهم الأولى

وهم حينما كانوا يتركون الناس يفعلون مايفعلون ولكن تحت اسم المسيحية، كانوا يظنون هذا نصرا للمسيحية من ناحية ، ومن ناحية أخرى أين هو المصدر الصحيح الذى يرجع الى عيسى والذى يمكن الاعتماد عليه فى حرب البدع .

---

(١) قصة الحضارة الجزء من المجلد الاول ص ١٥٩ — ١٨٩

(٢) من كتاب الله واحد أم ثالوث ص ٨١

الواقع أنه لايوجد مصدر صحيح كما تقدم فأخذ الدعاة من الوثنية عقائد أدخلوها فى المسيحية بدل أن يأخذوا من المسيحية للقضاء على الوثنية .

ثالثا : رجال الدين

إن كل ما أصاب المسيحية من تشويه يقع وزره على رجال الدين المسيحى .

لقد كان بإمكانهم أن يرفضوا الدخيل ، ولكن للأسف هم الذين قرروه يقول القس « بولس الياس اليسوعى » (إنه فى مفتتح القرن السابع الميلادى كتب البابا « غريغوريوس » الأول الكبير إلى القديس « أوغسطينوس » أسقف (كنتربرى) ببريطانيا يقول :

(دع البريطانيين وعاداتهم وأبق لهم أعيادهم الوثنية وأكتف بتنصير تلك الأعياد والعوائد ، واضعا إله المسيحيين موضع آلهة الوثنيين(١)

وهو فى ذلك يقتدى ببولس وأصحابه المبشرين الذين الغوا الختان لما سمعوا بتضرر الوثنيين منه وبعثوا لهؤلاء الوثنيين يقولون : ـ

(قد سمعنا أن إناسا خارجين من عندنا أزعجوكم بأقوال مقلبين أنفسكم ، وقائلين أن تختتنوا وتحفظــوا الناموس الذين لم تأمرهم) (أعمال الرسل ص ١٥ / ٢٤)( ) .

ولقد مرت المسيحية ـ على رجال الدين ـ بأدوار حتى وصلت إلى ما هى عليه الآن .

فهى لم تعلن هكذا مرة واحدة ، بل كان كل مجمع من رجال الدين يضيف جديدا لقد كان من الممكن أن تتجه المسيحية إلى توحيد الله ، وعدم القول بألوهية المسيح ، ولكن ـ للأسف ـ لم يرد لها رجال دينها هذا الطريق المستقيم إن الأناجيل ـ تزعم ما يقولون عنها ـ تدعو الى التوحيد .

---

(١) عن نفس المصدر صـ ٨٨ (٢) عن نفس المصدر صـ ٨٦ ـ ٨٧

ففى أنجيل متى « وإذا واحد تقدم وقال أيها المعلم الصالح أى صلاح أعمل لتكون لى الحياة الأميرية ؟

فقال له لماذا تدعونى صالحا ليس أحد صالحا إلا واحد وهو الله »

فهذا القول يقطع على القائلين بالتثليث أو ألوهية المسيح طريقهم .

وفى أنجيل مرقص : الباب الثانى عشر .

« فجاء واحد من الكتبة وسمعهم يتحاورون ، فلما رأى أنه أجابهم حسنا سأله أية وصية هى أول الكل فأجابه يسوع . إن أول كل الوصايا إسمع يا إسرائيل الرب الهارب واحد »

وقد يطلق عيسى على نفسه الابن ولكن هذا ليس خاصا به بل يجعله يشمل البشر جميعا فى انجيل يوحنا الآية السابعة عشر من الباب العشرين .

فهو يخاطب مريم المجدلية قائلا « اذهبى إلى اخوتى وقولى لهم إنى أصعد إلى أبى وأبيكم وإلهى وإلهكم »

فتراه هنا يجعل الأبوة تشمله وجميع الناس ، فأما أن يجعلوا كل الناس آلهة ، وهو ما لا يقول به عاقل ، وإما أن يجعلوا الأبوة من أبواب المجاز ، وهو الذى يتفق والعقل والدين .

ثم نصوص التوراة التى يؤمنون بها تدعو إلى التوحيد ، فاذا يقولون فى هذا؟

° ° °

كان الواجب إذا أن يدعو رجال الدين إلى التوحيد وعلى فرض أنه وجدت نصوص توهم البنوة كان الواجب تأويلها لتتفق مع القاعدة العامة وهى التوحيد .

ولكن الامر سار على غير هذا فعقدت المجامع ، وفى كل مجمع كان يخنق صوت التوحيد ليرفع صوت الشرك .

ففى مجمع نيقيه (سنة ٣٢٥) كان الوقت قد حان ليتناقش المسيحيون علنا حول المسيح ، بعد أن زالت موجة الخوف وأمنوا الفتنة .

واختلفت الآراء .

فذهب البعض إلى أنه إنسان .

وهذا مذهب « آريوس»(١) الذى يقول .

« إن الله واحد فرد غير مولود لا يشاركه شىء فى ذاته تعالى فكل ما كان خارجا عن الله الأحد إنما هو مخلوق من لا شىء بإرادة الله ومشيئته .

أما الكلمة فهو وسط بين الله والعالم ، كان ولم يكن زمان ، لكنه غير أزلى ولا قديم ، بل كانت مدة لم يكن فيها الكلمة موجوداً .

فالكلمة مخلوق ، بل إنه مصنوع ، وإذا قيل : انه مولود فبمعنى أن الله تبناه،

ويؤدى ذلك الى أن الكلمة غير معصوم طبعاً ، ولكن استقامته حفظته من كل خطأ وزلل ، فهو دون الله مقاماً ، ولو كان معجزة الأكوان ، خلقا بلغ من الكمال ما يستحيل معه خلق شىء ، أكمل منه رتبة وحالا »

هذا ولقد كان مذهب « آريوس » مكتملا فى مواده وأصوله منذ ظهوره وهو يقوم فى أساسه على انكار اللاهوت فى المسيح ، وتصوره انسانا محضا مهما كان عظيما (٢) .

وكان لآريوبيس معارضون — فى مجمع نيقيه — يذهبون الى تأليه المسيح ، بل منهم من كان يرى تأليه مريم .

---

(١) فلسفة الفكر الدينى بين الإسلام والمسيحية ص ١٨٧ ج١ .

(٢) نفسه ص ٢٢٨ .

وبرغم قلة القائلين بتأليه المسيح فى المجمع الا أنهم انتصروا .

وكانت نتيجة المؤتمر ، هو انتصار القول بتأليه المسيح والوقوف ضد القول بأنه رسول .

والحكم بكفر آريوس ومن يذهب مذهبه .

وكانت هذه المقررات التى صدرت عن مؤتمر نيقية هى الأساس الذى بنى عليه بعد ذلك ، واعتبر كل من خرج على هذه المقررات كافراً محروما .

، هذا وان معظم الأسافقة فى الشرق والغرب ما زالوا يرددون على هؤلاء الخوارج جميعهم ويدافعون عن العقيدة التى أجمعوا عليها فى « نيقية » ويوضحونها(١) .

وبعد تأليه المسيح بدأ البحث فى تأليه الروح القدس ، وتمت الموافقة على تأليفه الروح القدس فى مجمع القسطنطينية ، الذى كان أول الأمر مجمعا محليا ثم تحول إلى مجمع مسكونى بعد موافقة بابا روما على ما قرر فيه .

وكان قد عقد سنة ٣٨١ لتكفير قوم أنكروا أن الروح القدس اله .

ولقد كفروا جميعهم فى مجمع القسطنطينية المجمع المسكونى الثانى (٣٨١) الذى حدد آباؤه أن الروح القدس هو :

(الرب المحي المنبثق من الآب والذى تجب عبادته مع الآب والابن »(٢) .

وبذلك انتهوا الى عقيدة الثالوث التى لم تزل عليها الأجيال المسيحية .

وفى مجمع « أفسس » (٢٢ حزيران — أيلول ، ٤٣١) حددت « وحدة الاقنوم فى المسيح ، وأن العذراء مريم أم الله » .

---

(١) نفسه ص ٢٨٩.

(٢) نفس المصدر .

هذه هي الحالة التي انتهت إليها المسيحية واليهودية :

فكان من فضل الله على العالم أن أرسل محمدا صلى الله عليه وسلم ، وأنزل عليه القرآن الكريم وحفظه من كل ما أصاب الكتب السابقة من التغيير والتبديل .

والله تعالى يبين موقف القرآن الكريم من الكتب السابقة فيقول سبحانه .

وأنزلنا إليك الكتاب بالحق مصدقا لما بين يديه من الكتاب ومهيمنا عليه

إن الإسلام جاء ليبين الدين كما أراده الله تعالى ، وكان كتابه «القرآن الكريم آخر الكتب المنزلة .

ومن هنا كان هو الحكم عليها بالصحة أو الفساد .

فالمراد بالكتاب الأول : القرآن الكريم ، فاللام فيه للعهد والمراد بالكتاب الثاني جنس الكتب فالتعريف فيه للجنس ، أو للعهد ، ويكون المراد منه نوع معلوم ، وهو ما أنزل من السماء سوى القرآن الكريم .

« ومهيمنا » أي رقيبا على سائر الكتب ، يشهد لها بالصحة والثبات فالصحيح فيها ماوافق القرآن والباطل ما خالفه .

إن الكتب الأخرى — وإن كانت سابقة على القرآن الكريم — قد طرأ عليها مازعزع الثقة بها . فجاء القرآن لها مصححا .

هذه هي رسالة الإسلام .

ولقد تعرض الرسول صلى الله عليه وسلم للكثير من أنواع التكذيب واتهمه المشركون بأنه أخذ القرآن من غيره .

قال تعالى :

« ولقد نعلم إنهم يقولون إنما يعلمه بشر لسان الذى يلحدون إليه أعجمى وهذا لسان عربي مبين » .

هذه فرية على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، زعموا فيها أن واحدا من البشر هو الذى يعلمه .

من هو هذا المعلم لقد اختلف فيه ؟ قيل هو عائش أو يعيش الذى كان غلاما لحويطب ، أو غلام رومى يدعى جبرا كان لعامر الحضرمى . وقد رد القرآن الكريم على هؤلاء بقوله ،

« لسان الذى يلحدون إليه أعجمى وهذا لسان عربى مبين » .

كيف يمكن لأعجمى لايكاد يبين أن يحل القرآن الكريم الذى هو فى غاية الفصاحة وبهذا الرد البسيط الواضح يرد القرآن الكريم هذه .

وجاء خلفاء لمشركى مكة ليرددوا نفس التهمه ، فى العصر الحديث وتناسى هؤلاء أن كفار مكة كانوا أول من يعلم أنهم على باطل .

فلو كان هناك غلام أعجمى يعلم الرسول صلى الله عليه وسلم وكان فى استطاعة سادته أن يمنعوه من الاتصال بمحمد ، وهم الكفار الذين كانوا على استعداد لعمل أى شىء فى سبيل إنقاذ آلهتهم .

ثم إن هؤلاء المحدثين لم يوفقوا إلى دراسة بدء نزول الوحى على رسول الله صلى الله عليه وسلم .

فقد كان الرسول صلى الله عليه وسلم فى غار حراء « فجاءه الملك ، فقال : اقرأ، قال ما أنا بقارىء قال — صلى الله عليه وسلم — فأخذنى فغطنى ، حتى بلغ منى الجهد .

ثم أرسلنى فقال . اقرأ ، فقلت ما أنا بقارىء ، فأخذنى فغطنى الثانية حتى بلغ منى الجهد .

ثم أرسلنى ، فقال : اقرأ ، فقلت : ما أنا بقارىء فأخذنى فغطنى الثالثة . ثم أرسلنى ، فقال :

« اقرأ باسم ربك الذى خلق » خلق الإنسان من علق «اقرأ وربك الأكرم»

فرجع الرسول صلى الله عليه وسلم ، يرجف فؤاده ، فدخل على خديجة بنت خويلد رضى الله عنها فقال : زملونى ، زملونى .

فزملوه حتى ذهب عنه الروع ، فقال لخديجة وأخبرها الخبر « لقد خشيت على نفسى »

فقالت خديجة : كلا ، والله ما يخزيك الله أبدا ، إنك لتصل الرحم ، وتحمل الكل ، وتكسب المعدوم ، وتقرى الضيف ، وتعين على نوائب الحق . فانطلقت به خديجه حتى أتت به ورقة بن نوفل بن أسد بن عبد العزى ، وابن عم خديجة ، وكان امرءا تنصر فى الجاهلية . وكان يكتب الكتاب العبرانى . فيكتب من الإنجيل بالعبرانية ماشاء الله أن يكتب .

وكان شيخا كبير قد عمى .

فقالت له خديجة : يا ابن عم اسمع من أخيك .

فقال له ورقة يا ابن أخى ماذا ترى ؟ فأخبره رسول الله صلى الله عليه وسلم بخبر ما رأى .

فقال له ورقة : هذا الناموس الذى نزله الله على موسى .

ياليتنى فيها جذعا . ليتنى أكون حيا إذ يخرجك قومك .

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أو مخرجى هم؟

قال نعم . لم يأت رجل بمثل ماجئت به إلا عودى.

وإن يدركنى يومك أنصرك نصرا مؤزرا .

ثم لم ينشب ورقة أن توفى وفتر الوحى .

فلو أن الرسول صلى الله عليه وسلم يأخذ عن معلم لعرف ذلك ورقة ؛ لأنه

كان خبيرا بكتب الأديان الأخرى .

ولكن ورقة تمنى أن يكون حيا حتى من أتباع الرسول صلى الله عليه وسلم .
ثم إن أهل مكة لو كانوا يوقنون حقا أن هناك من يعلم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، لو كانوا يوقنون هذا لثبتوا على هذه التهمة ، ولم ينتقلوا منها إلى غيرها .

ولكن الواقع غير هذا .

لقد انتقلوا من تهمة إلى تهمة .

قال تعالى :

« فذكر فما أنت بنعمة ربك بكاهن ولا مجنون ۝ أم يقولون شاعر نتربص به ريب المنون ۝ قل تربصوا فإنى معكم من المتربصين ۝ أم تأمرهم أحلامهم بهذا هو قوم طاغون . أم يقولون تقوله بل لا يؤمنون . فليأتوا بحديث مثله إن كانوا صادقين . » .

مرة يقولون . كاهن ، ومرة ثانية مجنون ، وثالثة شاعر .

وحقيقة الأمر أنهم وقفوا مبهوتين أمام القرآن الكريم فلو كانت نفوسهم صافيه لآمنوا ، ولكن الدنس الذى أصاب فطرتهم بسبب حقد أو تقليد الآباء أو حرص على دنيا .هذا الدنس منعهم من الإيمان .

وهناك بدءوا يلتمسون للقرآن مصدرا .

والمصدر عندهم كان أحد اثنين .

بشر - كما تقدم فى الآية السابقة .

أو جن كما هنا لأن الكاهن يتلقى من الجن والساحر يستعين بهم ، والشاعر له رئى منهم ، والمجنون به مس من الشيطان .

والله سبحانه وتعالى يقول لرسوله صلى الله عليه وسلم «فذكر» أمض فى طريق الدعوة لا تلتفت لأباطيلهم .

ثم يقول لهؤلاء الذين وجهوا التهمه أنتم يامن توصفون بالعقل والحكمة اعقولكم تسوغ لكم هذا ؟ أم أنكم طغاة ظالمون تجاوزتم حدود العقل .

إن أقرب المقربين لرسول الله صلى الله عليه وسلم وهو « أبو بكر » بادر إلى الإسلام بدون تردد ، ولو كان محمد يمكن أن يكون موضع تهمه لإدرك ذلك أبو بكر ، ولكن الحقيقة أن أبا بكر نجا من العلة التى أصابت هؤلاء المفترين . إن العله تكمن فيهم ، حيث عميت بصائرهم عن إدراك الحقيقة فى هذا القرآن الكريم

ثم يكون التحدى .

« فليأتوا بحديث مثله إن كانوا صادقين »

الشعر ، الكهانة ، السحر وبالإجمال استيحاء الجن فى متناول يدهم فإن كانوا صادقين فى دعواهم فليبرهنوا عليها بالإتيان بحديث مثله .

« وهذا أيضا يرد به على التهمة الأولى « إنما يعلمه بشر » .

فما دام المعلم موجودا وهم أصل فصاحة فليأخذوا منه .

وقد حاولوا وظهر عجزهم

والحيرة التى وقع فيها القدامى من الأعداء ، وقع فيها المحدثون منهم .

* * *

بعد ذلك ننتقل إلى الرد عليهم برد آخر .

وهو أنه كان يجب عليهم أن يقارنوا بين مافى القرآن ومافى غيره من كتب اليهود والنصارى .

كان الواجب عليهم — بدل أن يقولوا إن القرآن أخذ من السابقين أن يقولوا إن القرآن بين لهؤلاء السابقين أن عقائدهم ضلالات ، وأن ماظنوه علما هو الجهل .

إن مافى القرآن مخالف لما فى التوراة والإنجيل .

وإذا أخذنا جانب العقيدة كمثال نجد هذه المخالفة واضحة .

فالعقيدة التى جاء بها الإسلام :

الله واحد لا شريك له ، وهو رب العالمين والناس جميعا عباده .

لا فضل لأحد على أحد إلا بالتقوى .

إذا عصى العبد فالله هو الذى يحاسبه ، وإذا تاب فالله هو الذى يقبل توبته ولا يحتاج الأمر إلى وسيط بين الله وعبده .

وآدم أكل من الشجره ، وتاب ، فتاب الله عليه .

والمسيح عبدالله ورسوله . خلقه بقدرته وأجرى على يديه المعجزات فأحيي الموتى وأبرأ الأكمه والأبرص بإذنه سبحانه ، ولولا معونة الله لما استطاع عيسى أن يحفظ نفسه فضلا عن غيره[1].

وأما فى اليهوديه والمسيحية فهو هذا الخليط الذى تقدم .

فاليهود يرون أنهم شعب الله المختار وأن الله فى نظرهم إله خاص بهم والنصارى عندهم التثليث .

وأن خطيئة آدم بقيت معلقة برقاب البشر حتى جاء عيسى وحملها .

ولقد اعترف المسيحيون أنفسهم بنعمة الإســـلام قديما وحديثا . ونكتفى بشهادة أحدهم .

وهو الدكتور نظمى لوقا .

يقول تحت عنوان « الله »

« لا يدع القرآن شائبة من ريب فى مسألة وحدانية الله لجاء فى سورة الاخلاص « قل الله أحد »

ولا فى تنزيهه عن الشرك والتعدد .

---

(١) موقف القرآن من اليهودية والمسيحية تحتاج إلى كتاب خاص ونسأل الله التوفيق

« لم يلد ولم يولد » ولم يكن له كفواً أحد » .

وفي ذلك نقض لعقائد الشرك ، وتصحيح لعقائد أهل الكتاب أيضا

فقد صار أتباع المسيح إلى القول بألوهيته ، وأنه ابن الله ، وأن الإله الواحد جوهر واحـــد ، له ثلاثة أقانيم ، هي الله الآب والله الابن - وهو المسيح - والروح القدس .

وشبهوا ذلك السر الإيماني المسيحي بالشمس ، وكيف أنها حقيقة واحدة ، تقع على الحواس ، قرصا ، ونورا ، وحرارة ...

وقد أدى هذا اللبس إلى فتنة ، بل فتن بين صفوف أتباع المسيح والمنتسبين إليه .

وجمعت المجامع ، ووقعت المذابح ، وصار الإيمان سبيلا إلى اللدد والفرقة ، لا إلى الألفة ، واجتماع العقول ، والقلوب ، على عقيدة يطمئن الجميع إليها .

وناهيك بعقيدة لباسها المحبة حتى للأعداء تكون مثار ذلك كله ...

لابد من رد الناس إلى بساطة الاعتقاد ، ولابد من نفي اللبس ، وشوائب الريب عن جوهر هذه العقيدة .

وهو التوحيد مطلق التوحيد .

إذا تعين أن يأتي الدين الجديد بحسم هذا الخلاف الوبيل .

« قل هو الله أحد » الله الصمد «لم يلد ولم يولد » ولم يكن له كفوا أحد ...

وهكذا بدت العقيدة الإلهية في الإسلام ناصعة الصفاء ، في تجردها من الشرك ، وشبهاته ، ومن النقص وشوائبه ، على نحو حاسم كانت البشرية قد باتت في حاجة ماسة إليه ، بعد الذي انتاب المؤمنين بالأديان من اختلاف وبلبلة[1] .

ويقول تحت عنوان « الإنسان » :

---

(١) محمد الرسالة والرسول

أما الإنسان ، فوقف بعد اليهودية والمسيحية موقفا لا يحسد عليه كثيراً بسبب ما التصق به من وزر أبيه الأول آدم .

ذلك الوزر الذى اعتبر خطيئة أولى ، وخطيئة باقية موروثة لابد لها من كفارة وفداء حتى لا يذهب بجريرتها أبناء الجنس البشرى كافة . . .

وإن أنس لا أنس القلق الذي ساورنى وشغل خاطرى عن ملايين البشر قبل المسيح أين هم ؟ وما ذنبهم حتى يهلكوا بغير فرصة للنجاة .

فكان لابد من عقيدة ترفع عن كاهل البشر هذه اللعنة ، وتطمئنهم إلى العدالة التى لا تأخذ البرىء بالجرم ، أو تزر الولد بوزر الوالد وتجعل للبشرية كرامة مضمونه .

ويحسم القرآن هذا الأمر حين يتعرض لقصة آدم ، وما يروى فيها من أكل الثمرة المحرمة فيقول فى سورة « طه »

« وعصى آدم ربه فغوى : ثم اجتباه ربه فتاب عليه وهدى[1] »

وهكذا نجد نعمة الإسلام يقربها غير المسلمين .

وفى النهاية أقول لأعداء الاسلام هل أنتم تصدقون أنفسكم حين تفترون على القرآن الكذب .

---

(١) نفس المصدر

خاتمة :

وبعد فإن العقيدة الإسلامية كان لها جنودها فى كل عصر .

والمكتبة الإسلامية مليئة بإنتاج هؤلاء العلماء ولازالت العقيدة لها جنودها فى هذا العصر وهم - والحمد لله - كثير لا ينقصهم الإخلاص .

ولكن العدو أصبح له خطره ، وما كان يصلح للدفاع فى الماضى قد لا يصلح الآن

وإنى اختم هذا الكتاب ببعض الأسئلة :

هل وقفنا من الشباب موقف الطبيب من المريض ، يحفظ عليه صحته ، مادامت موجودة ، يحاول ردها إليه إن فقدها .

وكلما كان الجو المحيط بالمريض مملوءا بأنواع الميكروبات كلما بالغ الطبيب فى تحصينه حتى يأمن إصابته ؟

هل أدركنا الحرب الموجهة ضد المرأة فحاولنا علاجها بما يتفق مع الحرب المعلنة عليها ؟

فإذا ما انتقلنا من الشباب والمرأة بوجه عام إلى الطلبة والطالبات فى داخل الأزهر بوجه خاص نسأل : -

هل استطعنا أن نعمق المفهوم الدينى عندهم ؟ وهل جعلناهم يرون العزة فى الانتساب إلى الدين والدفاع عنه ؟

ثم هل بدأنا العمل الجماعى ، أو لازلنا نعمل فرادى ؛ يدافع هذا عن رأى ويقف الآخر ضده ؟

هل عرف كل من يتكلم باسم الدين - سواء كان أزهريا أم غير أزهرى ؟ أن الكلمة التى يكتبها باسم الدين ستقرؤها الأجيال القادمة - كما قرأها الجيل الحالى وسيعرضونها على كتاب الله وسنة رسوله ، وسيقرؤها الإنسان صاحب الكلمة نفسه حين يجدها فى صحيفته يوم القيامة « يوم لا ينفع مال ولا بنون ، إلا من

أتى الله بقلب سليم ، وعند ذلك تكون هذه الكلمة شاهدة له أو عليه ؟

هل أصبح لنا عرف عام ، عند الكلام فى أى مسألة تتعلق بالدين ؟

بحيث تدرس هذه المسألة من جميع نواحيها . ثم يبين الواجب على العلماء بالنسبة لها ، لافرق بين من هم فى مصر وبين من هم فى أى بلد إسلامى .

وهل يلتزم الجميع بالعمل فى داخل هذا الإطار العام ؟

هل عرفنا بيقين أن الله سبحانه جعل الاسلام ليحكم به لاعليه ؟

وبذلك نتجنب ما وقع فيه البعض من الجرى وراء تقاليد المجتمع ومحاولة إخضاع التعاليم الإسلامية لها ،

* * *

إننى أسأل نفسى هذه الأسئلة وأنا على يقين أن علماء الأزهر - ومعهم يقف جميع علماء الأمة فى مشارق الأرض ومغاربها سواء تعلموا فيه أم لا - قادرون على حمل الرسالة والدفاع عن الإسلام كدفاعهم عنه منذ نشأته .

وأن العلماء الذين أخافوا الأعداء حتى عقدوا المؤتمرات للبحث فى كيفية حربهم ، هؤلاء العلماء لازالوا، ولن يزالوا، قادرين على حمل الرسالة ؛ وقهر الأعداء، أعداء الدين بأذنه سبحانه .

وإن العلماء والمسلمين جميعا سيخرجون من هذه الحرب الفكرية - كما خرجوا مما قبلها - منتصرين محافظين على دينهم الذى رضيه الله لهم .

هـــذا

وكفى بربك هاديا ونصيرا

محتويات الكتاب

الموضوع	الصفحة

تم ايداع هذا المصنف
بدار الكتب تحت رقم ١٩٧٤/١٧٤٥


Bibliotheca Alexandrina
03393586